الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

المكتبة العربية
التراث

ابن سناء الملك

حياته وشعره

١

تحقيق
محمد ابراهيم نصر

مراجعة
الدكتور حسين محمد نصار

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

ابن سناء الملك

حياته وشعره

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

"المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر"

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

المكتبة العربية
التراث

ابن سناء الملك
حياته وشعره

تحقيق
محمد ابراهيم نصر

مراجعة
الدكتور حسين محمد نصار

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

تقديم

للدكتور حسين نصار

كلما راجعت نفسى ، وقلبت أفكارى ، عن هذا « القاضى السعيد » ، وجدتنى أمام رجل كان له من اسمه نصيب واف .

رجل نشأ ابناً لأحد كبار رجال دولة « صلاح الدين الأيوبى » ، فانعقدت الصلات الوثيقة بينه وبين كاتبه شهير ، ذى المركز الخطير ، القاضى الفاضل . ولهذه الصلات نصب القاضى الفاضل نفسه راعياً للصبى الذى يلهج بالشعر ، ينقد شعره ، ويقومه ، ثم يذيعه بين الناس ، فيشيد به ، ويثنى على ناظمه ، ويهتبل كل فرصة لتقديمه وإبرازه .

فحصل الشاب على شهرة دانية ، كان – لاشك – مضطراً إلى أن يركب المشاق والمصاعب ، ليدركها بآخرة من حياته ، لولا القاضى الفاضل .

وألف « القاضى السعيد » كتاباً رائداً ، تتبع فيه قواعد ذلك الفن الشعرى الذى شاع فى تلك العصور شيوعاً واسعاً : الموشحات ، وجمع فيه نماذج من فن المغاربة والمشارقة بالاضافة إلى جهوده الخاصة فيه . ولم يلق كتابه « دارالطراز » مثيلا له ، فشغل موضعاً لم يتزحزح عنه ، وضمن الشهرة أن تزول عنه ، أوتتوارى كما فعلت مع كثيرين من معاصريه ومنافسيه .

واختلط عند الناس أمر « القاضى السعيد » المؤلف فى الموشحات ، و« القاضى السعيد » الشاعر ، فاكتسب الثانى الشهرة من الأول ، وكانت قدرة الرجل فى التأليف معادلة عندهم لبراعته فى النظم .

وفى العصر الحديث ، منح القدر « للقاضى السعيد » دارساً هندياً جاداً ، دءوباً على العمل، حريصاً على الوفاء بحق العلم ، هو الدكتور محمد عبد الحق . فجمع عدة نسخ من مخطوطات ديوانه ، وأكب عليها دارساً ، ومقارناً ، ومحققاً ، دون ملل . ثم وضع بين أيدى القراء : « ديوا ن ابن سناء الملك » ، بعد أن قام على طبعه مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن – الهند ، فى سنة ١٣٧٧ هـ – ١٩٥٨ م .

ثم عهدت كلية دار العلوم بجامعة القاهرة إلى السيد محمد إبراهيم نصر أن يقوم بدراسة لنيل درجة الماجستير تتناول حياة ابن سناء الملك ، وجهوده الأدبية ، ومكانته بين معاصريه ، وأن يعيد النظر فى ديوانه ، فيقارنه بالنسخ الموجودة بالقاهرة – رآها المحقق الهندى أولم يرها – ويعرضه على ملكاته العربية ، وذوقه الذى كونته ثقافته العربية ، فيصحح ما يكون قد فات المحقق الأول ، ويستكمل تمحيص ما لم يستطع تمحيصه ، ويخرجه أكثر دقة وصحة

ولم يسلم الحظ « القاضى السعيد » بعد ، بل وضع التحقيق والدراسة تحت إشراف الأستاذ عمر الدسوقى

وهيأ لمناقشتهما لجنة من الأساتذة عبد السلام محمدهارون والدكتور أحمد محمد الحوفى .فكان لهم من التوجيهات والملاحظة مازاد العمل صحة ودقة .

ولما كان القاضى السعيد عز الدين أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن محمد ، المعروف بابن سناء الملك ، المتوفى فى سنة ٦٠٨ هـ – ١٢١٢ م من شعراء مصر ، فى عصر الحروب الصليبية بل فى أكثر عصورها عنفاً ، وامتلاء بالقتال ، وأزهاها بالانتصار ، وكانت الطبعة الهندية قليلة العدد ، لا تخلو من الأخطاء بسبب رداءة النسخ ، وتأخر عهد الشاعر ، وأعجمية المحقق ،وكان المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية قد أنشأ مشروع المكتبة العربية لحماية التراث العربى ، وإحيائه ونشره ، فقد توفرت كل الدواعى لنشر ديوان ابن سناء الملك ، والدراسة حوله ، فى الجهد الذى بذله السيد محمد ابراهيم نصر ، ونال عليه تقدير جيد جداً من كليته .

وعندما تفضل القائمون على المشروع بأن أسندوا إلىّ مراجعة ماقام به السيد محمد نصر ، وجدته قدقام بجهد مبهظ حقاً ، ووجدته حاول جاهداً أن يفى بالمنهج الذى اختطه لنفسه .

ولكننى اختلفت معه فى أمور ؛ اختلفت معه فى التنظيم الذى اتبعه فى دراسته ، ودارت بيننا فيه مناقشات طويلة ، انتهت إلى اقتناعه بأكثر مارتأيت . وأجرى من التغيير على الدراسة ما جعله يلتقى معى أو يكاد .

واختلفت معه فى بعض النتائج التى وصل إليها ، والآراء التى أدلى بها . وكان بيننا جدل أعنف وأطول من سابقه . فأقنعته بخطأ بعضها فحذفه ، وأقنعنى بصحة بعضه فرضيت عنه ، ولم نستطع أن نصل إلى اقتناع فى بعضه فأبقينا عليه ، مع بقاء كلّ منا على رأيه الخاص .

وكان الأمر نفسه فى التحقيق . ولكن ماوقع بيننا من اختلاف فيه لم يعد تغاير وجهات النظر ، مما يقع بين المحققين فى كل يوم . أضف إلى ذلك أن السيد محمد نصر أفاد من توجيهات لجنة المناقشة ، التى كانت تضم واحداً من أكبر المشتغلين بتحقيق المخطوطات فى بلادنا .

وإذ وصلنا إلى هذه المرحلة ، وجدنا لزاماً علينا أن نهمل الفاحش من شعر ابن سناء الملك ، إذ رفع فيه كل قناع ، وصرّح فيه تصريحاً مؤذياً بالأسماء والصفات والأفعال ، وخلا من اللمسات الفنية التى توقف أنظار القارئ وتشغله عن البذاءة . وفى ظنى أن قصائد ابن سناء الملك هذه ، وقصائد معاصريه من هذا النوع ، إنما هى من الشعر الذى ألف أن يتطارحه الشعراء ، ويمازح بعضهم به بعضاً ، لايريدون به الهجاء الحق ، ولا حقيقة مايودعونه إياه من معان ، بل هى مباراة فى الفحش أو الشتم أووصف عمل شائن أوما شاكل ذلك من مداعبات الشعراء .

وأخيراً وصلنا إلى الصورة الراهنة فى الدراسة والتحقيق . واقتنعت أن السيد محمد نصر بذل جهده ،وأفرغ وسعه . فقدم صورة واضحة ، محددة القسمات ، للشاعر فى دراسته . وقدم شعره بريئاً من كثير من الأخطاء التى وقع فيها المحقق الأول .

وحينئذ صار الجهد خليقاً بأن يطبع ، وأن يوضع بين أيدى الناس ، يقرؤه المكتفون بالقراءة منهم ، ويدرسه من يريدون استكمال الدراسة ، ويقومه من تقع بين أيديهم أدوات للتقويم لم تقع للمحققين الأولين .

والله أسأل أن نوفق إلى خدمة تراثنا ، والقيام بحق أجدادنا . والشكر أوجهه إلى القائمين على مشروع المكتبة العربية ، لرعايتهم لذلك التراث وإخراجه إلى عالم الضياء .

حسين نصار

مقدّمة

هذا الكتاب ، قد وضعت بذوره منذ أمد بعيد يوم أن كنت طالباً فى كلية دار العلوم ، وموظفا بدار الكتب المصرية سنة ١٩٤٨ ، ،فيها التقيت بكثير من المجلدات المطمورة ، والكتب الكثيرة المخطوطة ، التى لم يؤذن لها أن ترى النور ، وتستمتع بالضوء ، وإنما كتب عليها أن تلقى فى جانب من دار الكتب تنهب الأرضة خبرها ، وتقرض الجرذان أشعارها ، ويبقى السر معها ، سر العصور والأزمنة التى ترويها .. وهيهات هيهات أن يكتب لأحد منها أن يرى النور ، وأن يبعث خلقاً جديداً فالباحثون قليل ، وهم على قلتهم لا يجدون دفعاً ولا تشجيعاً ، وعجلة المطابع بطيئة ، وهى إن دارت فالقارئون قليل فعلى الباحث أن يعتصر همته ، ويبذل جهده ، ويدمى عينيه ثم عليه بعد ذلك أن يدفع من ماله ، ومن قوت أبنائه ، فإن تيسر له الناشر الذى يكفيه المئونة ، ويتحمل عنه الغرم ، تحمل بدلا منه الغنم أيضاً إن كان هناك مغنم .

أقول : لقد اتجهت إلى تحقيق ديوا ن ابن سناء الملك يوم أن كنت طالبا فى دار العلوم وكان سبب اختيارى هذا الديوان أنى وجدت مانشر من شعره قليلا نادراً ، وأن الكثير منه مجهول أو غير معنى به .

وهذه الفترة الزمنية التى عاش فيها ابن سناء الملك قد تكون أكثر حظا وأوفى نصيبا فى الدراسة التاريخية .. أما حظها من كتب الأدب ومن الدراسة الأدبية المعاصرة ، ومن نشر مغاليقها ودواوينها فقليل .. ولذا لا تصدر الأحكام الأدبية عليها وافية كاملة .. فأردت بدراستى هذا الديوان ونشره خدمة الأدب ، وكشف معالمه فى هذه الفترة .. وقد لا يفى ديوان ابن سناء الملك وحده فى الحكم على الأدب ، واستنباط الأحكام الأدبية فى هذا العصر ، ولكنه من غير شك سيكون إحدى الدعائم التى يعول عليها فى الحكم والاستنباط .

تحديد عنوان البحث :

ولم أقتصر على تحقيق ديوان ابن سناء الملك فقط ، وإنما أضفت إليه دراسة لشعره ، وللأغراض التى تناولها من مدح وغزل وهجاء ومجون إلى غير ذلك من الأغراض التى تعرض لها ، ولذا آثرت أن يكون عنوان هذه الدراسة : « ابن سناء الملك — تحقيق ديوانه ، ودراسة شعره » علنى — على قدر جهدى — أكون قد وضعت لبنة يستطيع أن يبنى عليها من يتطلع إلى المزيد فى دراسة أدب هذا العصر .

البحوث التى تعرضت لشعر ابن سناء الملك :

ولا أستطيع أن أدّعى لرسالتى هذه السبق فى الكشف عن أدب ابن سناء الملك فقد سبقت إليه ببحوث بعضها كان وافيا فى غرضه كدراسة موشحاته فى تحقيق « دار الطراز » الذى قام به الدكتور جودة الركابى « والعقم ، والابتكار » فى شعر ابن سناء للدكتور عبد العزيز الأهوانى .. وبعضها الآخر تناوله بدراسة مختصرة لا تشفى غلة الباحث ، ولا تكفى المتعمق الدارس ، وهذه كتب كثيرة منها القديم المعاصر لابن سناء « كالدارس فى تاريخ المدارس »

و« الروضتين » لأبى شامة ، و« الضوء اللامع فى أعيان القرن السابع » ، « ونهج السلوك » لعبد الرحمن بن عبد الله من أهل القرن السادس ، و« وفيات الأعيان » و« معجم الأدباء » ، و« النجوم الزاهرة » ، و« السلوك » للمقريزى إلى غير ذلك مما ورد فى ثبت المراجع التى اعتمدت عليها .

ومنها الجديد المحدث« كالشعر فى العصر الأيوبى وممثلوه الأساسيون » للدكتور جودة الركابى « والحركة الفكرية فى عصر الدولة الأيوبية »، « ودراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى » للدكتور محمد كامل حسين ،و« الأدب فى عصر صلاح الدين » للدكتور محمد زغلول سلام ،و« الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية » للدكتور أحمد بدوى إلى غير ذلك مما ذكرناه فى ثبت المراجع. وهذه كلها تحدثت عنه أحاديث جانبية ، ولم تلتفت إليه التفاتا شاملا .

الصعوبات التى قابلتها فى أثناء البحث وكيف ذللتها

لقد كنت قليل الخبرة ، ناقص التجربة يوم خيل إلى أن تحقيق كتاب أدبى أمر سهل ، وعمل ميسور ، ومهمة لا تتعدى النقل والتحبير ، فما هو إلا أن تضع أمامك الأصل الذى تنقل عنه ، ثم تشحذ عزمك و تكتب ، ثم تعكف بعد ذلك على قراءة الكتاب أو الديوان فتفهمه وتستنبط منه بعض خصائص الأدب فى هذا العصر فإذا بك أمام كتاب حىّ متحرك يأخذ طريقه إلى القارئ فى يسر وبلا مشقة .

كم كنت قليل التجربة ..

فقد اعتمدت بادئ ذى بدء على النسخة المصورة ٨٤٠٥ فاتخذتها أصلا ونقلت عنها وكم كانت دهشتى حين قابلت ما كتبته على النسخ الأخرى فهذه قصيدة تربو على الخمسين بيتا لم أكتب منها سوى عشرة أبيات فقط هى التى عثرت عليها فى النسخة الأولى التى جعلتها أصلية ، وهذه قصيدة وجدت فى التيمورية ولم توجد فى غيرها وبدأت الصعوبات .

فقمت بعمل فهرس لكل نسخة ، وراجعت الفهارس بعضها على بعض ، وبدأت من جديد كتابة القصائد المشتركة بعد مضاهاتها حتى لا يندّ منى بيت أو تسقط منى كلمة ..

ثم صادفتنى صعوبة أشد فبين يدىّ نسخة أكل الزمن منها والأرضة بعض أبياتها ،وبعض الكلمات ، فكان علىّ أن أكون يقظا فى الموازنة والاستنتاج ، وتمثل المعنى حتى أعثر على الكلمة الملائمة واللفظة المنهوبة ،وخاصة إذا لم تكن فى نظائرها من النسخ الأخرى.

ثم صادفتنى صعوبة أقسى وأشد وهى أن بعض الناسخين كانت العجلة أو سوء الفهم ، أوعدم الحرص والاهتمام تؤدى به فى كثير من الأحيان إلى التصحيف أو التحريف أو الترك فيكتب كلمة « طغيانه » بدلا من « طيفابه » و« حاثيا » بدلا من« جاثيا » و« فنى » بدلا من « قسى » و« أغيانى » بدلا من « أغنانى » و « فقومنا » بدلا من« قوموا بنا » وربما كان الناسخ يملى عليه فيختلط عليه السماع فيكتب الكلمة كما يخيل إليه سمعه لا كما هى فى الواقع .

ولا يظنن القارئ أن هذه الصعوبة هينة فلقد كنت أقف بجوار الكلمة أكثر من نصف ساعة ثم أتركها دون أن أهتدى إليها ... وطالما استعنت بالكثيرين من رواد دار الكتب وهم من الفضلاء الباحثين ، ثم وقفت أنا وإياهم سواء دون أن نهتدى ، ولكنى أنفقت غاية جهدى، ومنتهى عزمى فوفقت كثيراً ،وخاننى التوفيق حينا.

وليس أمر الوزن وتحقيق موسيقى الأبيات بأيسر مما مضى ، ففي كثير من القصائد والمقطعات ينبو سمعي ، ويقف قلمي ليردد البيت مرة ومرة ، وليراجع فيه موسيقى الوزن ، ويندفع القلم إلى الحذف أو الإثبات ، أو التحريك أو التسكين .

إن تحقيق ديوان من الدواوين بله ديوان ابن سناء الملك عمل شاق ، وجهد جاهد ، ونصب مضن ، فاوجه العام وإحياء الأدب ، وخدمة الوطن ما قمت به من جهد عن رضى واقتناع وإيمان .

محمد ابراهيم نصر

الباب الأول

عصر الشاعر

الفصل الأول

الحياة السياسية

كان العصر الفاطمى الثانى الذى بدأ فى أواخر عهد المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) بداية ضعف هذه الخلافة ، وظهور الوزراء العظام الذين استأثروا بالسلطة ، وتنازعوا الحكم ، وساعدوا على ارتباك البلاد ووقوعها فى خضم من الفتن والثورات والقلاقل .

وكانت الوزارة كلعنة الفراعنة تصيب من يسعى إليها فلا يلبث أن يقتل أو يفر أو يموت ، ولم يترفع الخلفاء ولا الوزراء عن تدبير المؤامرات ، وارتكاب جرائم القتل ، وحسبنا أن نعلم أنه منذ وثب « بدر الجمالى » على كرسى الوزارة فى أواخر عهد المستنصر حتى عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية — ولى الوزارة ما يقرب من أحد عشر وزيراً قتل منهم سبعة وزراء ، ومات اثنان ، وفر الباقون .

وقد هيأ الخلاف بين الفاطميين والعباسيين ، وهذا الصراع العنيف الدامى — الفرصة أمام جحافل الغزو الصليبى ، فدنسوا بأقدامهم أرض الشرق ، وكونوا لهم إمارتين فى بيت المقدس وأنطاكية ، بعد أن قتلوا آلاف المسلمين ، ومثلوا بهم شر تمثيل فبقروا بطون الحوامل ، وقتلوا الأطفال والشيوخ ، ودخلوا المساجد بخيلهم ولم تستطع قوى الفاطميين الثبات أمامهم ، على الرغم من القوة العظيمة التى جابههم بها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩٢ هـ ، (١) لأن الخلافة العباسية أبت أن تمد يدها للخلافة الفاطمية فى اتخاذ موقف موحد أمام الصليبيين (٢) .

وكانت الحروب الصليبية الشر الذى انبثق منه الخير ، فحقا أنها عاثت فى بلادنا العربية فساداً ، ونشرت ظلماً واضطهاداً ، واستذلت بلاداً وسكاناً ، إلا أنها مع ذلك هيأت الجو لقيادات صالحة ، ومهدت لفجر جديد أشرق على البلاد العربية ، التى وحدتها الأهداف ، وقوتها الأحداث . وما أشبه الليلة بالبارحة . وما أشد الشبه الآن بين اسرائيل الدخيلة وبين الصليبيين السفاكين ، وكما اجتثت العروبة الموحدة شأفة الصليبيين ، وطهرت البلاد من رجسهم فكذلك شأن مصير إسرائيل .

لم يكد « صلاح الدين » يلى وزارة مصر حتى وجه كل همه وذكائه إلى استقرار الأمور فيها ، فكان لين العريكة سمحا ، قوى البأس شديداً ، ثاقب النظرة ، يرى ما وراء الظواهر ، استطاع أن يقضى على الفتن والدسائس التى كانت كل هم القصر ، ولم يمكن الوشاة من أغراضهم الدنيئة ، بسلطنة مصر ، وخطب للخليفة العباسى فى أول المحرم سنة ٥٦٧هـ التى مات فيها العاضد ، ثم وجه عنايته إلى استتباب الأمور واستقرار الأمن ، وتوحيد البلاد ، فأرسل أخاه « توران شاه » إلى فتح بلاد النوبة فوطد الأمور بها ، وأمن جنوب البلاد .

(١) النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق : ٦٧

(٢) النجوم الزاهرة : ٥ : ١٤٩

وقد مدحه الشاعر عمارة اليمنى بكثير من القصائد ، وحبب إليه فتح بلاد اليمن فسار « شمس الدولة توران شاه » فى سنة ٥٦٩ هـ إلى اليمن إذ لم يجد فى النوبة طائلا ، فاستقر فيها أمره وعاد إلى « زبيد » فملك الحصون والجند (١) .

ولم تقف آمال « صلاح الدين » عند توطيده الأمور فى مصر ولكنه رأى أن القضاء على الصليبيين لن يتيسر له إلا إذا توحدت أجزاء الوطن العربى وبخاصة بلاد الشام حتى يتيسر له حصر العدو وتضييق الخناق عليه ووقوعه بين فكى الكماشة . ولذا انتهز « صلاح الدين » وفاة الملك العادل نور الدين سنة ٥٦٩ هـ فقدم إلى دمشق فى جيش كثيف بحجة أنه سيحمى الملك الصالح إسماعيل الذى ولى الأمر فى دمشق بعد موت أبيه « نور الدين » لصغر سنه ، وعدم قدرته على مواجهة أعباء الحكم . (٢)

وسرعان ما استقبل « صلاح الدين » فى دمشق استقبال الفاتحين الظافرين فوزع الجوائز والمنح ، والتف حوله الشعراء والأدباء يمدحونه ويشيدون ببطولته وانتصاراته .

وتم بذلك له توحيد مصر والشام والجزيرة تحت إمرته فاتخذ من ذلك قوة غلابة ليقضى بها على الصليبيين .

لقد يسرت هذه الوحدة بين أجزاء الوطن العربى توحيد القيادة العربية ، ووفرت الموارد ، وقطعت أسباب العداء والخلاف بين القواد ، كما أتاحت وحدة المذهب الدينى ، وانتشار المذهب السنى ، وقضت على الدسائس والمؤامرات فى القصور . (٣)

ولقد كانت هذه الوحدة أملا يداعب خيال الشعراء والأدباء والمخلصين ، وأوحت هذه الوحدة للشعراء بفن جديد أطلق عليه الدكتور محمد كامل حسين « فن الشعور بالقومية الإسلامية » واشترك فى هذا الفن عدد كبير من الشعراء فى مختلف البلاد الإسلامية ، ومحى التعصب لفكرة القومية المحلية ، كما محى تفضيل العرب على الأعاجم (٤) وسرعان ما دب الرعب والفزع فى نفوس الصليبيين ، فلم تغن عنهم كثرتهم شيئا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وتوالت هزائمهم ، وانكشفت ظهورهم ، ووقف « صلاح الدين » أمام الصليبيين سدا منيعا ، وصخرة عاتية تكسرت عليها آمالهم وانهارت مطامعهم .

ولذا كان لزاما علينا أن نوضح الدور الهام الذى قام به « صلاح الدين » أمام الصليبيين .

قضى « صلاح الدين » السنوات الأولى لحكمه فى توطيد دعائم دولته ، وتوحيد الجبهة الإسلامية ، وتخللت هذه الفترة مناوشات بسيطة بينه وبين الصليبيين (٥) ، كانت تنتهى فى الغالب بهدنة بين الطرفين ، إلا أن الأمير « أرناط » صاحب حصن « الكرك » دأب على قطع طريق القوافل بين مصر والشام ، وحاول غزو الحجاز ولم يحترم شروط الهدنة بينه وبين « صلاح الدين » .

أثارت هذه العوامل وعوامل أخرى غيرها « صلاح الدين » فتوجه من « دمشق » لمحاصرة « الكرك » ،

---

(١) الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط لابن سعيد خط جـ٢ ص ٢٧٠ والخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٣٧ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٢٤
(٣) راجع منشور الرقة الذى كتبه القاضى الفاضل فى الروضتين جـ ٢ ص ٤٧ .
(٤) راجع « دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص ٨٧ .
(٥) الادب فى عصر صلاح الدين للدكتور محمد زغلول : ٣٥

ووصل أخوه الملك العادل من مصر فى جمع عظيم ، وجيش كبير ، غير أن الصليبيين قابلوه بجيش كثير العدد والعدد فتريث «صلاح الدين» وأعاد تنظيم بلاده .

فلما كان نهار الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١) قصد «صلاح الدين» بعدد كبير من عسكره نحو «طبرية» (٢) على سطح الجبل ينتظر قدوم الصليبيين الذين اجتمعوا فى عدد كبير بمرج صفورية بأرض «عكا» ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم ، فهجم «صلاح الدين» على «طبرية» واستولى عليها فى ساعة واحدة ؛ ولما بلغ العدو ماجرى قلقوا ؛ وتحركوا للدفاع عن أنفسهم وملاقاة « صلاح الدين » فاستهان المسلمون بالموت ، وأحسوا قوة المبادئ التى يدافعون عنها ، وأرضهم الطيبة التى دنسها هؤلاء المعتدون ، وصاحوا فى قوة وإيمان : الله أكبر ، فألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين وشتت شملهم ، وراحوا يلوذون بالفرار وتبعهم المسلمون ، وأحاطوا بهم من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وحملوا عليهم بالسيوف ، وسقوهم كأس الحمام ، واعتصمت طائفة منهم «بتل حطين» (٣) فضايقهم المسلمون ، وأشعلوا حولهم النيران ، واستبد بهم العطش ، فاستسلموا للأسر خوفا من القتل ، فأسر مقدمتهم ، وقتل الباقون ، وكان ممن أسر منهم الملك «جودفرى» (٤) وأخوه الملك «بلدوين» (٥) ، و «أرناط» صاحب الكرك والشوبك .

وألهب هذا النصر قرائح الشعراء ، فراحوا يتغنون به ، ويزدهون بقائد الإسلام ويندِّدون بهذه الهزيمة النكراء التى لحقت بالصليبيين وفى ذلك يقول العماد الكاتب قصيدة طنانة مطلعها :—

حططت على حطين قدر ملوكهم ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا (٦)

وقال ابن الساعاتى قصيدة عظيمة فى هذا الفتح مطلعها : —

جلت عزماتك الفتح المبينـــــا فقد قرت عيون المؤمنينا (٧)

كان لهزيمة الإفرنج فى موقعة حطين أثرها الواضح فى تقوية الروح المعنوية لدى جنود المسلمين ، فتهاوت أمامهم معاقل الصليبيين وحصونهم حصنا وراءحصن (٨) وأحاطوا بالقدس من جميع الجهات؛ ففى يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ التقوا بالأعداء الذين وهن عزمهم وضعف قتالهم ودب الرعب فى قلوبهم فانهزموا رغم كثرتهم إذ قدر عددهم فى هذه الواقعة بستين ألفا عدا النساء والصبيان وسلموا المدينة فى سبع وعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ أى ليلة الإسراء والمعراج ، فارتفعت ألسنة الشعراء بتمجيده وتعظيمه . فمدحه فخر الكتاب أبو على الحسن بن على الجوينى المقيم بمصر بقصيدة مطلعها :—

(١) الروضتين جـ ٢ ص ٧٥

(٢) وهى بلدة مطلة على بحيرة طبرية الواقعة بين الأردن وإسرائيل والإقليم السورى .

(٣) وهى قرية عندها قبر النبى شعيب عليه السلام .

(٤) وهو فى الكتب العربية كالنجوم الزاهرة ، والاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط ، وصبح الأعشى « جوفرى » وهو دوق اللورين .

(٥) وهو فى الكتب العربية القديمة « بلوين » انظر المراجع السابقة .

(٦) مطلع قصيدة طويلة فى الروضتين جـ ٢ ص ١١٣ والنجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤

(٧) الروضتين جـ ٢ ص ٨٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤ .

(٨) راجع كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٨٧

جنـــد السماء لهـذا الملـك أعـوان   من شك فيهم فهذا الفتح برهان (١)

وقد مدحه كذلك الشريف النسابة المصرى محمد بن أسعد بن على بن معمر الحلبي المعروف بالجوانى نقيب الأشراف بالديار المصرية بقصيدة مطلعها :-

أتـــرى منـــاماً ما بعينى أبصـــر   القدس يفتح والفرنجة تكسر (٢)

وقال أبو الحسين بن جبير الأندلسى :-

أطلــت عــلى أفقــك الزاهـــر   سعود من الفلــك الدائـــر
فأبشر فإن رقــاب العـــدا   تمـد إلى سيفك الباتــــر (٣)

ومدحه العماد الكاتب بقصيدة مطلعها :-

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا   وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا

وقال الحكيم أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسان الأندلسى الجيانى قصيدة منها :-

أبا المظفر أنت المجتبي لهدى   أخرى الزمان على خبر بخبرته
فلو رآك وقد حزت العلى عمـــر   فى قلة التل قضّى كنه عبرته
ولو رآك وأهل القدس فى وله   أبو عبيدة فدى من مسرته

وقال الرشيد بن بدر النابلسى :-

هذا الذى كانت الآمال تنتظر   فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حُكيت   فى سالف الدهر أخبارٌ ولا سيرُ

وقد مدحه كذلك «نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور» الوزير العزيزى ، وغيره من الشعراء (٤) .

وآذن سقوط القدس فى يد المسلمين بسقوط كثير من بلاد الفرنج وحصونهم (٥) ولم يقف فى سبيلهم غير مدينة «صور» وقد حاصرها «صلاح الدين» ، واستدعى أسطولا من مصر لمعاونته ، ولكن أسطول صور خرج بالليل فأوقع بأسطول المسلمين على حين غرة ، وقتل عدداً كبيراً مما أجبر صلاح الدين على الانسحاب ؛ ففرق عساكره ورحل إلى دمشق ، ولم يكد يقيم بها أكثر من خمسة أيام حتى وافاه النبأ بأن الفرنجة قصدوا «جبلة» فاغتالوها فخرج مسرعاً بجمع عساكره من هنا ومن هناك حتى وصل إلى «أرتنطوس» فحاصرها وقهرها واستولى عليها ، ثم اتجه إلى «جبلة» فاستولى عليها أيضا وتبعتها «اللاذقية» ورفع العلم الإسلامى عليها ، وظل السلطان يطهر البلاد والحصون من الفرنج ويستولى عليها حصنا بعد حصن حتى كان اليوم الثالث عشر من رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة ٥٨٥ هـ فبلغه أن الفرنج قصدوا «عكا» فاتجه إليها ودخلها بغتة ليقوى بها قلوب

---

(١) الروضتين جـ ٢ : ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٠٥

(٣) الروضتين : جـ ٢ ص ١٠٦

(٤) هذه القصائد السابقة فى الروضتين جـ ٢ ص ١٠٣ وفى النجوم الزاهرة جـ ٦ : ص ٣٧ تفاصيل وافية عن هذه الواقعة.

(٥) وقد ذكر أبو شامة فى كتابه الروضتين الكثير منها : طبعة – عكا – الزيب – معليا – اسكندرية – تبين – =

المسلمين ولكن الفرنجة تكاثروا واستفحل أمرهم وتوالت عليهم الإمدادات براً وبحراً حتى استظهروا على الجماعة الإسلامية وضايقوهم وأخذوا عكا عنوة . (١) ، وقتل فى هذه الموقعة زهاء ثلاثة آلاف مسلم .

وتتالت المعارك بعد ذلك بين السلطان صلاح الدين وبين الفرنج ، غير أن جنده كان قد سم الحرب وضاق بها فقويت شوكة الصليبيين ولذا استقر رأى السلطان صلاح الدين على الصلح .

وأبرم الصلح (٢) بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات تبدأ من اليوم العشرين من شعبان سنة ٥٨٨ هـ وافق ٢ من سبتمبر ١١٩٢م فوضعت الحرب أوزارها لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وفرق صلاح الدين عساكره وعكف على تنظيم البلاد وإعادة بنائها فأصلح القدس (٣) وتفقد أحوال البلاد الساحلية ودخل دمشق ونشر جناح عدله وهطلت سحائب إنعامه ، وأنشده الشعراء حتى وافاه أجله فى ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ فكانت وفاته دمعة فى كل عين ، وشجى فى كل حلق وأسى فى كل قلب مات رحمه الله تعالى عن سبع وخمسين سنة (٤) .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنهم وكأنها أحلام (٥)

وانتهت بذلك صفحة مشرقة من صفحات الجهاد أمام الغزو الصليبى .

ولما ولى الملك العزيز عثمان أمر مصر جدد الهدنة مع الصليبيين غير أنه قد جرت مناوشات بين الفريقين لم يترتب عليها نتائج ذات أهمية حتى تم الصلح بين العادل والعزيز من جهة ؛ وبين الفرنج من جهة أخرى فى شعبان سنة ٥٩٤ هـ ، ١٢٠٤ م لمدة ست سنوات (٦) .

وفى سنة ٦٠٠ هـ ، ١٢١٠ م عاود الفرنجة اعتداءاتهم ونهبهم : بعد أن انقضى أمد الهدنة ، فصالحهم العادل من جديد ، وجدد الهدنة لخمس سنوات أخرى ، وأعطاهم بعض البلاد ، وشجعهم ما بين الأمراء والملوك المسلمين من تفكك أن يعيثوا فى البلاد فساداً ؛ فقصدوا حماة فلقيهم أميرها الذى لم يقف بجانبه أحد من الملوك الآخرين — فهزموه فخرج العامة للقائهم (٧) وأبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن أرضهم ووطنهم ، واستشهد منهم عدد كبير ، ومن هذه المعارك وأمثالها نجد أن الشعب لم يكن بمعزل عن السياسة والحرب ، وإنما اشترك فيها وخاض غمارها .

بعد أن عقد العادل الصلح بينه وبين ملك بيت المقدس الجديد المعروف باسم «حنا برين» أرسل حنا هذا فى الوقت نفسه إلى روما يطلب إعداد حملة صليبية جديدة وإرسالها بعد انتهاء أمد الهدنة ، وترامت إلى مسامع

= هو تين — الناصرة — الطور — صفورية الروضتين جـ ٢ ص ٨٨) .

(١) راجع النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٤٥ والاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط جـ ٢ ص ٢٤٨ .

(٢) وفى كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ صور المراسلات التى دارت بين الفريقين للصلح .

(٣) الكامل لابن الأثير جـ ٩ ص ٢٢١ ، وقد جاء فى مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ : ٤٠٣ أن الهدنة بدأت من ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ لمدة خمس سنوات .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٦ .

(٥) راجع الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط جـ ٢ ص ٢٥٨ — ٢٥٩

(٦) الكامل : ٩ : ٢٣٨ ، مصر فى عصر الأيوبيين : ١١٢

(٧) الكامل : ٩ : ٢٦٥

الملوك الأيوبيين أنباء هذه الحملة فقربوا ما بينهم ،وحاولوا أن يتناسوا أحقادهم ، وكان الصليبيون قد كثروا فى طرابلس وحصن الأكراد ، وأغاروا على حمص ، ولم يجد أميرها من يغيثه سوى الملك الظاهر صاحب حلب الذى تمكن من ردهم عنه . (١)

والواقع أن الاضطراب فى صفوف الصليبيين فى الشرق – بسبب التنازع بين الإمارات الصليبية ، وبينها وبين الإمارات الأرمنية ، وما حدث من مشاحنات بين الطوائف الدينية العسكرية من جهة أخرى – هو الذى أفاد الأيوبيين المختلفين أيضا ، المتنازعين على الحكم والسلطان. يضاف إلى ذلك أن المسيحيين الوطنيين صاروا يكرهون الأوربيين ويفضلون حكم المسلمين ، وكان هؤلاء الأوربيون قد انصرفوا إلى اللهو والفساد ،حتى رجال الدين منهم شاركوا فى تدبير المؤامرات ، وأفادت الجاليات الإيطالية من العلاقات الودية مع المسلمين فى تنشيط تجارتها ، وزيادة رخائها (٢) .

ولهذه الأسباب مجتمعة تمكن العادل – حين أسرت بعض السفن المصرية ،فى أثناء الهدنة فى قبرص – أن يخرج فى جيش من مصر إلى عكا ليرغم ملكها الذى عاد إليه حكم قبرص على إعادة السفن ، وإعادة الأسرى ، وتم له ما أراد . (٣)

---

(١) الكامل : ٩ : ٢٩٧

(٢) مصر فى عصر الأيوبيين : ١١٣

(٣) الكامل : ٩ : ٢٩٧

الفصل الثاني

الحياة الأدبية

مجالس الخلفاء والوزراء ونقد الشعر ومدارسته فى هذا العصر

لم تشغل الحروب الصليبية الخلفاء والوزراء عن الشعراء والأدباء ، فقربوهم إلى مجالسهم ، واستمعوا إلى قصائدهم التى ألهبت مشاعرهم ، وأذكت حماستهم وعواطفهم فتمسكوا بالنصر ، ونعموا بلذة الجهاد ، ونشوة المدح .

وكان الخلفاء والأمراء والوزراء لا ينسون أنفسهم يوم أن تضع الحرب أوزارها ، وتخمد أوارها ، فيعقدون الندوات ، يستمعون فيها إلى النوادر والفكاهات ، أو يطربون بتغريد إحدى المغنيات ، أو يتبارون مع الشعراء فى مدارسة الشعر ونقده .

وكان لبعض هؤلاء الخلفاء ميل فطرى إلى الشعر حتى أن بعضهم كان يجيد قرضه وإنشاده ، فلقد كان الملك «الأفضل» بن صلاح الدين شاعراً ، وذكر ابن خلكان أن تاج الملوك بورى أخا صلاح الدين الأصغر كان شاعراً وترك ديوانا من الشعر وكذلك اشتهر الملك الكامل بن الملك العادل ، وأخوه الملك المعظم عيسى كان يصدر فى الشعر عن طبيعة سهلة ، حتى عرف بذلك بين الشعراء ؛ وكان الشعراء إذا لم يتكلف أحدهم فى قرض الشعر وصفوه : «بأنه يفعل فعلا معظميا» (١) .

واشتهر كذلك المنصور بن المظفر عمر بن شاهنشاه والى حماة بالشعر ، ووضع كتباً فى الشعر منها «طبقات الشعراء» . وكان إبراهيم بن فروخشاه والى بعلبك شاعراً أديبا حتى قيل إنه أشعر بنى أيوب ، وله ديوان شعر .

ولقد كان الحكام فى المشرق وفى المغرب يطربون للأدب ، ويقربون الأدباء ، والشعراء ، ويستوزرون الكتاب ، (٢) فقد ازدهر الأدب فى بلاطات سلاطين السلاجقة وسلاطين الخوارزميين ، (٣) وكانوا يعشقون الأدب والأدباء ، وكان الكتاب يدونون رسائلهم ونتاجهم باللغتين العربية والفارسية . (٤)

وقد اشتهر «صلاح الدين» و «نور الدين محمود» بميلهما للأدب ، وتقريبهما الشعراء ، واستماعهما

(١) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية

(٢) ٣٤٤ Browne

(٣) الدولة الخوارزمية ص ٧٧ — ٨٩

(٤) ٣١٧ : Brown والأدب فى عصر صلاح الدين : ٢١١

القصائد التى تسجل انتصارهما ، وتخلد مآثرهما ، وكان كل منهما لا يبخل على الشعراء بالمال والعطاء ، وكان صلاح الدين كثيرا ما يستدعى بعض مقربيه ويطلب إليه أن يقرأ عليه فى ديوان أحد الشعراء ، وكان ديوان ابن منقذ الشاعر الشامى المعاصرمن أفضل الدواوين لديه ، كذلك كان ابن منقذ نفسه؛ فقد حظى بعطفه فى أواخر أيامه ، وكان الشاعر قد بلغ من العمر مرحلةالشيخوخة . (١)

وذكر المؤرخون أن «صلاح الدين» كثيرا ما كانيردد فى مجالسه قول أبى المنصور محمد بن الحسن الحميرى :

وزارنى طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة ونور الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحا ... وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمـالى تخيـل لى ... نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وكان يعجبه قول ابن المنجم :

وما خضـب الناس البياض لقبحه ... وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنـه مـات الشباب فسودت ... على الرسم من حزن عليه منازله

فكان إذا قال «ولكنه مات الشباب» يمسك بكريمته (يريد لحيته) وينظر إليها ، ويقول : «أى والله مات الشباب» . (٢)

وقد اشتهر «تاج الملوك بورى» أخو صلاح الدين الأصغر بشغفه بالأدب ، ومنادمته الأدباء حتى روى ابن خلكان أنه ترك ديوانا من الشعر ، ومنه قوله : —

آه من ورد خديك بالمسك منقط ... بين أجفانك سلطان على ضعفى مسلط
قد تصبرت وإن برح بى الشوق وأفرط ... فلعل الدهر يوما بالتلاقى منك يغلط

ومن شعره يهتف بحب مصر :

شربت من الفـرات ونيـل مصـر ... أحب إلى من ماء الفـرات
ولى فى مصر من أصبو إليـه ... ومن فى قربه أبدا حيـاتى
فقلت وقد ذكرت زمان وصـل ... تمـادى بعده روح الحيـاة
أرى ما أشتهيه يفـر مـنى ... وما لا أشتهيه إلى ياتى (٣)

وقد قضى الملك الكامل بن الملك العادل أربعين سنة فىحكم مصر دأب فيها على تشجيع الأدباء والعلماء ، ورويت عنه أخبار أعادت إلى الأذهان سيرة هارون الرشيد ؛ فقد كانت تبيت عنده فى القلعة فى كل ليلة جماعة من أهل العلم ،فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه ، فنفقت العلوم والآداب عنده ،

---

(١) الأدب فى عصر صلاح الدين : ٢٦٦
(٢) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية : ٥٨ ، ٥٩
(٣) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية : ٦٥

وقصده أرباب الفضائل ،ونوادره الأدبية أكثر من أن تحصى ،منها على سبيل المثال : أنه كان فى ليلة من الليالى جالسا فدخل عليه شاعر من الشعراء اسمه المظفر ، فقال له الكامل :

أجز يا مظفر : «قد بلغ الشوق منتهاه» .
قال مظفر : وما درى العاذلون ما هو
قال الكامل : ولى حبيب رأى هوانى
قال مظفر : وما تغيرت عن هواه
قال الكامل : رياضة النفس فى احتمال
قال مظفر : وروضة الحسن من حلاه
قال الكامل : أسمر لدن القوام ألمى
قال مظفر : يعشقه كل من يراه
قال الكامل : وريقه كله مدام
قال مظفر : ختامها المسك من لماه
قال مظفر : ليلته كلها رقاد
قال مظفر : وليلتى كلها انتباه
قال الكامل : وما يرى أن أكون عبدا
فقام مظفر على قدميه وقال : «بالملك الكامل احتماه»

العالم العامل الذى فى كل صلاتنا نراه
ليث وغيث وبدر تم ومنصب جل مرتقاه (١)

وهكذا كان الخلفاء والأمراء يجدون فى حديث الأدب والشعر راحتهم ومتنفسهم ، بعد أن يلفحهم هجير الحرب ، فيجدون فى مجالسهم وسمرهم ومنتداهم ما ينسيهم نار الحرب وويلاتها

ومن طريف ما يروى أن ابن شيث الشاعر كتب مرة للملك المعظم «عيسى» أنه لما فارقه ودخل منزله طالبه أهله بما حصل له مع السلطان ، فقال لهم : ما أعطانى شيئا فقاموا إليه بالخفاف وصفعوه فكتب بعد ذلك شعرا يقول فيه :

وتحالفت بعض الأكف كأنها التصفيق عند مجامع الأعراس
وتطابقت سود الخفاف كأنها وقع المطارق من يد النحاس (٢)

فرمى المعظم الرقعة إلى فخر القضاة ابن بصاقة وقال : أجبه عنها فكتب إليه نثرا وفى آخره :

فاصبر على أخلاقهن ولا تكن متخلقا إلا بخلق الناس
واعلم إذا اختلفت عليك بأنه (ما فى وقوفك ساعة من باس)

---

(١) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية : ٦٤
(٢) فوات الوفيات : ١ : ٥٦١

والعجز صدر بيت مشهور لأبي تمام تمامه : «نقضي ذمام الأربع الأدراس» .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب الكثير من مجالس الشعراء والأدباء وأخبارهم وطرائفهم فكانوا يجتمعون فى المغانى لاستماع الأغانى ، ويذهبون زرافات إلى التمتع بالجزيرة والجيزة والأماكن العزيزة ، فالعماد الأصبهانى يروى أنه لما جاء إلى مصر صفت له الحياة ، وارتاح إليها ، وإلى أهلها قال : «وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع الأغانى ، والتنزه فى الجزيرة والجيزة ، والأماكن العزيزة ، ومنازل العز والروضة ، ودار الملك والنيل ، والمقياس ومراسى السفن ومجارى الفلك ، والقصور بالقرافة ، وربوع الضيافة ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة فى المسائل الفقهية ، والمعانى الأدبية ، قال : واقترحنا على القاضى ضياء الدين الشهرزورى أن يفرجنا فى الأهرام فقد شغفنا بأخبارها فى الشام ، فخرج بنا إليها ودار بنا حواليها ، ودرنا تلك البرابى والبرارى والرمال والصحارى ، وهالنا أبو الهول ، وضاق فى وصفه مجال القول ، ورأينا العجائب ، وروينا الغرائب ، واستصغرنا فى جنب الهرمين كل ما استعظمناه ، وتداولنا الحديث فى الهرم ومن بناه ... الخ» (١)

وكان للخلفاء بصر بالشعر الجيد ، وذوق فنى فى النقد ، روى أن العماد الأصبهانى عرض على «صلاح الدين» يوماً بضع أبيات فى وصف المشمش ومنها قوله :

بدت بين أوراق الغصون كأنها كرات نضار فى لجين مطرق

فقال صلاح الدين : تشبيه الورق باللجين غير موفق ، لأن الورق نفسه أخضر .

قال العماد : كرات نضار بالزمرد محدق ، فقال لا بأس . (٢)

وشاعت بين الأدباء فى ندواتهم واجتماعاتهم روح النقد ، فكثيرا ما كانوا يجتمعون ويتناولون بالنقد أديبا من أدبائهم ، ويتحدث كل منهم حديثا عن أدبه ، ومما يروى أن القاضى الفاضل قد جلس يوما وحوله ثلة من الأدباء فتحدثوا عن أدب العماد الأصبهانى فقال القاضى الفاضل لأصحابه : قولوا رأيكم فيه ، فشبهوا قريحته ومنطقه بصفات لم يقبلها القاضى الفاضل ... فعقب على قولهم وقال : «هو كالزناد ظاهره بارد وداخله نار . (٣) وقد كان يعتريه العى والتلجلج أحيانا ، لذا قال عنه ابن عساكر : « قالوا وقد كان منطوقه يعتريه جمود وفترة ، وقريحته فى غاية الجودة والحدة» (٤) »

وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ بكثير من أخبار الأدباء ونقدهم فى هذه الفترة ، ومن العبارات اللاذعة فى النقد ، ما رواه ياقوت الحموى من أن تاج الدين الكندى ، سمع مرة شعرا للحافظ بن عساكر فقال : «هذا شعر أضاع فيه صاحبه شيطانه» (٥)

وقال ياقوت نفسه فى شعر أحد العلماء : «ولهذا أشعار من هذا النمط ترك الكاغد أبيض خير من تسويده بها» . (٦)

(١) الروضتين : ١ : ٢٦٧ ، الأدب فى عصر صلاح الدين : ٢٤٦
(٢) الأدب المصرى : عبد اللطيف حمزة : ٥٩
(٣) البداية والنهاية : ١٣ – ٣٠
(٤) الأدب فى عصر صلاح الدين : ٢٥١
(٥) إرشاد : ٥ – ١٤٥
(٦) إرشاد : ٥ – ٤١٤ ، الأدب فى عصر صلاح الدين .

وقد سافر «ضياء الدين بن الأثير» إلى مصر سنة ٥٩٦ هـ واتصل بأدبائها ، وكان بها فى ذلك الوقت «ابن نجية» الحنبلى ، و «البلطى» النحوى ، و«ابن معط» ، و«القاضى الفاضل» ، و«ابن سناء» و «الأسعد ابن مماتى» و «على بن ظافر» وغيرهم ، وقد اجتمع بهؤلاء الأدباء وناظرهم وقال فى الوشى المرقوم: «ورأيت مصر الناس مكبين على شعر أبى الطيب المتنبى دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، وقلت : إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه ، وهو أبو نواس ، فلم يذكروا لى فى هذا شيئا ثم إنى فاوضت القاضى الفاضل فى هذا فقال : «إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس ، ولقد صدق فيما قال» (١)

ولقد تركت هذه الآراء فى النقد ، وكذلك تلك المجالس الأدبية ، ورعاية السلاطين لها ، وميلهم إليها أثرا واضحا فى نهضة الشعر خاصة والأدب بصفة عامة فى هذه الفترة .

---

(١) الوشى المرقوم ٥ ١١ ، الأدب فى عصر صلاح الدين : ٥٨

أثر الشعر الفاطمي في الشعر الأيوبي

ظهر فى العصر الفاطمى عدة مدارس للشعر ، تسربت منها سماتها إلى شعراء الأيوبيين : ولها : مدرسة شعراء العقائد ، ونعنى بهم شعراء المدح الذين فاض شعرهم بالمصطلحات والعقائد الفاطمية ، وقد استعملوا الألفاظ الضخمة القوية ذات الجرس الصاخب لتتلاءم مع تلك المصطلحات ؛ فجاء فى شعرهم غريب المصطلحات فى غريب الألفاظ مما أدى أحيانا إلى شيء من التعقيد ، وكان شعرهم أقرب إلى النظم فى أغلب الأحيان ، واستمرت سمات هذه المدرسة فى عصر الأيوبيين على الرغم من أن الشعراء لم يكونوا شيعيين ، فالعقائد الفاطمية بمصطلحاتها ظهرت فى مدائح الشعراء على الرغم من تنكرهم للشيعة وإيمانهم بالمذهب السنى (١) فابن الساعاتى يمدح الخليفة العباسى الناصر بانتسابه إلى الرسول ، وإلى الوصى على بن أبى طالب ، وجعفر بن أبى طالب ، وعقيل بن أبى طالب ، وحمزة بن عبد المطلب (٢).

وقد مدحه: «بأن له شرف البيت العتيق وزمزم ...» وهذا معنى من المعانى الفاطيمة التى تؤول الشعائر على أنهم الأئمة ، وقد شرفهم الله بذلك . (٣)

وفى أحد أبيات هذه القصيدة يجعل الخليفة العباسى فوق السبع الشداد أى فى منزلة المبدع الأول «العقل الأول أو القلم» وهذا المعنى لا يمدح به إلا إمام إسماعيلى .

وكان «ابن النبيه» (٤) أجرأ الشعراء المصريين فى الأخذ من عقائد الفاطميين ، وأشدهم مبالغة ، فى مدحه الخليفة الناصر العباسى كان متأثرا بالعقائد الفاطمية الماثلة فى أذهان الناس ، وقد خيل إليه أنه يمدح الإمام الفاطمى لا العباسى . فاقرأ ما قاله فى مدح الخليفة الناصر :

بغداد مكتنا وأحمد أحمد حجوا إلى تلك المنازل واسجدوا

وقد جعل الشاعر الخليفة العباسى بضعة من جسد الرسول (فهناك من جسد النبوة بضعة) وهو بالطبع ليس من نسل الرسول وقد ضمنه الحديث النبوى الذى يردده الشيعة : «فاطمة بضعة منى» فمبالغة الشاعر فى المدح جعلت الخليفة الناصر من أبناء فاطمة مثله فى ذلك كمثل أئمة الشيعة . وكذلك جعل هذا الشاعر الخليفة الناصر «مدينة العلم» فخلع على الخليفة ما استأثر به النبى عليه السلام ، فى قوله : «أنا مدينة العلم ، وعلىّ بابها» . وأبى إلا أن يجعل الخليفة الناصر فى مقام النبى عليه السلام ...

---

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص ١٨٥

(٢) ديوان ابن الساعاتى جـ ١ ص ٥٣ طبع دمشق .

(٣) القاضى النعمان : تأويل دعائم الإسلام جـ ٢ : ٦١ مصورة .

(٤) ديوان ابن النبيه : ص ٣ طبع المطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١٣ هـ .

كذلك كان ابن مطروح المتوفى ٦٤٩ هـ يسلك هذا المسلك نفسه ، اقرأ ما مدح به الخليفة المستنصر بالله العباسي :

الله أكــبر أى طــرف يطمح   أم أى ذى لسن يقول فيفصح

واقرأ ما مدح به الملك الكامل :

«قدست من ملك عظيم الشأن ...» (١) لترى إلى أى حد تأثر الشاعر بهذه المدرسة .

وقد تأثر ابن سناء بهذه المدرسة أيضا ؛ فقد مدح «صلاح الدين» بأنه كيوسف الصديق بل وزاد فى ذلك وبالغ فجعله «ابن يعقوب» حقيقة ، أو هو «عيسى بن مريم» لأنه أحيا الدين بعد مماته ، وهذا لا يجوز إلا على العقيدة الفاطمية التى تؤول الآيات القرآنية التى وردت فى المسيح : بأن إحياء الموتى هو نشر الدين ، وإحياء النفوس حياة صحيحة بالعبادة العلمية ، أو كما قال الفاطميون بالدور وانتقال النبوة والأئمة بالتسلسل والتعاقب وأن الخلف يرث دور السلف تماما ، فإذا بمحمد هو عيسى وهو موسى وهو نوح ... الخ انظر قوله فى الديوان

أعــدت إلى مصــر ســياسة يوسف   وجددت فيها من سميك موسما

وفى قصيدة أخرى يمدح هذا الشاعر صلاح الدين بقوله :ـ

نصرت بأفــلاك السماء فشهبها   خميس به يردى الخميس العرمرما

وفيها يتحدث عن أفلاك السماء التى نصرت السلطان ، وأفلاك السماء فى التأويل الفاطمى تعنى الملائكة وهى العقول فى الاصطلاحات الفلسفية والاسماعيلية أيضا ، وقد بالغ الشاعر وغلا حتى جعل صلاح الدين فى مرتبة ليس فوقها مرتبة ، وهذا المعنى كثير جدا فى الشعر الفاطمى لأن الإمام مثل المبدع الأول الذى ليست فوقه مرتبة ، وفيه يجعل المقدار مؤتمرا بأمر الخليفة فلا ينقض له أمرا د

وفى مدحه على بن صلاح الدين يقول :ـ

مولى الأنــام علىّ هكــذا نقلت   لنا الرواة حديثــا غير مختلق

فالشاعر ينقل الحديث النبوى : «من كنت مولاه فعلى مولاه» وتبع فى هذا سنة الشعراء الفاطميين الذين مدحوا الأئمة بأنهم موالى الأنام ...

وقد سار على هذا النهج فى مدح غير السلاطين كمدح القاضى الفاضل ، وهذا دليل التأثر القوى ، اقرأ قوله فى مدح القاضى الفاضل :ـ

عبد الرحيم على البرية رحمة   أمنت لصحبتها حــلول عقابها

ويقول له :ـ

يا كعبــة طاف الملــوك بهــا   بل قبــلة حج الأنــام لها

والحج فى التأويل الباطنى هو زيارة الإمام على ..

المدرسة الثانية : مدرسة الرقة والسهولة : وهى تلك المدرسة التى تعد فى العصر الأيوبى امتدادا وتطورا

(١) ديوان ابن مطروح : ١٧٥ ، ١٧٦ ، جـ ١ : طبع الجوائب سنة ١٢٩٨ هـ .

للفن الذى يلائم الحياة المصرية والبيئة المصرية ، وكانت تضم أكثر الشعراء فى ذلك الوقت ، وكان فن القول يتجه إلى السهولة والرقة ، وقد ظهر هذا الاتجاه جليا واضحا فى شعر مصر منذ العصر العباسى ، وظهر ظهورا لافتا فى عصر الفاطميين ، وجاء العصر الأيوبى فاستمر هذا التيار بحيث كادت كثرة الشعراء يتبعون هذا الفن فى شعرهم فالألفاظ لينة ، وبحور الشعر مجزوءة أو قصيرة ، ولا يظهر فى فنهم أى لون من ألوان التكلف وقد اهتموا بالمقدمات الغزلية وازدادت رقتهم وسهولتهم حتى ظن أن شعرهم شعر شعبى ملىء بالعامية ، وقد عرف من هؤلاء الشعراء إبراهيم بن الفقية المتوفى ٦٤٠ هـ و «أمين الدين بن أبى الوفاء» المشهور بابن العصار (١) . و «هبة الله بن عرام» (٢) ، و «أبو العباس أحمد بن أبى القاسم المتوفى ٦٠٣ هـ (٣)

وقد اتخذ أصحاب هذا المذهب المقطوعات القصيرة بدلا من القصائد الطويلة لذا نرى أكثر الشعر الأيوبى الذى قاله شعراء الرقة والسهولة من نوع المقطوعات .

ثالثا : شعراء مدرسة الكتاب :

وكان هؤلاء على طرفى نقيض مع ما رأيناه من شعراء مدرسة الرقة والسهولة ؛ إذ كانوا خاضعين لتأثير الاتجاهات الفنية التى شغف بها كتاب الدواوين فى العصر الفاطمى ، وملئوا بها كتاباتهم وأشعارهم ... كان فن هؤلاء يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شىء . واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع الضخم ، والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع مع حلاوة الإيقاع ، كانوا يتلاعبون بهذه الألفاظ تلاعبا تظهر فيه أثر الصناعة وأثر التكلف وأسرفوا فى صناعتهم وتكلفهم إسرافا يدل على طول باعهم فى هذا الفن ، وعلى تلك الثروة اللفظية التى كانوا يتحلون بها ويصطنعونها فى مهارة ليس بعدها مهارة ، وكانوا يحلون فنهم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية ومراعاة نظير إلى غير ذلك ، حتى بهروا البلاغيين بمقدرتهم على استعمال هذه المحسنات ، وكثيرا ما كان يحلو لهم أن يستعملوا المترادفات ، أو ما يشتق من اللفظ الواحد فى الجملة الواحدة أو فى البيت الواحد ، وكل ذلك من ألوان التعسف الفنى الذى ألزم به الكتاب والشعراء أنفسهم ، فابتعدوا عن الطبع ، وقد ظهر ذلك فى شعر القاضى الموفق بن الخلال ، وابن أبى الشخباء ، والقاضى الجليس ، وابنى الزبير وعمارة اليمنى وغيرهم من شعراء الفاطميين ، وقد أصبح مذهبهم الفنى بدعة العصر ، وتقليدا يسير عليه الشعراء والكتاب . (٤)

وقد استمر هذا الفن فى العصر الأيوبى ، وغلا فيه القاضى الفاضل وتفنن ، حتى نسب إليه .

وانعكس هذا اللون على الشعراء وتأثروا به كثيرا نذكر من هؤلاء «ابن الساعاتى» وابن سناء الملك ، وابن قلاقس ، والأسعد بن مماتى ، وابن النبيه ، وغيرهم من شعراء العصر الأيوبى (٥) وإن كان بعض هؤلاء

---

(١) المغرب : ٢٥٥
(٢) الخريدة جـ ٢ ص ١٦٩ .
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٥٢
(٤) دراسات فى الشعر الأيوبى ص ٢٠٢
(٥) خزانة الأدب : للحموى : ٥١

الشعراء قد حاول الخروج على هذا المذهب وهجنه كالأسعد بن مماتى الذى لم يكن يميل إلى الجناس ، ودعا إلى الابتعاد عنه فى الفن فهو الذى يقول : —

طبع المجنس فيه نوع قيادة   أو ما ترى تأليفه للأحرف (١)

وإليك ما كتبه القاضى الفاضل فى مدح «العزيز عثمان» بن السلطان صلاح الدين الأيوبى لتتبين مدى انعكاس هذا الفن على الشعر ، حتى استحال الشعر إلى لون من الهندسة اللفظية ، ومطلع هذه القصيدة :

الحسن جاد على الأحباب فازدادوا   لكن أحبابنا بالوصل ما جادوا

ومنها :

فيهن من شبه الغزلان أربعة   نفر وطيب وأحداق وأجياد
وقد بكت لضنى العشاق أربعة   صب وفرش وسمار وعوّاد
هيهات يصدق منك الظن أربعة   عهد وود وأقوال وميعاد
له من الغصن الريان أربعة   عال وباه وميال ومياد
ولى من الدهر عما رمت أربعة   قلب ونطق وأخلاد وأحماد
يدبر الملك من عثمان أربعة   عزم وحزم وأفكار وأرصاد
وفيه من صادقات السحب أربعة   فيض وسيل وإبراق وإرعاد
يأوى إلى بابك المفتوح أربعة   ضعفى ولهفى ووراد ورواد

وبهذه الطريقة نظم القاضى الفاضل أربعة وأربعين بيتا ، فى نهاية الشطر الأول من كل بيت لفظ « أربعة » وفى بقية البيت توضيح هذه الأربعة ، وبهذا استحال الفن عنده إلى نوع من الهندسة والموسيقى اللفظية .

ولابن سناء الملك قصيدة فى مدح «العزيز عثمان» بن صلاح الدين تأثر فيها كذلك بالفن الفاضلى فى الكتابة والمغالاة فى البديع وفيها يقول :

من منصفى من حاكم جائر   أبلج مثل القمر الزاهر
قد كسر الجفن فطار الحشا   ما أفتك الكاسر بالطائر
(يا هاجرى) ليت ندائى إذا   ناديته كان (بيازائرى)
قم نزجر الهمّ بكأس الطلا   ليلة لاناه ولا زاجر (٢)

ولابن الساعاتى قوله :

والطير يقرأ والغدير صحيفة   والريح تكتب والغمام تنقط

فقد اهتم بمراعاة النظير اهتماما منقطع النظير .

---

(١) الحموى : خزانة الأدب : ٢١
(٢) هذا الشطر من البيت مقتبس من قول وضاح اليمن :
فاسقط علينا كسقوط الندى   ليلة لا ناه ولا زاجر

ولذلك نرى العماد الأصفهانى يقول : «إن مذهب القاضى الفاضل كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع » (١) .

وكان العماد الأصفهانى يلتزم الألوان البديعية محتذيا الطريقة الفاضلية كغيره من الشعراء الكتاب الذين التفوا حول القاضى الفاضل وقلدوه وقد كتب رسالة إلى الفاضل وتحدث عنها فقال : « وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق ، والترصيع والمقابلة ، والموازنة والتوشيع (٢) .

وقد شاع الجناس والطباق حتى لا يكاد يخلو شعر شاعر من التزامهما وأما التورية والاستخدام فكما يقول ابن حجة الحموى: «ما تنبه لمحاسنهما وتيقظ ، وتحرّى وتحرر إلا من تأخر من الشعراء والكتاب ، وتطلع من العلوم وتضلع من كل باب ، وأظن أن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى هو الذى ذلل منهما الصعاب ، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب ، حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصر ، وخفقت رياحهم بالإخلاص فى نصره كالقاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك ، ومن انخرط معه فى هذا السلك ، ولم يزل هو ومن عاصره على هذا المنهج فى ذلك الأوان ، ومن جاء بعدهم من التابعين بإحسان إلى أن جاء بعدهم حلبة أخرى» (٣) .

---

(١) العماد : الخريدة : جـ ١ : ٣٦

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) خزانة الأدب : ٥١

الفصل الرابع

أثر الحروب الصليبية في الحياة الأدبية

بصفة عامة وفي الشعر بصفة خاصة

لقد كانت الحروب الصليبية هى النفير العام الذى دوى فأيقظ الشرق من رقدته ونبهه من غفلته، ووحده بعد تفرقه، وجمعه بعد شتاته، وأعاده إلى الجد والصرامة، بعد أن أضعفه الترف، وأثملته الدعة، وخدرته النعمـــة.

وبعثت الحروب الصليبية فى الأدب الحياة، وجددت فيه القوة، فأذكت حواس الشعراء، وألهبت مشاعرهم، وأججت انفعالهم، وأمدتهم بالمعين الصادق من المعانى والأفكار، فأصبح الشاعر لا يمدح استجابة لدافع خارج عن شعوره أو تحقيقاً لرغبة مفروضة عليه ... وإنما يستمد من نفسه الوحى والإلهام، ويجد فى قرارتها الحافز، والدافع.. وتتلاءم الصورة التى يرسمها مع ما ينطبع فى النفوس جميعها من صورة للبطل الذى يدافع عن الإسلام ويحمى المسلمين من وحشية هؤلاء المعتدين الباغين الظالمين.

لقد اتخذ الشعراء من الحروب الصليبية موضوعا، ومن ضراوتها أسلوبا، ومن وحشيتها وأطماعها وما أبلت به الشرق من محن، وما واجهته من بطولات صوراً وخيالات .... ولا يكفى فى هذا المقام الإجمال وإنما يعوزنا قليل من التفصيل، وإن كانت الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع وحده قد سدت هذه الثغرة فى الأدب(١)، وإنما يفرض المقام أن نلم سريعا بأثر هذه الحروب فى الأدب من حيث موضوعاته، وأساليبه، وصوره. وأخيلتـــه:

غلب الشعر الحماسى على شعراء هذا العصر حتى أصبح طابعا عاما غلب على روحه، فلا يكاد يخلو ديوان شاعر من شعراء هذه الفترة، من ذلك الشعر الحماسى الذى يعكس فى صدق صدى البطولات الرائعة فى مقاومة الصليبيين، وتلك الانتصارات الساحقة التى أحرزها «عماد الدين زنكى»، ومن بعده «نور الدين» ثم «صلاح الدين بل لا نغالى إذا قلنا: إن هذه القصائد وأمثالها هى التى غلبت فى دواوين الشعراء. وقد سمى الدكتور «محمد كامل حسين» هذا اللون من الشعر ... فن «الشعور بالقومية الإسلامية» (٢) فالحقيقة أن المسلمين قد شعروا بهذا الشعور، ونادوا به إبان حروب «صلاح الدين وخلفائه» وكان الأدب شعراً ونثرا هو اللسان المعبر عن هذا الشعور، وقد محيت فكرة الشعوبية التى تفضل العرب على الأعاجم، وحلت محلها فكرة «نصر الإسلام». وحظى الترك بنصيب واضح من مدح الشعراء فهذا ابن سناء الملك يشيد بهم فيقول:

---

(١) راجع الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية: للدكتور أحمد بدوى، أثر الحروب الصليبية فى الأدب: سيد كيلانى ...

(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين: ٨٧

بدولة الترك عزت ملة العرب وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب

والشاعر الغزى يقول فى جيش صلاح الدين :

فى فتية من جيوش الترك ما تركت للرعد كراتهم صوتا ولا صيتا

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة حسنا وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

وقد فقد العنصر العربى سيطرته فى كثير من البقاع التى كان يغلب عليها ، وصارت القبائل العربية تحيا حياة تساير فيها الظروف بقدر الإمكان .

وقد وجدنا لكل بطل من الأبطال الذين قاوموا الصليبيين شعراء يتغنون ببطولته ويشيدون بمآثره ، فقسيم الحموى ، وابن القيسرانى ، وابن منير الطرابلسى ظهروا فى الحملة الصليبية الأولى فعكفوا على مدح « عماد الدين زنكى » ، ثم توارثهم « نور الدين » وانضم إليهم « ابن سعد الموصلى » و « عماد الدين الأصبهانى » إلى غيرهم من الشعراء الذين مدحوه ، وأججوا حماسة المسلمين .

وظهر فى مصر كثير من الشعراء الذين مدحوا نور الدين كالمهذب بن الزبير وطلائع بن رزيك وزير الملك الصالح وحظى « صلاح الدين » بكثير من المدائح من كثير من الشعراء كابن سناء الملك وابن الساعاتى ، وعماد الدين الأصبهانى ، وابن قلاقس السكندرى ، والأسعد بن مماتى وابن النبيه وغيرهم من الشعراء .

قال ابن سناء الملك يصف ملوك الفرنج وهم وقوف بين يدى صلاح الدين ، وفى أيديهم وأرجلهم القيد ، وقد نال صلاح الدين من جيوشهم ما نال :

وتصيدتهم بحلقة صيد تجمع الليث والغزال الأغنا

وجرت منهم الدماء بحارا فجرت فوقها الجزائر سفنا

ولكن الشعر مع كل هذا المدد الزاخر من الأحداث والوقائع لم يجد الشعراء المفطورين الموهوبين الذين يستطيعون تخليد ممدوحيهم ، وأبطالهم – كما خلد المتنبى سيف الدولة – فأعوزته القوة الدافقة ، والصور المتحركة النابضة بالحياة والخلود وبدت عليه مسحة من التكلف والرونق اللفظى (١) .

ولم يقف شعراء الحماسة عند مواطن النصر وحدها ، ولكن هزت نفوسهم الهزائم التى منى بها المسلمون ، فوصفوا ما حل بهم من نكبات ، وما ابتلوا به من محن وشدائد كما وصفوا ما حاق بهم من قتل وتخريب ، وسلب ونهب ، وعبث بمقدسات المسلمين وبخاصة تلك الجرائم الوحشية التى اقترفها الصليبيون فى القدس (٢)

واهتم الشعراء بآراء الفلكيين والمنجمين ، وحفلت أشعارهم بالإشارة إليها ، ذلك لأن الخلفاء والسلاطين كانوا يستطلعون آراء المنجمين قبل الإقدام على خوض المعارك مع الصليبيين ليروا لهم الطالع ، غير أن كثيرا من تخرصاتهم وتنبؤاتهم كانت تكشف عن عكس ما أخبروا به ، وعندئذ يصبح هؤلاء المنجمون هدفا لسخرية الشعراء وتهكماتهم ويستعيدون قصة فتح عمورية وتهكم أبى تمام بالمنجمين (٣) .

ولم يعد من الضرورى لدى الشعراء أن يكون الخليفة أو السلطان ممن يعتدون بآراء المنجمين حتى يشيروا إلى قصته معهم ، فقد أصبحت الإشارة إلى الفلك والتنجيم تقليداً سار عليه شعراء هذا العصر ، وأصبح من المعانى

---

(١) الحماسة : لعمر الدسوقى وآخرين : ١٠٤ ، والأدب فى عصر صلاح الدين ٢٧١

(٢) الأدب فى عصر صلاح الدين ٢٧٠

(٣) الروضتين : ٢ – ٧٣

المألوفة فى المدح أن قدرة الممدوح لا تغلب وقوته لا تقهر ، وأنها تتحدى الفلك الدوار ، وأن قوس الأفق لورام ما فعله الممدوح لم يصب ماأصابه ، وأن كوكب الدلو إذا التق بقوة البلد المحصنة التى قهرها الممدوح لغلبته وألقته فى بئر من السحب ، ولكن الممدوح يقهرها ويذلها . إلى غير ذلك من هذه المعانى التى ألفها الشعراء ، وتحدثوا بها ونوّهوا بها فى قصائدهم . استمع إلى ابن سناء الملك فى قصيدته التى هنأ فيها السلطان « صلاح الدين » بفتح حلب والتى مطلعها :

بدولة الترك عزت ملة العرب وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب

تراه يقول :

لو رامها الدهر لم يظفر ببغيته ولو رماها بقوس الأفق لم يصب
جليسة النجم فى أعلى منازلـه وطالما غاب عنها وهى لم تغب
تلقى إذا عطشت والبرق أرشية كواكب الدلو فى بئر من السحب
كل القلاع تروم السحب فى صعد إلا العواصم تبغى السحب فى صبب
حتى أتى من منال النجم مطلبه يا طالب النجم قد أوغلت فى الطلب
من لو أبى الفلك الدوار طاعتـه لصير الرأس منه موضع الذنب

وفيها يقول :

وحل من حولها الأقصى على فلك ودار من برجها الأعلى على قطب

وكثيراً ما كان الشعراء يقرنون بين الدعاء للممدوح وبين كوكب السعد ، فابن النحاس المصرى يحيى بن علم الملك يمدح صلاح الدين فيقول :

يايوسف الحسن والإحسان لا برحت نجوم سعدك والتوفيق فى قرن

غير أن الفلك والتنجيم لم يحظ من الشعراء بقصائد أو مقطعات خاصة ، وإنما تأتى الإشارة اليها خلال قصائدهم أو أثناء تلك المقطعات . والصلة واضحة جلية بين الشعر الحماسى أو شعر الحروب وبين الإشارة إلى الفلك والتنجيم ، حتى لا تكاد قصيدة من هذه القصائد تخلو من التصريح أو التلميح إلى الفلك والنجوم ، والربط بينها وبين النصر ، أو بينها وبين الهزيمة — وكوكب النحس هو رمزها — أو التشبيه بالنجم العالى فى المنعة والرفعة ، وهذا أثر من آثار الحروب عامة والحروب الصليبية بصفة خاصة .

وشغلت الحرب الناس والحكومات ، ونال الشعب الكادح آنئذ ما ينال الشعوب عادة من ويلات الحروب ، فغلت الأسعار وقل المال ، وأرهق الناس بمطالب الحياة ، وضاقوا بالضرائب والمكوس فذموا محصليها وغنى الناس بالقليل عن الكثير ، وبالحقير عن العظيم ، وهالهم أن جماعة منهم قد وصلوا إلى الغنى والثروة ، ومراتب الجاه والسلطة ، فسرى الحسد والحقد ، وعم الفساد والاضطراب وهجا الناس الزمن والدهر فنسمع أحدهم يقول (١) وهو المسجف العسقلانى المتوفى سنة ٦٣٥ هـ :

---

(١) فوات الوفيات ١ : ٥٣٦

أنا في جيل خسيس وقبيل وزمان
أمدح السلطان كي يصبح مالي في أمان
أكذا كان أبو تمام قبلي وابن هاني ؟!

بل نسمع على بن مقرب الأحسائي الشاعر المتوفى بعد سنة ٦١٨ هـ يقول :

أرى الناس – مذ كانوا – عبيداً لغاشم وخصما لمغلوب وجنداً لغالب

ويقول ابن زيارة مسجلا أحوال المجتمع من اضطراب وفساد ، وتحول في أمور الناس ومعايشهم وارتفاعهم وانخفاضهم :

باضطراب الزمان ترتفع الأنذال فيه حتى يعم البلاء
وكذا الماء ساكنا فإذا حرك ثارت من قعره الأقذاء

وعبر الشاعر عن حسرة الناس وتبرمهم بالمكوس ، ودعا أولي الأمر إلى رفعها أو تخفيفها أو الرفق في تحصيلها ، ومن ذلك ما ذكره « ذوبان بن عتيق » الشاعر المغربي . وقد طولب بمكس كان يتولاه يهودي :

يا أهل دانية لقد خالفتمو حكم الشريعة والمروءة فينا
ما لي أراكم تأمرون بضد ما أمرت – ترى نسخ الإله الدينا
كنا نطالب لليهود بجزية وأرى اليهود بجزية طلبونا
ما إن سمعنا مالكا أفتى بذلك لا ولا سحنونا (١)

وكثيراً ما كان النيل ينحسر ، والأمطار تقل ، والأرض تجدب ، فيجتمع على الناس البلاء من كل جانب ، ويحدق بهم الخطر من كل صوب ، وتحدث المجاعات ، ويقتل الألوف ، وتنتشر الأمراض ، وتنفق الماشية ، ويهلك الأخضر واليابس ولايجد الناس إزاء هذا الهم سوى الاستسلام للقضاء فيرفعون أكفهم إلى السماء في ضراعة ويدعون الله في ذلة ، ويستغيثون بالمتصوفة ، ويندفعون إليهم ويدعون إلى اعتناق مذاهبهم :

وطريقة الشيخ الجنيد وصحبه والسالكين سبيلهم بهم اقتد
واقصد بعلمك وجه ربك خالصا تظفر سبيل الصالحين وتهتد

ويعزف كثير من الناس عن الدنيا ، ويعيشون في حبهم الإلهي ، مستسلمين لقضاء الله وقدره ، صابرين على ما قدر لهم في هذه الدنيا ، مرددين ما قاله ابن الكيزاني الشاعر الصوفي صاحب الطريقة الكيزانية :

اصرفوا عني طبيبي ودعوني وحبيبي
عللوا قلبي بذكراه فقد زاد لهيبي
طاب هتكي في هواه بين واش ورقيب
لا أبالي بفوات النفس مادام نصيبي
ليس من لام وإن أطنب فيه بمصيب
جسدي راض بسقمي وجفوني بنحيبي

(١) معجم السلفي مصور ورقة ٤٨ ، وأوردها الدكتور محمد زغلول في الأدب في عصر صلاح الدين : ٢٨٢ والبيت الأخير مكسور وقد ورد هكذا .

وسرت فى الناس موجة الصوفية ، وهيأ الزمن لدعوتهم ، ونشر آرائهم .

وكما أثرت الحروب فى فريق من الناس هذا التأثير ، وطبعتهم هذا الطابع ، الذى وجدوا فيه عزاءهم، وسلواهم من يأسهم ، كان هناك جماعة آخرون انطبق عليهم قول الله تعالى : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أوقاعداً أوقائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه » فسرعان ما انصرفوا إلى اللهو والمجون ، والفساد والخلاعة ، واحتساء الكؤوس على مشهد من الندامى ، ونعموا بالغزل بالمذكر والمؤنث ، وشربوا الحشيش ، وأفرطوا فى شربه وانعكس ذلك كله على الشعر فسجل تلك الظاهرة الاجتماعية ، وربما وجد المصريون فى ذلك متنفسهم فهم عند الأزمات واشتدادها ، وعجزهم عن التغلب عليها لايجدون مفزعاً يفزعون إليه إلا المجون والفكاهة فقد انصرفوا اليهما فى أثناء الحروب الصليبية وبعدها ، استمع إلى ما قاله القاضى الفاضل فى بداية سنة سبع وثمانين وخمسمائة : «وفى شوال قطع النيل الجسور ، واقتلع الشجر ،وفرق النواحى ، وهدم المساكن وأتلف كثيراً من النساء والأطفال .... ودخلت البلد أى القاهرة — وفيها من البغى ومن المعاصى ، ومن الجهر بها ومن الفسق ، ومن الزنا واللواط ، ومن شهادة الزور ، ومن مظالم الأمراء والفقهاء ، ومن استحلال الفطر فى نهار رمضان وشرب الخمر فى ليله ممن يقع عليه اسم الإسلام ، ومن عدم النكير على ذلك جميعه ما لم يسمع ولم يعهد مثله » (١) .

فبالرغم مما حل بهم من المصائب لم يتركوا مجونهم واستهتارهم . ودعا الشعراء إلى شرب الراح وسماع الأغانى ، واللهو بالنساء بين جمال الطبيعة ، واتبعوا مذهب أبى نواس فى المجون واللهو ، استمع إلى قول أمين الدين بن أبى الوفاء المشهور بابن العصار المتوفى سنة ٦٣٠ه‍ :

لا تلمنى فى الرّاح والريحان ... وسماعى مثالثا ومثانى
واسقنى بالكبير حثّا فحثّا ... بين زهر الرياض حتى ترانى
لا تلذ الحياة إلا بشرب ... وغرام وذاك أغلى الأمانى
حبذا حبذا حبيب عطوف ... ذكر الوصل بعد ماقد جفانى
زارنى بالهلال فوق قضيب ... ظلت أجنى منه قطوف المجانى
أنا دعنى وما تراه فسادا ... فإمامى فيما ارتكبت ابن هانى (٢)

ولابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ ه دعوة مماثلة إلى الشراب ، ووصف الخمر وساقيها :

طاب الصبوح فهاك وهات ... واشرب هنيئاً يا أخا اللذات
كم ذا التوانى والشباب مطاوع ... والدهر سمح والحبيب مواتى (٣)

وتجد صورة التهتك والمجون والاستهتار فى قصيدة لابن مماتى يروى لنا فيها قصة ليلة حمراء سعى فيها إلى معشوقته ونال منها وطره ومأربه فيقول :

---

(١) الخطط : للمقريزى ج ٣ : ٣٧

(٢) المغرب : لابن سعيد : ١٧٥

(٣) ديوان ابن النبيه : ١٣

يارب خـــــود زرتهــا في الليــل بعد هجــودهــا
فاجــــأتهــا فتبــالهــت فلزمت ضم نهــودهـــا
ورشفت خمر رضــــابهــا وجنيــت ورد خــدودهـا
وأمنت في قصـــر الوصا ل حياة طول صـــدودها
حتى إذا ولى الدجـــى في عــدها وعـــديدهـــا
وبــدت جيــوش الصبح في أعــــلامهـــــا وبنودها
فارقتهـــــــا ومدامعي تحكي جمــان عقودها (١)

فهل ترى خلاعة واستهتارا أشد من ذلك ، وأشنع منه ؟ نعم هناك من الشعراء من بلغت به القحة والمجانة حداً بالغاً حتى أنه وصف أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث وصفاً بشعا ، ولم يتورع عن أن يذكر في شعره صراحة أنه باشر هذه العملية .

وازداد شيوع الغزل بالمذكر في هذا العصر فافتتح به الشعراء قصائدهم حتى لم يسلم من ذلك شعراء عرفوا بالتقوى والورع ، فابن الوردي يحدثنا أنه اضطر إلى افتتاح قصائده بالغزل في المذكر لتروج أشعاره وتنتشر فيقول : (٢)

أستغفر الله من شعر تقـــدم لي في المرد قصدي به ترويج أشعاري

ويقول في موضع آخر : (٣)

ما المـــرد أكبر همي ولا نهــاية عـــلمي
ولست من قــوم لوط حاشــا تقــاي وعلمي
وإنمــا خــرج دهري كذا ففتقت شـــعري

ويرجع السبب في شيوع هذا اللون إلى كثرة سبي الحروب الصليبية من غلمان الفرنج الصباح الوجوه ، وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الترك من أصقاع آسيا ، وقد أصبح هؤلاء لملاحتهم ، وصفاء بشرتهم ، موضع قربى من الناس ، حتى أصبح ذلك مألوفا شائعا فالسلاطين والأمراء لا يجدون بأسا في استصحاب هؤلاء الغلمان في مجالسهم ، ولم ير الفقهاء وذوو التقوى والصلاح ضيرا في أن يختص أحدهم بواحد أو اثنين منهم لمرافقته في خلواته يستعملهم لطعامه ووضوئه .

وأصبح من المعاني المطروقة في الغزل وصف العارض وقد خط فيه الشعر فبدا سواده إلى جانب بياض الوجه ، ومن ذلك قول أحد الشعراء (٤) .

---

(١) الخريدة : جـ ١ : ١١٦
(٢) ديوان ابن الوردي : طبعة حجرية سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤
(٣) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي : لسيد كيلاني : ٢٥٥
(٤) الجامع المختصر : جـ ٩ ص ١٤٢

لقد أثرت صدغاه فى لون خــدّه ولاح كفىء من وراء زجـــاج
ترى عسكراً للروم فى الزنج قد بدت طلائعــه تسعى ليــوم هيــاج
أم الصبح بالليـل البهيم موشحا حكى آبنوســا فى صفيحــة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خــده فسيــّجه من شـعره بسيــاج

ولما كان هؤلاء الأتراك ممن يتعلمون صنعة الحرب ، ويبرعون فيها ، ويفوقون فى القتال ، ويخوضون المعارك فى شجاعة وشهامة فقد مزج الشعراء بين هذه المعانى ومعانى الغزل ، وشتان بين الاثنين ، فقرنوا اهتزاز العود باهتزاز السمهرى ، وفتك اللحظ بالصارم المشرفى ، وإصابة الجفون بالسهام المفوقة ، وانثناء الحواجب بانثناء القسى أو الأقواس الموترة ... الخ (١) .

وهذا هو ابن سناء الملك يدفعونه دفعا عن الغرام بمن يحب لأن لحيته قد نبتت ، وكست وجهه ، فلا يصرفه ذلك عنه إذ أن جمال طرفه ، ودقة حاجبيه وثغره الألمى ، وخده المتوهج ما زالت كما هى ، استمع إليه يقول :

قالوا التحى فاسل عنه قلت لهم والله لاكان ذا وإن شــابا
هــل التحى طرفــه وحاجبــه أو اختفى الثغر منــه أو غابا ؟!

وهكذا كانت روح العصر لا تعد ذلك خروجا عن المألوف ولا تستنكره إذ أن الغزل بالمذكر قد شاع فى زمن الحروب الصليبية ، وأصبح هم الشباب والكبار يلتفون حوله وينشدونه ويطربون له ، ويعرضون عن غيره من القصائد ، شأنه فى ذلك شأن الشعر العاطفى اليوم يجد من الحفاوة والرواج ما لا يجده غيره من فنون الشعر الأخرى .

وقد تعرض الدكتور محمد كامل حسين للغزل كغرض من أغراض الشعر فى العصر الأيوبى ، وقرر أن الشعراء الغزليين لم يتركوا شيئا عن الحب بوصاله وهجره والوشاة والعاذلين ، ولا أجزاء جسم المحبوب إلا واشتمل عليه شعرهم ، ولكن فى شىء من العفة إن صح هذا التعبير »(٢) ولكنه لم يشر من قريب أو من بعيد إلى أثر الحروب الصليبية فى هذا الغرض ، كما لم يشر إلى شعر ماجن مع أن الكثيرين من الذين تحدثوا فى هذا الغرض أسفّوا وبالغوا فى الإسفاف ، ويكفى أن تطلع على ديوان ابن سناء الملك – وهو الذى ذكره – بين شعراء الرقة والسهولة لتعلم إلى أى حد أسف.

وبذا نكون قد أوضحنا ما أحدثته الحروب الصليبية فى حياة الشعب من جد واهتمام أساسه الإعداد للحرب والدعوة لها وخوض غمارها ، ومن هزل انصرف إليه الكثير ترويحا عن أنفسهم ، أو إرواء لاستعدادهم وميولهم التى تنصرف إلى الهزل والاستهتار والمجون كلما اشتد عليهم الأمر ، وضاقت فى وجوههم السبل ، وألمت بهم الأزمات من كل جانب .

كما كانت الحروب الصليبية من الدواعى الهامة فى الاضطرابات الاقتصادية التى أصابت المجتمع ، وغيرت من حالة الناس ، فكم من وضيع رفعته ، وكم من رفيع خفضته وكم من أغنياء ذلوا وهانوا ، وكم من فقراء اغتنوا وارتفعوا ،وهذا الاضطراب أدى إلى كثير من الظواهر الاجتماعية كالتصوف والزهد ، وشرب الحشيش

(١) الأدب فى عصر صلاح الدين : ٢٧٦
(٢) دراسات فى عصر فى الشعر الأيوبيين : ١٤٧

وإدمان الخمور ومجالس اللهو والطرب ، والمبالغة فى الترف إلى غير ذلك مما أوضحناه وعلينا أن نوضح الآن الصلة بين الشعب وبين حاكميه .

والحق أن الأدب كله فى هذا العصر تلون بلون الحياة الحربية ، وما ينجم عنها من نصر أو هزيمة ، وما تستدعيه من تهييج للخواطر ، وإثارة للمشاعر ، وتحميس للمحاربين وحث على النزال ، ثم ما يترتب عليها من حزن وحسرة ، أو فرح وبهجة أو خوف وذعر إلى غير ذلك من أغراض الشعر .

وقد فصل الدكتور أحمد بدوى هذا الموضوع تفصيلا وافيا فى كتابه « الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية »(١) وقد ذكر ما يقرب من عشرين غرضا من أغراض الشعر تأثرت بالحروب الصليبية ومعظم هذه الأغراض يرجع إلى الشعر الحماسى أو إلى ما أسماه الدكتور محمد كامل حسين « فن الشعور بالقومية الإسلامية » .

وكان الشعراء فى جملتهم يتجهون إلى محاكاة الشعراء العباسيين فى أساليبهم ، وطرق تعبيرهم ، وبلغوا من ذلك حظاً كبيراً حتى لنستطيع أن نضع بعضهم فى بعض قصائده إلى جوار كبار الشعراء العباسيين ، ولكننا لا نستطيع أن نغفل ما كان فى هذا العصر من اتجاه إلى الزخرف والزينة يكاد يشترك فيه شعراء هذا العصر جميعا ، يقوى بعضهم حتى لا تضعف الزينة من أسلوبه وحتى تبدو كأنها طبيعية غير متكلفة ، وتقوى هى على الآخر حتى تسقط شعره فى تكلف ممقوت ثقيل(٢) .

ولم يكن النثر بأقل عزما من الشعر فقد أدى دوراً إيجابياً ربما كان أشد خطراً وأعظم أثراً من الشعر ، ذلك أن الكتاب الذين ولوا أمر ديوان الإنشاء فى هذه الفترة كانت أقلامهم أسنة ، وكلماتهم مشهورة ، ولهم قدرة على رصف الكلام وتحبيره حتى ليهز النفوس الضعيفة ويثير الحماسة فى القلوب المستضعفة ... استمع إلى تلك الرسالة التى بعث بها « صلاح الدين » إلى ملك المغرب يستنجد به فى قتال الفرنج وهى الرسالة التى كتبها القاضى الفاضل ... قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ثم حياه وحدثه عما فتحه الله على المسلمين من بيت المقدس والثغور والمدن والأمصار ثم قال :

« ألا إنه لم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فزع الكفار بالشام فقد استصرخوا بأصل الكفار من الغرب ، فأجابوهم رجالا وفرسانا ، وشيبا وشبانا ، وزرافات ووحدانا وبراً وبحراً ، ومركباً وظهراً ، وركبوا إليهم سهلا ووعراً ، وبذلوا ماعونا وذخراً وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ، ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كل يلبى دعوة بطركه ، ولا يحتاج إلى عزمة ملكه ... وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملئوا عليهم ثغرهم من كل مطلوب ، ما بين أقوات وأطعمة ، وآلات وأسلحة .... إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة ، وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة ، لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة ، تعرض على الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ما أكل ، فهم كل يوم فى حصول زيادة ، ووفور مادة ، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر مامنعهم البر ، وبطروا لما كثروا ، ... وعقدت عدتهم مائة ألف أو يزيدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون » .

ثم توجه إلى ملك المغرب مستنجداً به قائلا :

---

(١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوى : ٤٠٧ — ٥٤٣ .

(٢) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية : ٥٦٠

« لما كانت حضرة سلطان الإسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام ، أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه ، واستعان على حماية نسله وحرثه ، ..... كان المتوقع من تلك الدولة العالية والعزمة الفادية ، مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية أن يمد غرب الإسلام المسلمين ، بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام ، ومدنا فى اللجاج سوائر كأنها الليالى مقلعة بالأيام ، تطلع علينا معشر الإسلام آمالا ، وتطلع على الكفار آجالا ، ويردنا إما جملة وإما أرسالا مسومة ، تمدها ملائكة مسومة ومعلمة... »(١).

ومما كتبه العماد الكاتب عن « صلاح الدين » بعد أن استولى الفرنج على عكا وغدروا بأسرى المسلمين قوله :

« ...... وللكرام آجال ، والحرب سجال ، ولله من المؤمنين رجال والآن فقد ثارت الحميات ، وهبت النخوات ، ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام ، ويتدارك ما حدث من الكسر بالجبر والإحكام ، ويعيد ما وهى من عقد الفتوح إلى النظام فأين ذوو الأنفة والحمية ، والهمم العلية ، والنفوس الأبية ، أما يهتمون لمصرع من استشهد من إخوانهم ، أما يثورون لثأر إيمانهم ، أما تبكى العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم ، فإن مصابهم عظيم ، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم ، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة ، وإثارة العزائم الراكدة (٢)

ففى هذه الرسالة إثارة للهمم الفاترة ، وإنهاض للعزائم المتوانية ، وفيها على الرغم من الهزيمة إيمان المؤمن بالنصر ، والدعوة للأخذ بالثأر من أولئك الغادرين الذين لا يرعون فى الحرب إلاّ ولا ذمة .

وللقاضى الفاضل رسالة سجلها التاريخ وهى نابضة بدقيق المشاعر ، وخلجات النفوس ، فقد كتبها إلى صلاح الدين سنة ٥٨٥ هـ فى أشد الأوقات حرجا وذلك فى حصار « عكا » فقد كان العدو يشدد الحصار ، وجند المسلمين قد طال بهم المقام فقال القاضى الفاضل (٣) :

« .... بينما نحن ننتظر من كتب المولى ما يستدل به على أن قلب المولى قد طاب ، وقصد العدو قد خاب إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا للأكباد ، مفتتا للقلوب ولو أنها جماد ، ... والعيون ممدودة ، والأيدى مرفوعة بأن يفرج الله عنا وعنكم بوصولها ، فمن شبع فى هذه الأيام فما واسى المسلمين ، ومن نام ملء عينيه فما هو من إخوة المؤمنين ... فما الملوك وكل من يعرف الأمر إلا كأهل الصراط : رب سلم ، رب سلم ، فنسأل الله سبحانه ألا يكلنا إلى أنفسنا فنعجز ، ولا إلى الناس فنضيع ، ومجهود أهل الأرض قد انتهى وبقى ما يفعله الله.... » وفى آخر هذه الرسالة تحميس وتشجيع ، ودفع إلى الصبر والثبات : » ثم معاذ الله أن نغلب على النصر ، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره ، فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ، والله معكم » وهذا على دين ما غلب بكثرة ، ولانصر بثروة ، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوى قلوب معه وحالات فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، واشتدى أزمة تنفرجى ، والغمرات تذهب ولاتجى ، والله تعالى يسمع الأذن ما يسر القلب ، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب » .

---

(١) الروضتين : جـ ٢ : ١٧١ ، والحياة الأدبية : ٤١١ ، ٤١٢ .

(٢) الروضتين : جـ ٢ : ١٩٠ ، و الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٤١٨ .

(٣) الروضتين جـ ٢ : ١٠٢ ، الحياة الأدبية : ٤٢٣

ومضى النثر يتبارى مع الشعر فى تصوير الحروب الصليبية وما ينجم عنها من هزيمة أونصر ومن حسرة وحزن ، أوفرح وسرور ، وما تقضيه من تحميس وتشجيع ، ودفع إلى الصبر والثبات ، والنضال والاستبسال ، فى أسلوب طلى ، وعبارة رشيقة ، وزينة لفظية محكمة ، لم تخرج بالكتابة عن هدفها المرسوم ؛ ولم تبعد بها عن الغرض المقصود ، لأن كتاب الرسائل قد أوتوا قوة البيان ، والقدرة على رصف القول فى إحكام ، فلم تخضع الزينة اللفظية معانيهم لمقتضياتها ، ولم يكن المعنى تابعالها وإنما كانا صنوين ، اللفظ الرشيق للمعنى الرشيق ، واللفظ القوى للمعنى القوى . فالمعنى الناضج كالثمرة الناضجة يسقط على اللفظة المناسبة .. غير أن من واجبنا أن نشير إلى المقدمات الطويلة ، التى فرضها الكتاب على أنفسهم ، وكأنها المقدمة الغزلية فى قصائد المدح ... غير أن ذلك كان سمة هذا العصر ، واتجاهاته فى الأدب شعره ونثره .

الباب الثاني

الشاعر وديوانه

الفصل الأول

ابن سناء الملك

(٥٥٠ – ٦٠٨ هـ)

مولده :

لم يعرف بالضبط تاريخ مولده ، ولم يحدده الشاعر تحديداً دقيقاً وقد تضاربت أقوال المؤرخين والأدباء فى تحديده ، وتجاهل بعضهم الإشارة إلى مولده فالصفدى يرى أنه ولد فى سنة ٥٤٥هـ ، ويروى « ابن خلكان(١) » فى وفياته نقلا عن العماد الكاتب فى خريدته : أنه كان عند القاضى الفاضل فى خيمته بمرج الدلهمية فى دمشق فى الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٥٧٠ هـ – ١١٧٥ م فأطلعه على قصيدة لابن سناء جاءته من مصر ، وذكر أن عمره لم يبلغ العشرين ، وعلى هذا التقدير يكون مولده فى حدود سنة ٥٥٠ هـ .

ولكن « ابن خلكان » أعقب ذلك بقوله : « وقد رأيت بخط بعض أصحابنا ممن لهم عناية بهذا الفن أنه توفى يوم الثلاثاء ، ذى الحجة سنة ٥٩٢ هـ ، بينما كان مولده فى منتصف شوال سنة ٥٢٥هـ (٢) ، ونقله عنه « جورجى زيدان » ولكن هذا التاريخ ليس للقاضى السعيد (ابن سناء) بل لوالده القاضى الرشيد .

أما « ياقوت » (٣) فلم يشر إلى مولده وأشار فقط إلى أنه توفى رابع شهر رمضان سنة ٦٠٨ هـ ، وقد رجح الدكتور « محمد عبد الحق » محقق الديوان المطبوع أنه ولد سنة ٥٥١ هـ معتمداً فى هذا على رواية ابن خلكان ، وقول القاضى الفاضل : إنه لم يبلغ بعد سن العشرين ... ولكننى أرى أنه ولد فى سنة ٥٥٠ هـ ذلك لأنه فى سنة ٥٧٣هـ عرض فى إحدى قصائده بمن مدحهم من الشخصيات البارزة فى المجتمع ولم يلتفتوا إليه فقال :

تكمل فضلى قبل عشرين حجـة فكيف وقد جاوزتها بثلاث
وأنفقت عمرى فى مدائح معشر كموتى ولو أنصفت كن مراثى

فبذلك يكون قد حدد عمره وتاريخ مولده وأنه ولد فى سنة ٥٥٠هـ .

نسبه واسرته :

شب أبو القاسم القاضى السعيد هبة الله بن القاضى الرشيد جعفر بن المعتمد سناء الملك أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن محمد السعدى (٤) الشاعر المعروف بابن سناء الملك – فى ظل أسرة عرف المجد طريقه إليها ، نعمت بالغنى والثروة ، واغترفت من الفضل والمعرفة ، وكانت موضع التقدير من ذوى المكانة والمنزلة فنعم ابن سناء

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨
(٢) المرجع السابق ، تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان
(٣) معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٢٦٥
(٤) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨ .

أيما ضفته هذه النشأة عليه ، وكانت سببا فى رفع ذكره ، وعلو شأنه وطالما شكا إلى أستاذه القاضى الفاضل حسد أعدائه ، وحقدهم عليه ، وتعييرهم له بأنه لولا أبوه ما كان يدخل دائرة العلماء ، ويحظى بما يحظى به الشعراء، لأن أباه فى الوظيفة ، ولولاه لكان خادما فيها ، وقد أشار ابن سناء إلى ذلك فى قصيدة وجهها إلى القاضى الفاضل جاء فيها :

تقــول أعادى لــولا أبــو ك لما كنت تدخل ذاك الحرم (١)

ومن ثم نعلم أن والده كان يشغل منصبا هاما ، ولقب الابن والوالد يشيران إلى أنه كان ينظر إليهما من السلطان نظرة التقدير والإكبار .

ويبدو أن والده كان بالأدب شغوفا وبرجاله ولوعا ، حتى اشترى نصف نسخة من كتاب « صحاح الجوهرى » بما يعادل وزنها من الدراهم ، وليس ذلك — أيما كان الدافع — إلا فهما لقيمتها ، وتقديراً لكنوزها ، فلا عجب أن يكون شاعرنا بالأدب ولوعا ، وبالشعر شغوفا فقد غذى به فى طفولته ، مع كل إشراقة من أبيه ، ومع كل من يتصل به من عارفيه ومحبيه .

أما جده فقد قرر الصفدى فى كتابه الوافى نقلا عن ياقوت — الذى أسنده بدوره إلى الصاحب الوزير جمال الدين الأكرم — أن سناء الملك جد شاعرنا كان يهوديا غنيا يسمى «رازن» ثم اعتنق الإسلام وكان يشتغل فى تغيير النقود فى القاهرة ومات بعد ذلك مورثا ابنه القاضى الرشيد عمليات إقراض النقود ، وعمليات أخرى كون منها ثروة عظيمة ، ويضيف الصفدى إلى ذلك أن القاضى الرشيد كان محدود الثقافة قليل المعرفة .

وبمناقشة الصفدى يتضح لنا بعد هذا الادعاء : عن الحقيقة والصواب ، فأولا : كيف يتأتى وصف جده بأنه يهودى مع أن والده (أى والد جده) يسمى محمدا . وثانيا : لم نعثر لياقوت الذى أسند إليه هذا القول على ما يؤيد ذلك بل على العكس أشار فى الترجمة التى أوردها لابن سناء بالتقدير والاحترام لكل من أبيه وجده (٢) .

فجده لم يكن يهودياً ، وإنما ذلك كله اتهام وصمه به أعداؤه رغبة النيل منه والحط من شأنه ، وقد كان جده يتمتع بمكانة علية ، جعلت شاعرنا يحزن كثيرا لفقده على الرغم من طول عمره فقد مات عن ستة وتسعين عاما سنة ٥٨٠ هـ ، وقد حرص على أن يسير فى جنازته وهو فى شدة المرض ، ورثاه بقصيدة حزينة بلغت تسعة وثلاثين بيتا مطلعها : —

خانت جفونى لمــّـا لم تفض بدم لكن وفى الجسم لما فاض بالسقم

وقد أشار فيها إلى مرضه

خرجت خلفك محمولا كما خرجوا بجسمك الطهر محمولا على القمم (٣)
يا حسرتى إذ رآنى راكبا لهم وما مشيت على رأسى ولا قدمى

وأمّا ما اتهم به الصفدى القاضى الرشيد ، بأنه كان محدود الثقافة فيكذبه أيضا ما عرف من أنه كان

---

(١) راجع الديوان قافيه الميم
(٢) راجع معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٢٦٥
(٣) راجع الديوان قافية الميم

يتبادل الرسائل الأدبية مع القاضى الفاضل ، وكانا يتناقشان فى قصائد الشاعر الناشئ من جهة ، وفى القضايا الأدبية العامة من جهة أخرى (١) ونحن نعرف منزلة القاضى الفاضل ، وأنه كان يحتل مركزا خطيرا فى الدولة ، فكيف يضيع وقته ، ويكتب لرجل محدود الثقافة قليل المعرفة .

وكيف يتأتى لرجل محدود الثقافة أن يشترى نصف كتاب مخطوط بخمسة عشر دينارا كما أسلفنا ، إن ذلك لا يتأتى إلا من رجل شغف بالأدب ، محب للمعرفة وأن كل ما اتصف به من تلك الصفات لا يمت إلى الحقيقة بصلة ولا بنسب .

نشأته ـ ثقافته ـ أساتذته :

فى هذه البيئة التى جمعت بين الثقافة والغنى ، والمنزلة والجاه ، نشأ الشاعر وترعرع ، فى أحضان أب يرعاه ، ويهتم بتعليمه وتثقيفه ، فأحفظه القرآن الكريم على الشريف الخطيب ، (٢) ثم درس اللغة والنحو فى حلقات عبد الله بن برى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ (٣) وفى سنة ٥٧٠ هـ اتجه إلى الاسكندرية ليدرس الحديث على المحدث الحافظ بى طاهر أحمد السلفى (٤) ، فجمع فى نشأته بين علوم الفقة والدين واللغة ، فهيأ نفسه بذلك الرصيد من المعرفة ، للتعمق فى دراسة الأدب ، وبذا لم يكن سطحيا فى شعره ، فكثيرا ما نصادف مقطعات وقصائد ينزع فيها إلى خيال بعيد أو فكرة عميقة .

وكان ملما ببعض اللغات الأجنبية المنتشرة فى تلك الحقبة ، فهو يجيد الفارسية ويتقنها ، ويشير إلى ذلك فى إحدى قصائده التى وجهها إلى القاضى الفاضل :

وعـز على العـرب أنى حفـظـ ت برغمى بعض لغات العجم (٥)

وقد استطاع أن ينشر باللغة الفارسية ، ويستخدم بعض الخرجات الفارسية فى موشحاته وكان المصريون السابقون له يضعون الموشحات بخرجات مغربية استمع إلى قوله فى موشحته التى مطلعها : ـ

فى خديـك من صبر اللاذ ثيـاب الياسمـين

إلى أن قال :

وخود كما شبت طفلـة	كغصـن مايـس
أرادت أن تـكون خلـة	لظـبى كانـس
فلما جنت منه قبلـة	شـدت بالفـارسى
دانتى كى بوسه بمن داد	دها أنكسـتريـن
أوار كواى دست من باش	ببوستـه شبـين

(١) راجع فصوص الفصول : ٧١ ، ٧٢ .
(٢) انظر السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ : ص ٢٨٣ .
(٣) انظر « شذرات الذهب لابن عماد الحنبلى .
(٤) راجع حسن المحاضرة : ج ١ ص ٢٠٠ .
(٥) راجع الديوان قافية الميم

والحرجة الفارسية بمعنى : «هل تعرف متى قبلني ؟، إن فمها كان شاهدى على هذه القبلة التى منحتنى إياها»(١) .

والظاهر أن الفارسية كانت منتشرة فى أرجاء الوطن الإسلامى آنذاك انتشار اللغة الإنجليزية فى بلادنا الآن ، وبخاصة بعد ترجمة كثير من كتب العلم والأدب عنها ونبوغ كثرة من أبناء الفرس فى الأدب والفن والعلم مما جعل الآباء المتفتحين يعدون أبناءهم بهذه اللغة الحية ، وكان القاضى الرشيد من الوعى والفطنة بحيث أغرى ابنه وشجعه على تعلم الفارسية .

وكان ملما بعلوم الفلك حتى كثرت إشاراته لأسماء الكواكب والنجوم والأفلاك ومنازلها وما يدور حولها من قصص وأساطير استمع إليه يقول : —

أيا بصرى لا تنظرن إلى بصرى فإنى أرى الأحباب فى بلدة أخرى
وما بلدة لم يسكنوها ببلدة ولو أنها بين السماكين والشعرى (٢)

علاقته بالقاضى الفاضل :

ولا يمكن فى هذا الصدد أن نتجاهل صلته بأستاذه الكبير القاضى الفاضل فلقد أشار ابن سناء إلى هذه الصلة فى كتابه «فصوص الفصول» حيث يقول :

«وهو الغنى وأنا المحتاج إليه ، وهو المعطى وأنا الآخذ منه ، وهو الأستاذ وأنا التلميذ له والمتعلم منه» (٣) ولقد كانت رسائل الشاعر وقصائده تصل تباعا إلى القاضى الفاضل عندما كان فى دمشق ، كما كانت ردود القاضى الفاضل ورسائله تصل شاعرنا فى انتظام ، وكتاب «فصوص الفصول» حافل بالرسائل التى أرسلها القاضى الفاضل إلى القاضى الرشيد وإلى ابن سناء وموضوعاتها تدور حول الشاعر ، ورأى القاضى الفاضل فى قصائده ، وتعليقه عليها ، ومن تلك الرسائل نفهم أن الصلة بين القاضى الفاضل وبين الشاعر صلة وطيدة ، قواها صلته السابقة بأبيه القاضى الرشيد وزادها تأكيداً قرابة الأدب ونسبه وعلى الرغم من أن القاضى الفاضل أعلى مكانة وأرفع منزلة ، وأكبر سنا إلا أنه وجد فيه ميلا شديدا إلى الأدب وقدرة على الشعر لذا رضى أن يكون له موجها ومرشدا ، وكان فى نقده قصائده رقيقا رفيقا يميل إلى تشجيعه ، والأخذ بيده ، ويرى أنه ما من قصيدة إلا وهى أحسن من أختها ، وما يرينا من آية إلا وهى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروسا إلا وقد جمع بين حسنها وبختها ، وقلما يجمع الحسن والبخت ولهذا قيل : «وقد تمنى المليحة بالطلاق» وعقائله المليحة لا تطلق ولا تطلق وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أن هذه بالقلوب تعلق ، وبالضلوع تعتنق ، فالمعلقات

---

(١) دراسات فى الشعر للدكتور محمد كامل حسين .

(٢) السماكان : كوكبان نيران أحدهما فى جهة الشمال ويسمى السماك الرامح والآخر فى جهة الجنوب وهو السماك الأعزل وأما الشعرى : فهى الكوكب الذى يطلع فى الجوزاء فى شدة الحر ويقال له الشعرى اليمانية وكوكب آخر يطلع فى الذراع ويقال له الشعرى الشامية ومن أساطير العرب أن سهيلا أقبل من ناحية اليمن وأقبلت الشعريان من ناحية الشام حتى انتهى المسير إلى المجرة . وهى نهر فى الفلك فوقف كل من الفريقين على شاطىء المجرة وخطبهما سهيل فأجابتاه إلى الزواج وعبرت إليه اليمانية منهما فقيل لها الشعرى العبور ولم تقدر الشامية على العبور فوقفت تبكى حتى لم تستطع أن تفتح عينيها من البكاء فقيل لها الشعرى الغميصاء .

(٣) راجع « فصوص الفصول » .

بعدها زادت على عدتها ، وفضلتها هذه بجدتها وجودتها ..» (١) وهكذا كان القاضى الفاضل يدفع الشاعر قدما بآرائه وتقريظه ، وكان لهذا الاتجاه أثر مشكور فى تقدم الشاعر وإحرازه قصب السبق والتفوق ، حتى حسده الشعراء الآخرون ، وحقدوا عليه ، وسيأتى الحديث تفصيلا عن صلة الشاعر بالقاضى الفاضل عند الحديث عن شعره .

علاقته بالوزراء والأمراء ورجال الحاشية :

وكان لصلة القاضى الفاضل بصلاح الدين وحاشيته ، وبالبيت الأيوبى كله ، واثقة صلاح الدين الزائده به ، كان لهذا كله أثر بارز فى تطلع ابن سناء إلى الاتصال بالأمراء والوزراء ورجال الحاشية ، وقد ساعدته شاعريته على الاتصال بهم فمدح من السلاطين «صلاح الدين» وأولاده العزيز والأفضل ، وأخاه الملك العادل ، كما مدح من الوزراء ابن شكر على الرغم مما كان بينه وبين القاضى الفاضل من عداء .

فاتجاه ابن سناء إلى النفع الذاتى ، جعله يتناسى فضل سيده ، وأثره الذى لا ينكر وربما كان خوفه من ابن شكر هو الذى دفعه إلى ذلك وخاصة إذا علمنا أنه كان ينتقم من أصدقاء القاضى الفاضل وأقاربه ، ولكن هل تحققت آماله على يد ابن شكر كما تحققت من قبل على يد القاضى الفاضل ؟

المناصب التى وليها :

لقد كان القاضى الفاضل صاحب اليد الطولى فى كل ما وليه «ابن سناء» من وظائف حسده عليها أعداؤه ، فعندما غادر القاضى الفاضل القاهرة إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ فى خدمة «صلاح الدين» لم تنقطع صلة ابن سناء به بل كان يرسل إليه قصائده ، ويتلقى منه ردودا عليها ، وكان القاضى الفاضل شديد الإعجاب به ، يذيع على الشاميين قصائده ومحاسنه ، ويتنبأ له بالسبق والتقدم ، وقد دفعه فرط إعجابه به إلى أن يستقدمه إلى دمشق ليكون كاتم سره فى ديوان الإنشاء ، ولكنه لم يبق طويلا فى الشام لأنه كان شديد التعلق والحنين إلى مصر ، ولم تنسه زياراته بلدان سوريا كحمص وحماة وغيرهما تلك اللهفة العارمة ، وذلك الشوق المتقد ، والحنين المتجدد ، بل والتبرم ببلاد الشام ، وربما ورث هذا التبرم من أستاذه نفسه ، فقد كتب القاضى الفاضل رسائل فى تفضيل مصر على الشام جاء فيها : «وأما أحوالى فإننى لم أزل ملتاثا منذ دخلت دمشق لتغير مائها وهوائها ، وأبنيتها وأبنائها وأوديتها وأدوائها ، وقراها وقرنائها ، ومن لى بمصر فإنى أقنع بماتنبته أرضها من بقلها وقثائها وأبيع بردى وما عساه بشربة من مائها وأمتطى متن السيف فى هجر سوادها وسودائها ، فالطلل هائل ولا طائل ، وما كنا نسمع به من تلك الفضائل متضائل حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، فهى بلاد تستجدى ولا تجدى ، وفعل الملام بها لازم التعدى . (٢)

وقد تحققت رغبة «ابن سناء» فى العودة ، ففى أوائل سنة ٥٧٢ هـ قرر «صلاح الدين» مغادرة سوريا إلى مصر مصحوبا بموظفيه فعاد ابن سناء مع الحاشية ، وقد قرر الصفدى أنه كان يتقاضى راتبه سواء أحضر إلى الوظيفة أم لم يحضر ، ولما رحل القاضى الفاضل مرة أخرى إلى دمشق فى صحبة «صلاح الدين» لم يرحل معه «ابن سناء» بل بقى فى مصر وكيلا عن القاضى الفاضل يرعى ولاياته الواسعة وهى وظيفة لا تسند إلا إلى كفء

(١) نصوص الفصول .
(٢) الروضتين : جـ ٢ ص ٥٨ .

موثوق فيه ، وقد ظل ابن سناء فى هذا المنصب الهائل حتّى وفاة القاضى الفاضل سنة ٥٩٦ هـ ، ومن قصائده التى مدح بها القاضى الفاضل وصلاح الدين فى هذه الفترة نرى أن حالته قد تحسنت فى هذه الوظيفة ، استمع إليه فى قصيدته التى مدح بها صلاح الدين والتى مطلعها : —

أمجلس لهوى ليس لى عنك مجلس لأوحشت لما غاب لى عنك مؤنس

ففيها يقول :

وإنى لى البشرى وإن فراستى تصح لأنى مؤمن أتفـــرس
لك المدح منى ينتشى السامعون به كأن مديحى فى معاليك أكؤس
كلانا بديع الصنع مدحى مطبق وجأشك فى قهر الملوك مجنس

فلقد طبقت شهرته فى الشعر الآفاق ، وعرف بين أهل الشام كما عرف بين شعراء مصر وقد استغل هذه الشهرة فى تحسين مركزه وحالته الاقتصادية ، ووظيفته الرسمية ، ولما وافى الأجل المحتوم سيده القاضى الفاضل ، ووصل ابن شكر إلى مرتبة الوزارة وهو العدو الألد للقاضى الفاضل لم يجد ابن سناء غضاضة فى مدحه ، والتقرب إليه حتّى حظى بهداياه ، وصلاته ، وبقيت صلته الدائمة بالحاشية والسلاطين حتى ولاه الملك الكامل ابن الملك العادل المسئولية الكاملة عن ديوان الجيش سنة ٦٠٦ هـ ، ولكنه لم يجد هذا المنصب مناسبا لطبيعته فرفض هذه الوظيفة فى أدب جم ، وقد أشار إلى ذلك فى مقطوعة وجهها إلى سيده الملك الكامل من قافية الشين ، وهى آخر ما قاله من الشعر ، ويبدو أنه ظل فى هذه الوظيفة ما يقرب من عامين لأن هذه الأبيات قالها قبل وفاته بقليل : —

قد عجز المملوك عن خدمة ثباته فى مثلها طيـــــــش
للجيش ديوان ومالى بـــــه أنس ولا عنـــدى له عيـــــش
وصرت مهزوما فلا تعجبـــوا من واحد يهزمه الجيش (١)

مجالسه ومنادماته :

وكان لابن سناءالملك مجالس تجرى فيها المحاورات والمفاكهات التى يروق سماعها ، وكانت داره إحدى المنتديات التى جمعت أسباب الترف واللهو ، وجمعت بين ما يلذ القلب والعين ، ويمتع النفس والخاطر ، ففيها الزهور والبساتين ، التى تزرى بأية روضة على حد قوله :

لقد قصرت عن شأوها كل روضة وقصر عن أملاكها كل أفضل
وأنسى بها بين الورى ذكر جعفر الر شيد فأنى جعفـــر المتوكـــــل

وبها تماثيل مصورة ينساب منها الماء ، فكم من طائر ينبعث الماء من رأسه ، وأسد يثب الماء من فمه : —

وكم طائر من رأسه الماء طائر على أنه فى وكره كالمكبل
وكم أسد والماء من فيه واثب وإن كان لم ينهض ولم يتحلحل

ولو رآها كسرى وقيصر لضرب كل منهما كفا على كف ، ولفغر فاه ، وجحظت عيناه :

يقابل كسرى قيصرا وكلاهمـــا يقلب طرف الباهت المتأمـــــل
فكسرى يرى الإيوان كسرا وقيصر يرى القصر خص الناسك المتبتل

---

(١) الديوان : قافية الشين .

ويجد العشاق متعتهم فى أبهاء تلك الدار ، فقد صور فيها مناظر العشاق الذين يرون العشق فرضا منزلا على حد قوله : —

وصوّر فى أرجائها كل عاشق   يرى العشق فرضا فى الكتاب المنزل
جميل بثين مع كثير عـــزة   يصوغان أشعار الهوى والتغــزل

وله فى وسطها منظرة تطل على النيل كأنها الزهرة اللامعة المتألقة ، وكأنها جمعت بين حسن الدنيا ، وجمال الآخرة : —

انظر إلى المنظـــرة الناضرة   تزهر مثـل الزهـرة الزاهـرة
أحســـن ما فى حسنها أنهـا الــــدنيا وما ألهــــت عـن الآخرة

فى هذه الدار وفى غيرها (فى القاهرة) كان يلتقى بأصدقائه وأحبابه ، وبالشعراء والنقاد فيناقشون مسائل الأدب حينا ، ويعبثون حينا ، ويحتد بعضهم على بعض فى المناقشة حينا آخر ، وكان يدعو أصدقاءه إلى مجالسه ، ويهددهم بالهجاء إن لم يجيبوا دعوته وهذه إحدى رسائله إلى أحد أصدقائه :

حضر الحبيب وأنت أشـــــهى للفـــؤاد من الحبيـــب
فلئن حضـــرت مسارعا   فلأصفحـــن عـــن الذنوب
ولأمدحنـــك بالفتـــو   ة فى الحضور وفى المغيب
ولئن قعدت لأهجونـــــ   ــــك فى البعيد وفى القـريب
وأقــول هــذا فى النـــها   ر قد استرحنا من رقيب

ويرسل لصديق آخر يستدعيه فيقول له : —

تهت عنا مذ تهت عجبا علينا   يا كثير الخطا قليل الإصابة
نحن فى دعــوة فإن غبــت عنا   رجعت دعوة عليك مجـــابة

وقد حدثوا أن الشاعر ابن سناء بلغه أن هبة الله بن مقلد الكاتب قد هجاه فأرسل إليه من أحضره ، وأدبه وشتمه . فكتب إليه نشو الملك المعروف بابن المنجم الشاعر المعروف : —

قل للسعيد أدام الله نعمتــه   صديقنا ابن وزير كيف تظلمه
صفعته إذ غدا يهجوك منتقما   فكيف من بعد هذا ظلت تشتمه
هجو بهجو ، وهذا الصفع فيه ربا   والشرع ما يقتضيه بل يحــرمه
فإن تقل ما لهجو عنده ألم   فالصفع والله أيضا ليس يؤلمـــه

وجاء فيما كتبه الصفدى عن ابن سناء أنه حضر اجتماعات الشيخ أبى المحاسن البهنسى اللغوى أبى الوزير البهنسى الذى أصبح وزيراً للأشرف بن العادل ، وكان ابن سناء ذكيا وذا عقل ناضج يفهم ما يقال بسرعة ، وفى هذه الاجتماعات اتصل برجل مغربى تعود أن يشغل نفسه بتأليف الموشحات المغربية بالإضافة إلى الأزجال ، فاتصل به ابن سناء ، وناقشه فى الموشحات حتى أصبح فيها خبيرا ، بل إنها تقدمت على يديه أكثر مما تقدمت على يد المغاربة أنفسهم ، غير أن ابن خلكان وياقوت لم يشر أحدهما إلى هذه الحادثة ، ونجد ابن سناء فى كتابه «دار الطراز» يدعى أنه اعتمد على نفسه اعتمادا كليا فى معرفة الموشحات ، واستنباط قواعدها ونهجها الذى نسير

عليه فيقول : «..... واعذر أخاك فإنه لم يولد بالأندلس ولا نشأ بالمغرب ، ولا سكن أشبيلية ، ولا أرسى على مرسيه ، ولا عبر على مكناسه ، ولا سمع الأرغن ، ولا لحق دولة المعتمد ، وابن صمادح ، ولا لقى الأعمى وابن بقى ،ولا عبادة والحصرى ، ولا وجد شيخا أخذ عنه هذا العلم ، ولامصنفا تعلم منه هذا الفن ، فإن رأيته قد نهض به طبعه ، وأخذ بيده ذهنه ، وأضاء له خاطره ، وهدته قريحته إلى الطريق ، ومشى فيها بلا دليل ، واستأنس بلا رفيق وجدّ إلى أن وجد ، وطلب إلى أن غلب فلا تجحد حقه ، واعرف له وزن فهمه ولطف ذهنه ، وحسن ذوقه ، وحسن غوصه ، وبعد غوره ، وقدر همته ، وإن رأيت تعليمه لك نعمة ، فاعرف له قدر نعمته ......»

ومن ثم نرى أن (١) ابن سناء الملك قد اعتمد على نفسه فى تعلم هذا العلم ، وهذا لا ينفى احتمال استماعه من شيخ مغربى بعض الموشحات لا لدرجة أنه تعلمها منه .

ومر «ابن عنين» (٢) الشاعر الدمشقى بالقاهرة فاستهوته مجالسها ، وطابت إقامته بها فترة من الزمن انهالت عليه الدعوات من الأدباء والشعراء ، واجتمعوا معه على أرغد عيش ، وكانوا يقولون هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم وخاصة مع ابن سناء الملك .

أخلاقه :

إذا كان لنا أن نستخلص طرفا من أخلاقه فإننا نجد أنفسنا أمام أساسين رئيسيين ، وفى نظرى أن كلا منهما يعطى صورة تختلف عن الصورة الأخرى .

فأما الأساس الأول فهو ظروف نشأته ، وانحداره من أصل جمع بين الغنى والجاه والثقافة والأدب ، وكذلك صلته بالقاضى الفاضل وهوالوقور الجاد ، والوزير الخطير وكذلك ما كتبه عنه الأدباء والمؤرخون ... أقول إن هذا المصدر لو اعتمدنا عليه فإنه يمدنا بصفات عظيمة لشاعرنا فيها الاعتدال ، وفيها الورع ، وفيها التقوى ، وفيها الشموخ والاعتداد بالنفس ... الخ

والأساس الثانى هو ديوانه وشعره وإذا اعتمدنا عليه فإننا نلمس منه صورة مناقضة للصورة السابقة ، فأكثر من نصف الديوان للمدائح ، ومعظم هذه المدائح يشتمل على مبالغات غير مقبولة ، فهو يصل بممدوحه حد الألوهية ، فالدهر لو أخطأ فإن هيبة عبد الرحيم البيسانى تؤدبه وتقيم عليه الحد ، وبذا يقسم ابن سناء :

ويمينا لو عربد الدهر سكرا   لأقيمت منها عليه الحدود (٣)

ويرى أن الدهر خادم وأن القاضى الفاضل سيده :

وما الدهر إلا خادم أنت ربه   وما الخلق إلا عالم أنت فاضله

ويرى أن القدر لا يستطيع أن ينقض ما أبرمه الممدوح :

فلا يقدر المقدار ينقض ما قضى   ولا يستطيع الدهر يهدم ما بنى

ويعيد هذا المعنى نفسه فى مدائحه لصلاح الدين :

---

(١) دار الطراز : تحقيق الدكتور جودة الركابى ص ٤٠ .

(٢) ولد سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م وتوفى سنة ٦٣٠ هـ ١٢٣٢ م وله ديوان نشره خليل مردم بك (سابقاً) بدمشق

(٣) راجع الديوان قافية الدال .

فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا وما ينقض المقدار ما كنت مبرما

وفى مدح الملك العزيز يرى أنه هو الذى ينظم أمر الكون ، ولولاه لا نفرط هذا النظام :

لولاك تنظم عقـــد هـــذا الدهـــر لا تحـــل النظام

بل إنه ليعترف على نفسه فيجد أنه كاذب فى مدائحه ، صادق فى أهاجيه

كآبة الكذب فى مديحـــى ورونق الصـــدق فى هجائى

فماذا نستخلص من وراء هذه المبالغات ؟.. هل كان يجد نفسه قليلة القدر حتى ليضطر إلى هذه المبالغة فى ممدوحيه ؟ لا نستطيع أن نحكم هذا الحكم لعراقة أصله ونبوغه المبكر وحسد أقرانه له ولكنه مزيف للحقيقة والواقع ؛ هذا إذا تجاوزنا نظرة الدين وأنه بهذه الصفات الخارجة عن حد المألوف ، والتى لا يوصف بها غير الله — خارج عن حدود الدين ..

وماذا نقول حين ينظر إلى التراب الذى يطؤه القاضى الفاضل برجليه فيحسده ويتمنى لو سار عليه برأسه فيقول :

نلقى تراب مواطيـــه بأعيننا وتحســد الرجل فيه قمة الرأس

ومن شعره كذلك نرى أنه يؤمن بمبدأ المصانعة ، فيغمض عينيه على غل وحقد دفينين ويصرح بذلك فى شعره ؛ وكأنه يطبق ما قاله زهير بن أبى سلمى

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فها هو ذا يضطر إلى مصالحة إنسان بعد مخاصمته ومقاطعته فيقول :

أقـبل كفا ليتنى لو قطعتها وألثم ثغرا ليتنى لو فضضته

وهو خلق لا شك غير حميد .

وكان حريصا على النفع الشخصى فهو وفىّ مخلص للقاضى الفاضل فى زمن كان قادرا فيه على تحقيق أطماعه وآماله ، معرض كل الإعراض عن عدوه الصاحب بن شكر ، فلما مات القاضى الفاضل نسى عداوة سيده ، وأقبل عليه بمدحه ، ويستجديه حين خلص إليه أمر الوزارة وأصبح يرجى نفعه ، ويخشى بأسه وكان القاضى الفاضل يكره ابن شكر ويصرح بذلك فيقول : «أما ابن شكر فهو لا يشكر وإذا ذكر الناس فهو الشيء الذى لا يذكر ..» وكان ابن شكر يقول عن القاضى الفاضل: «ما فى قلبى حسرة إلا من البيسانى ، ما تمرغ على عتباتى ، ومع ذلك يمدحه ابن سناء ويقول فى مطلع قصيدته :

ما على الدهر بعد رؤياك عتب ما بقى للزمان عنـــدى عتـب

هذه النظرة التى كنت أشتا ق إليها طول الزمان وأصبو

ويبدو أن ابن سناء خاف بطش ابن شكر فمدحه (١)

وأخذ ابن سناء من الخلاعة والمجون والاستهتار بقسط وافر وبمراجعة أشعاره فى المجون التى يعف القلم من التعرض لها يتضح ذلك فكثيرا ما صرح بتجاربه مع غلمان وجوار وصرح بأعضاء التذكير وأعضاء التأنيث غير مبال ولا مهتم بعفة ، ولا متحرز بفضيلة .

---

(١) راجع : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ١٢٧

وبالغ في فخره واعتداده بنفسه فهو يحتقر الناس جميعا ، ولا يأبه بهم ويرى الزمان عبدا هو سيده .

وفرط احتقـــارى للأنام لأننى ... أرى كل عار من حلى سؤددى سدى
وإنك عبدى يا زمان وإننى ... على الكره منى أن أرى لك سيدا
ولو علمت زهر النجوم مكانتى ... لخرت جميعا نحو وجهى سجدا
أرى الخلق دونى إذ أرانى فوقهم ... ذكاء وعلما واعتلاء وسؤددا

مذهبه الدينى :

وينبغى أن نتعرض فى هذا المقام لمذهبه الدينى ، فقد اتهمه بعض المؤرخين بالتشيع ، ورأى آخرون أنه يدين بالمذهب السنى .

فقد قرر ابن سعيد فى كتابه الاغتباط : أنه كان مغاليا فى التشيع (١) وأيد الصفدى ما ذهب إليه ابن سعيد بأبيات قالها ابن الساعاتى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ اتهم فيها ابن سناء بأنه كان يكره أم المؤمنين عائشة زوج النبى ، ولم يكن يحب أباها ، ولذا نال ما يستحق وسقط من فوق البغل الذى أهداه إليه ابن شكر والذى كان يسمى بالجمل .

ولا نستطيع أن نمر على مثل هذا الاتهام دون أن نناقشه لنكشف عن الحقيقة الصادقة فى هذا الموضوع .

١ ـ فنحن نعرف أن ابن سناء تلقى علوم الحديث عن السلفى ، وكان السلفى سنيا شافعى المذهب وكان ابن سناء يحترمه ويحبه حتى خصه ببعض مدائحه بطريقة لا يقبلها الشيعى ، فقد خاطبه صراحة بأنه إمام الإسلام ، وأحسن مرشد لشريعة النبى عليه السلام ، وهذه صفات يتردد الشيعى فى ذكرها استمع إليه يقول :ـ

فجئت إلى الإسكندرية قاصداً ... إلى كعبة الإسلام أو علم العلم
إلى خير دين عنده خير مرشد ... وخير إمام عنده خير مؤتم
إلى أحمد المحيى شريعة أحمد ... فلا عدمت منه أبا أمة الأمى
إذا ما شياطين الضلال تمردت ... جدالا فمن أقواله كوكب الرجم
أتيت له مستشفعا بدعائـــــه ... يقيل به جرمى ويشفع فى إثمى (٢)

٢ ـ لم يذكر المؤرخون المنصفون من أمثال «ابن خلكان» و«ياقوت»و«أبى الفداء» ما يشير إلى عقيدة الشاعر وأنه كان شيعيا .

٣ ـ من تتبعنا لكتب ابن سناء لم نعثر على ما يؤيد ذلك من قريب ولا من بعيد بل على العكس من ذلك وجدنا ما يؤكد أنه كان سنيا ، ففى مقدمة كتابه «فصوص الفصول» يمدح صحابة النبى عليه السلام المهاجرين منهم والأنصار دون أدنى تحفظ ، وأكثر من هذا لا يوجد أى ذكر لعلى أو للأئمة الآخرين من بيته ، ومن الطبيعى ألا يمدح الشيعى أصحاب النبى ثم يهمل ذكر على والأئمة الآخرين فها هو ذا يقول : «وصلى الله على السيد الأجل ، النبى الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ، ويخرج المؤمنين من ظلل الكفر وظلماته ، محمد وآله وأصحابه الذين هاجروا وهجروا وآووا ونصروا ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أظهره الله بهم على الدين

---

(١) راجع الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط ج ٢ : ص ٢٩٣
(٢) راجع الديوان : قافية الميم فى مدح السلفى .

كله ، وجمع لهم به الخير أجمعه» . (١)

٤ ــ فى مدحه الملك المظفر «عمر بن شاهنشاه» يقرنه فى أدب واحترام زائدين بسميه «عمر بن الخطاب» الخليفة الثانى ، ويراه مترسما نهجه ومعيدا فى الناس سيرته

وسيرك فينا سيرة عمرية فروحت من قلب وفرجت من كرب
وردك فينا من سميك سنة فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب (٢)

٥ ــ وفى هجائه ابن عثمان يقول :

على وعثمان أبوه وجده على قوله ــ حاشا عليا وعثمانا
فإن سرقوا أسما الكرام فربما رأينا يهودياً يسمى سليمانا

فالشيعى لا يقرن عليا بعثمان ، إذ يرى عليا هو الخليفة وحده ، وغيره من الخلفاء معتدون .. وفى هذين البيتين رد صريح أيضاً على من زعم أن جده كان يهوديا .

٦ ــ وفى مدائحه للقاضى الفاضل ينفى عن نفسه التشيع نفيا صريحا ، فيرى أنه فى حبه القاضى الفاضل يجمع بين صفة التشيع من ناحية الحب العارم للممدوح ، وبين صفة السنية من حيث مذهبه الدينى فيقول :

أصبحت فى مدح الأجل موحداً ولكم أتتنى من أياديه ثنى
وغدوت من حبى له متشيعا يا من رأى متشيعا متسننا

وفى قصيدة أخرى يقول :

تشيع الخلق مثلى فى محبته إذ كان قائم جود غير منتظر

وهو شيعى فقط فى حبه الزائد وإخلاصه لقاضى الفاضل ، وفى البيت إشارة إلى القائم عند الإمامية وهو المهدى المنتظر الذى ينتظر الشيعة عودته .

٧ ــ وفى قصيدة نونية أخرى يمدح بها القاضى الفاضل يشير إلى يوم عاشوراء وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين ، والشيعة يلبسون فيه السواد ، وينتحبون ويضربون أنفسهم بالسلاسل الحديدية حتى تسيل منهم الدماء . وما زالوا يفعلون كذلك فى العراق وخاصة فى كربلاء والنجف وهو فى هذه القصيدة ينفى عن نفسه أنه شيعى ، وإن أوضح أنه يوم يشارك فيه الشيعى السنى حزنه فيقول :

ونظمتها فى يوم عا شوراء من همى وحزنى
يوم يناسب غبن من قتلوه ظلما مثل غبنى
يوم يساء به وفيه كل شيعى وسنى
إن لم أعز المسلمين به فإنى لا أهنى
أو كنت ممن لا ينو ح به فإنى لا أغنى
قتل الحسين بكل ضرب للبغاة وكل طعن

وهذا هو رأى السنى فى يوم عاشوراء .

---

(١) فصوص الفصول .
(٢) راجع الديوان قافية الباء

ـ وثمة حقيقة أخيرة ننهى بها هذا الموضوع وهى أن صلاح الدين كان يأخذ بالشبهة من يلوح عليه أنه متشيع ولو كان سنيا ، فقد قضى على عمارة اليمنى لممالأته أهل الشيعة على الرغم من أنه سنى ... بينما حظى ابن سناء بكثير من خلع الشرف من «صلاح الدين» وخلفائه فى مصر .

ومن ثم نؤكد أن ابن سناء كان سنيا ، وأن كل ما قيل عنه رجم من حاقد أو ناقم ، أو ساع له بشر ، أو مدبر له كيدا ، أو غافل عن الحقيقة .

آثاره العلمية ومنزلتها :

لقد ترك ابن سناء بعض الآثار الأدبية التى ما زالت تعيش بيننا حتى اليوم نذكر منها :

١ ـ روح الحيوان : لخص فيه الشاعر كتاب الحيوان للجاحظ (١) ، وكان الشاعر مولعا بمذهب الجاحظ فى الكتابة ، ومعجبا به ، ولذا درس بعض كتبه دراسة دقيقة ، حتى أخذ على عاتقه تلخيص كتاب الحيوان ، واحتفظ منه بنسخة دون عليها الجاحظ بعض ملاحظاته بخط يده ، وقد أشار ابن سناء فى إحدى الرسائل التى بعث بها إلى القاضى الفاضل إلى تأثير الجاحظ فى الكتاب الذين أتوا بعده مثل ابن العميد ، وأبى حيان التوحيدى ، والوزير أبى القاسم المغربى ، وقد سر القاضى الفاضل من اتجاه الشاعر ، وأغراه أن يستمر فى دراسة مؤلفاته الأخرى كالبيان والتبيين . (٢)

٢ ـ مختارات من شعر ابن رشيق القيروانى : من إحدى الرسائل التى بعث بها ابن سناء إلى القاضى الفاضل نعرف أنه جمع مختارات من شعر ابن رشيق أعجب بها ثم أرسلها إلى أستاذه مع مذكرة نقدية ويبدو أن القاضى الفاضل قد أعجب بتلك المحاولات ورآها ذات أثر بالغ فى تكوينه ككاتب فى ديوان الإنشاء فأشار عليه أن يجمع مختارات من شعر ابن الرومى ، ويظهر من الرسائل المتبادلة بينهما أن هذا العمل لم يتم . (٣)

٣ ـ دار الطراز : فى فن الموشحات : وهو من أعظم آثار الشاعر الأدبية ، وقد حققه الدكتور جودة الركابى ، وهو لا يزيد عن مائة وخمسين صفحة ، وقد قسمه الشاعر ثلاثة أقسام :

القسم الأول : مقدمة طويلة تحدث فيها الشاعر عن فن الموشحات ، وقوانينه ، وعرفنا طريقة كتابته ، وناقش تفصيلا أشكال الموشحات المختلفة ، وضرب لها الأمثلة من موشحات مغربية .

والقسم الثانى : يستعرض فيه الموشحات المغربية التى استمد منها أمثلته فى المقدمة .

والقسم الثالث : موشحات ابتكرها وصاغها هو بنفسه ، ويعد ابن سناء قمة شعراء المشرق فى كتابة الموشحات ، بل إن شهرته فى الموشحات تفوق شهرته فى الشعر . (٤)

٤ ـ مساعد الشوارد : وهو أحد كتبه التى لم نعثر عليها ، وإنما علمنا ذلك من إحدى رسائله إلى القاضى الفاضل ـ وهى رسالته التى تحدث فيها عن عيونه الملتهبة وعن مرضه الخطير ، وقد ذكر أن هذا الكتاب بأكمله جاء ضمن كتابه المسمى : «مساعد الشوارد» كما وردت الإشارة إليه فى قائمة كتبه التى ذكرها الصفدى .

---

(١) راجع معجم الأدباء ج ٩ : ٢٦٥ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ : ص ٢٨

(٢) راجع فصوص الفصول .

(٣) راجع فصوص الفصول

(٤) راجع : دار الطراز تحقيق جودة الركابى .

٥ – فصوص الفصول وعقود العقول : وقد قسمه قسمين : القسم الأول منه يحتوى على خطابات المؤاف التى كتبها إلى القاضى الفاضل ، وردود القاضى الفاضل عليها .

والقسم الثانى يحتوى فقط على الخطابات التى كتبها الفاضل عن الشاعر إلى والده القاضى الرشيد ، وإلى ابنه القاضى الأشرف ، وهذا الكتاب ذو أهمية بالغة فى دراستنا لشعر الشاعر إذ أنه ينير لنا الطريق عن بعض قصائد الديوان ومناسبتها ، والملاحظات النقدية التى أبداها القاضى الفاضل ، ولذا سيكون أحد المصادر الهامة التى سنرجع إليها فى دراسة شعره .

٦ – الديوان : وهو الذى قمت بتحقيقه ، وقد سبقنى إليه الدكتور محمد عبد الحق رحمه الله – ، عضو مجلس الموظفين لحكومة مدراس سابقا .

وفاته :

وقد وافاه أجله فى العشر الأول من شهر رمضان سنة ٦٠٨ ﻫ ودفن بالقاهرة (١) ولكن الكامل لابن الأثير لم يتعرض إلى وفاته فى هذه السنة بينما ذكر من الذين ماتوا فى هذه السنة : –

«محمد بن يوسف النيسابورى» الكاتب ، وكذلك «عمر بن مسعود البزاز البغدادى» و «ابن حمدون الثعلبى» «والشيخ عماد الدين محمد بن يونس الفقيه الشافعى الموصلى» (٢) .

وذكر صاحب الكمال فى عقود الجمان أنه توفى يوم الأربعاء رابع شهر رمضان سنة ٦٠٨ ﻫ ، وذكر العماد الكاتب فى الخريدة ما يأتى قال : «توفى والده جعفر فى منتصف شهر رمضان سنة ٥٨٠ ﻫ ، وقرر أنه رأى بخط بعض أصحابه أن الشاعر قد توفى يوم الثلاثاء ٥ من ذى الحجة سنة ٥٩٢ ﻫ ، وكان مولده منتصف شوال سنة ٥٢٥ ﻫ والله أعلم .

ويظهر أن هذا التاريخ الذى عرضه العماد الكاتب إنما هو لمولد والده ووفاته . وأن سنة ٥٨٠ ﻫ هى السنة التى مات فيها جده ، وقد أشار إلى تلك التواريخ الشاعر نفسه فى القصائد التى رثى بها والده وجده . (٣)

---

(١) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان

(٢) راجع الكامل ج ٩ : ٣٠٦

(٣) راجع الديوان : قصائد رثاء أبيه وجده .

الفصل الثاني

ديوان ابن سناء الملك

ما تركه من شعر :

قبل أن نمضى فى استعراض الديوان يهمنا أن نقرر أن بعض الشعراء والنقاد المحدثين يرون أن وظيفة الشعر هى التعبير عن العاطفة والوجدان وأن الشاعر لا يريد من ورائه إلا التنفيس عن عواطفه بالتعبير عنها مكتفيا بما يجده من راحة فى هذا التعبير .

ويرى بعض آخر أن مهمة الشعراء هى التأثير فى غيرهم ، وأن له وظيفة اجتماعية يقصد إليها الشاعر قصداً(١)

وكان ابن سناء ومعاصروه من النقاد يأخذون بالرأى الثانى لأن أكثر ما اشتملت عليه دواوينهم يدخل تحت شعر المديح وما يشبهه مما يصرفونه فى تحقيق مطامعهم عند الأحياء من معاصريهم .

ومن تتبعنا لديوان « ابن سناء » نرى أن ما اشتمل عليه من شعر يقرب من ثمانية آلاف بيت . خص المدح منها ما يقرب من خمسة آلاف وهو ما يزيد على نصف الديوان ، ثم تلاه ما يقرب من ألف بيت فى الغزل والمجون ، وهذان هما الغرضان الرئيسان فى الديوان . وقد ظهر إلى جانبهما أنواع أخرى من شعره كالرثاء ، والهجاء ، والفخر ، والحكمة ، والوصف ، والزهد ، والاعتذار والشكوى .

ومن واجبنا أن نأتى نظرة عامة حول كل غرض من هذه الأغراض لنتبين الخطوط العريضة التى اشتمل عليها الديوان من جهة ، وتصور الشاعر لوظيفة الشعر من جهة أخرى .

١ – المدح

فى القاضى الفاضل :

لقد خص الشاعر القاضى الفاضل بسبع وثلاثين قصيدة من قصائده المدحية التى بلغت الخمسة والسبعين ، ثم اتجه بما بقى إلى السلاطين كصلاح الدين والعزيز ، والأفضل ، والعادل ، والكامل ، وغيرهم من الملوك والوزراء كالملك المظفر تقى الدين ، والملك الظاهر غازى ، وكذلك الوزير صفى الدين بن شكر كما مدح والده القاضى الرشيد ، والقاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل وشخصيات أخرى كالطبيب اليهودى الرئيس موسى .

وكان القاضى الفاضل أثيراً لدى الشاعر ، لأنه كان له أستاذا وموجها ، وكان لوالده صديقاً ومحباً ، وكان

(١) راجع ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار للأهوانى : ٥٧

ابن سناء مدينا له بشهرته الأدبية ، ومنزلته السنية ومناصبه الهامة ، وتوجيهاته الفنية ، التى خلقت منه شاعرا يحتل مكانة مرموقة بين شعراء عصره ، بعد أن صادف فى بداية أمره من المتاعب ما جعله يعرض بمن يمدحهم فيقول : فى ٥٧٣ هـ :

تكمل فضلى قبل عشرين حجة فكيف وقد جاوزتها بثـلاث
وأنفقت عمرى فى مدائح معشر كموتى ولو أنصفت كن مراث

وقد عاونه القاضى الفاضل معاونة تذكر فتشكر ، ذكرها ابن سناء وشكرها ،فكان الفاضل يتلقى قصائده وهو فى دمشق فيذيعها ، وينشر محاسنهاعلى أهل دمشق حتى أصبح الشاعر معروفا فى الشام كما هو مرموق فى مصر.

وكان الفاضل ينقد قصائده نقداً رقيقاً رفيقاً ، تشجيعا له على الإجادة ، وأخذا بيـده إلى القيادة . وقد اعترف بذلك ابن سناء حيث يقول :

«إنه كثّر قليلى ، وسمن هزيلى ، وفخم ضئيلى ، وأعطانى من المدح مالا أستحقه ، ومنحنى من الوصف ما لاأستوجبه ، ورفع أقوالى فوق قدرها ، ودفع لعقائلى فوق مهرها ، فضلا منه ومنا ، وإحسانا وحسنى ...(١)

وقد لا نستطيع أن نتعقب قصائده كلها فى مدح القاضى الفاضل تاريخيا ، ولكننا بالاستئناس بما جاء فى «فصوص الفصول» أمكن أن نميط اللثام عن أكثرها ونكشف عن العلاقات التى ربطت بين الشاعر والقاضى الفاضل. فى سنة ٥٧٤ هـ مدحه بقصيدة رائية هنأه فيها بمطلع العام الجديد ، ومطلعها :

يا ليلة الوصل بل يا ليلة العمـر أحسنت إلا إلى المشتاق فى القصر

وبعد مقدمة غزلية بلغت الثلاثين بيتا خلص إلى المدح ، فشكره شكر الأرض للمطر ، وشكر سواد العين للنظر ، وبين فضله وعطفه المتزايدين عليه ، ويبدو أن القاضى الفاضل كان قد ألحقه بديوان الإنشاء فى ذلك الوقت ، ولذا أشار إلى ذلك وإلى النعم التى غمره بها :

دخلت جنة عدن فى الحياة به فلست أقرأ إلا آخر الزمر(٢)
وقلت قولوا لأيـام مغـبرة غـرى المهـدد يا أيام بالغـبر
وصرت ألهو وليل الأمن يشملنى طورا مع السمر أوطورا مع السمر
قبلت ثغر الأمانى إذ ظفرت بـه والثغر يحسن بعد الفتح والظفـر

وبالغ فى مدحه مبالغة خرجت عن المألوف حين جعل الدهر مفتقراً إليه ، يمدكفه مستجديا بينما يمد الفاضل لحظه محتقراً إياه ، وقلمه فى يده قدر الله ، يخط به مصائر الناس ، فينفع هذا ، ويضر ذاك :

والدهر مـد إليه كف مفتقر فمـد للدهر منه لحظ محتقر
فى كفه قلم إن شئت أو قـدر يصرف الخلق بين النفع والضـرر

وفى سنة ٥٧٤ هـ توجه القاضى الفاضل إلى بيت الله الحرام ، فهنأه بعودته من حجته الأولى ، وقد صادفت

---

(١) فصوص الفصول : المقدمة .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » آية ٧٢ من الزمر .

غودته انتصارات صلاح الدين على الصليبيين فى « بانياس » واستيلائه على حصونهم ، وأسره ملكهم ، ومطلع هذه القصيدة :

ما ثناياك لـؤلـؤ مكنـون   مثلها لم تقع عليه العيـون

وقد سيرها مع قصيدة أخرى فى مدح الملك الناصر ،وبدأها كعادته بمقدمة غزلية طويلة بلغت ثمانية وعشرين بيتا ، ثم خلص إلى مدح القاضى الفاضل فقال :

إن تعسرت أو تصعبت يا دهـ   ـر فبالفاضـل الأجـل تهـون
لى فى رأيـه مقـام كريم   وعلى قلبـه حفيظ أمـين
أنا عبـد وقـد غـدا لى بعد اللـه نعم المولى ونعـم المعـين
لقيتنى نعمـاؤه وأياديـــه   وبينى وبين لقيـاه بين

ففيها يظهر فضله ، وأياديه عليه ، وسبقه فى الكتابة وحسن رأيه ، وسحر بيانه وورعه وتقاه ، ورضى الله عليه

صور الله ذلك الشخص نـورا   وجميع الأنـام مـاء وطين

وقد توجه القاضى الفاضل إلى حج بيت الله الحرام مرة ثانية سنة ٥٧٦ ﻫ ثم عاد من مكة مباشرة إلى مصر بعد رحلة شاقة فمدحه الشاعر بقصيدته القافية التى مطلعها :

نعم المشوق وأنعم المعشـوق   فالعيش كالخصر الرقيق رقيـق

وقد بلغت أبيات هذه القصيدة تسعة وأربعين بيتا جعل للغزل منها ثلاثة وعشرين ، ثم انتهى إلى مدحه بالبلاغة ، وبلوغ المدى فى الكتابة حتى ليظن أن كلامه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم :

لولا اعتقادى للشريعة مخلصـا   ماقلت إن كلامـه مخلـوق

كما مدحه بالرياسة الأصيلة فيه ، وبطلاقة الوجه ، والنوال الطليق ، وبالتعمق فى الجود حتى لا يستقر المال فى كفيه — كما كان أبو تمام يقول — وبأن كل من يتوق الوصول إلى هذا المستوى يعجزه ذلك حتى الشمس نفسها :

ورث السيادة كابرا عن كابـر   فالعرق فى أفق العلاء عريق
معنى الرئاسة فيـه بكر لا كمن   معنى الرئاسة عنـده مطروق
الحكم فصـل والكلام مفصل   والوجـه طلق ، والنوال طليق
متعمق فى الجـود لولا جـوده   ماكان يشكر فى الورى التعميق
لا يستقر المـال فوق بنـانـه   حتى كأن بنـانه مخـروق
يا طالبين ذرى علاه توقفـوا   ومؤملين ندى يديـه أفيقـوا
لو رامت الشمس المنيرة شأوه   يوم الفخـار لعاقهـا العيـوق

وقد مكث القاضى الفاضل بمصر حتى نهاية عام ٥٧٧ ﻫ ، ثم غادرها فى صحبة « صلاح الدين » حيث رافقـه فى هجومه على حلب ، وفى هذه الفترة وجه إليـه ابن سناء عدة قصائد منها قصيدة لامية هنأه فيها بمولد ابنه القاضى الأشرف . ويحتمل أن يكون قد نظمها سنة ٥٧٣ ﻫ لأنها هى السنة التى ولد فيها الأشرف(١) ثم قدمها إليه مؤخراً ومطلعها :

---

(١) راجع وفيات الأعيان — ترجمة القاضى الفاضل .

هـــلال ولكن السعود منازلـــه   ونهر ولكن البحار جداولـــه

وفيها يقول :

فبشراك يا مولى الأنـام بقـادم   إلى قمة العلياء تطوى مراحلـــه
أتاك كريم النفس والصحب فالعلا   تسايره والمكرمات تعـــــادله
وإنك مولى لا يـــرد مـــــراده   وإنى عبـــد لا ترد وسائلـــه
وما الدهر إلا خادم أنت ربـه   وما الخلق إلا عالم أنت فاضـــله

وإنه ليردد هنا بعد أن مدح المولود وهنأه به ما ردده فى مدائحه الأخرى من أن الفاضل رب والدهر مربوب ، وأن مراده لا يرد ، وهى مبالغة ممقوتة ، بل دأب على أن يجعل نفسه عبداً للقاضى الفاضل ، وهذه الصفات شائعة فى مدائح هذا العصر .

وقد دفع الشاعر طموحه أن يسعى للحصول على جائزة تقديرية من السلطان صلاح الدين (خلعة شرف) وبالطبع لم يجد غير الوزير القاضى الفاضل — من هو جدير بالتوسط له فى تحقيق مطلبه هذا ، فوجه إليه قصيدة دالية سنة ٥٨٠ هـ ، التمس منه أن يحقق وعده ، ومطلعها :

شيب فودى رماد نار فؤادى   من رمى لى بهذا الرماد

وبعد أن خص الغزل بخمسة عشر بيتا خلص إلى المدح فقال :

كيف لا يرفع الزمان عمادى   وعلى الفاضل الأجل اعتمادى

وقد استعمل هذا المعنى فى الخلوص إلى المدح أكثر من مرة ، ووصفه بالسيادة كابرا عن كابر ، وبأصالة الرأى وسداد الفكر :

ما أتتـــه تلك السيادة عن جد   ولـــكن أتتـــه عن أجـــداد
إن يكن معرق الأبوة فى السـو   دد فالرأى معرق فى الســـداد

ثم صرح بمطلبه فقال :

إننى سوف أقتضى منك وعـــدا   أنت باد به فنعم البـــــادى
مطلب فيـه ملبس العـز إذ يلـ   بس ذلا جماعـــة الحســـاد
لم تزل تنبت الرياض ولـكن   لا على الروض بل على الأجساد
هو وعـد قد كان لى وسؤالى   منك إنجـــاز ذلك الميعـــــاد

ويبدو أن ملبس العز هذا هو خلعة شرف ، أوعباءة سلطانية ، تكون فخر لابسها لأنها هدية السلطان ، ودليل رضاه .

وبعد ذلك وصل القاضى كثير من القصائد التى مدح بها « صلاح الدين » فى مناسبات عدة كتكذيبه المنجمين بانتصاراته ، وكسره صليب الصلبوت ، وكسر الصليبيين فى « حطين » وفى سنة ٥٨٣ هـ مدح الفاضل بقصيدتين هنأه فيهما بفتح عسقلان أولاهما بائية ومطلعها :

سرى طيفه لا بل سرى بى سرابه   وقد طار من وكر الظلام غرابه

وبعد واحد وعشرين بيتا فى الغزل خلص إلى المدح بقوله :

وكيف يخاف الفقر أو يرهب الردى فتى من يدى عبد الرحيم اكتسابه
ومن كان مثلى آويا فى جنابه فيا عذر دهر قد نبا عنه نابه

وقد أشار إلى بعض الوشاة الذين حاولوا أن يوقعوا بينهما العداوة والبغضاء فقال :

وكم من كذوب رام تغيير رأيه علىّ فلم ينفق عليه كذابه
ولا نهنهت بالزور عنه أناته ولا زلزلت للحلم منه هضابه

وبعد مدحه بما هو مألوف من الصفات كالمجد والرفعة ، والفضل والنوال ، واعتماد الناس عليه ، يشكو إليه جور دهره وقسوته ، ويصرح بمطالبه وطموحه :

أمولاى أشكو جور دهر مبرح تطاول بى لما انتشى بى انتشابه
أتانى لكن أين منى رجوعه وأقبل لكن أين منى ذهابه
قسا قلب دهرى بعد لين ألفته ومن لى بدهر لا يخاف انقلابه
وإن لم تجد لى من يديك سحابة فبينى وبين المالكين تشابه
وإنى من كسب المعالى مراده وغير جزيلات العطايا طلابه
أنا الحائر السارى وأنت شهابه أو الحائم الصادى ومنك شرابه
فكم حاجة لى ضاع منى نجاحها وكم أمل لى طال منى ارتقابه
وما الدهر إلا خادم أنت ربه ولا الرزق إلا منزل أنت بابه

ومن العجيب أنه لم يذكر فى هذه القصيدة فتح عسقلان لا من قريب ولا من بعيد ، ولكنه أشار فى القصيدة الرائية التى مطلعها :

باتت معانقتى ولكن فى الكرى أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

إلى هذا الفتح وذلك الانتصار فبعد أن انتهى من المقدمة الغزلية التى خصها باثنين وثلاثين بيتا مدحه بما هو مألوف من الصفات ، ولكنه زفها إليه فى أجل ثوب وأزهى عبارة — فهو يقرى ضيوفه شعاع التبر الأحمر ، والقضاء يسعى لخدمته ، وجعل الأفق داره ، والكواكب معشره وجعله يفوق الملوك لأن اسمه الفاضل ، وجعل بلاغته تفل حد الحسام ، بعد ذلك أشار إلى كسر الصليب ؛ وتحويل الكنيسة إلى مسجد .

كسر الصليب سميه من رأيه فسل العدى من كان أصلب مكسرا
ولقد أقر الله عين نبيه بمطهر جعل الشآم مطهرا
ما زال أو جعل الكنيسة جامعا والأنبل المخفوض منها منبرا
فتح الشآم به وقال زمانه إن كنت فاتحه فلن يتغيرا
الشام دارك او أردت أخذته بالإرث عن آبائك الشم الذرا
ولقد أعدت لعسقلان روحه ورفعت شاهقه وكان مدمرا

وقد أجاب الفاضل على هذه القصيدة بكتاب أورده ابن سناء فى كتابه « فصوص الفصول » جاء فيه :
« ووصل كتاب القاضى السعيد وقصيدته ، ووقفت من قصيدة القاضى السعيد على أدوية للشفاء ما كانت فى قدرة

الأطباء ، ونسخ استعملتها القلوب فعادت بصحة الأعضاء فجاءت والعافية فى قرن ، ورخصت ما أبقت العلة من درن ، وقامت بينى وبين الحمى فوفرت هذيانها ، وتلت علينا آيات محاسن عرفت الحمى مع إساءتها إحسانها ، فنكصت على عقبها ، ودخلت فى حسبها ، وكأنما كانت فى الحقيقة ماء عذبا صافيا ، ألقى على نارها فسبقها إلى حطبها ، ولقد آتاه الله وله الحمد — فصل الخطاب ، وألان له ما لان لصاحبه من صم الحديد الصلاب ، ولو أدركها فتليت عليه لتلابها مزامر المحراب ، فما أرخص وما أغلى ذلك البياع وما أشد وما أسد ذلك المتاع :

إنا بعثناك نبغى القول من كثب فجئت بالنجم مصفودا من الأفق(١)

وقد تمكن القاضى الفاضل من الحصول على خلعة شرف من الملك الناصر (صلاح الدين) تلك التى سعى إليها وشغل بها ، وكتب إلى القاضى الفاضل ملحا ومصرحا بطلبها ، بل ومدح الملك الناصر وطلبها فى قصيدتين من شعره ، وهذه الخلعة مرتبة أدبية ، ومنزلة اجتماعية ترفع قدر الشاعر بين الشعراء ولعلها أشبه بجوائز الدولة التشجيعية والتقديرية التى يمنحها الأدباء والمفكرون والتى تدل على أن الحائز عليها قدم خدمات سنية للدولة فكوفئ عليها أجل مكافأة ، ولذا حفظ ابن سناء هذا الجميل لأستاذه ومدحه بقصيدة حائية مطلعها :

راحت وحق الله روحى بين المليحـــة والمنيـــح

وأشاد فيها بتلك الخلعة :

وكسوتنى خلعـــا هـــزز ت بهن عطفى كالصـفيح(٢)
خلع على خلــع أتتـــ ـنى كالفتــوح على الفتــوح
لولاك لم يعــلم بأشــعا رى ولم يقـــرأ مديحــى
وجميل رأيك حين صـــــرح جاء بالجـــود الصريح

ولنقف قصيراً عند قوله : « لولاك لم يعلم بأشعارى ولم يقرأ مديحى » . فهل هذا اعتراف من الشاعر بقصور شعره عن أن يصل إلى السلطان « صلاح الدين » لولا مساعدة القاضى الفاضل ؟ أم أنه إقرار بالأمر الواقع لأن قصائد الشاعر فى مدح الملك الناصر كانت تسعى إليه عن طريق القاضى الفاضل؟ أم أنه تواضع الشاعر ومجاملته للقاضى الفاضل ورغبته فى إظهار فضله ، وإعلاء شأنه ، وتجسيم الدور الذى قام به فى مساعدته وعونه .

الواقع أن التواضع والمجاملة ، والرغبة فى الإشادة بالقاضى الفاضل هى التى دفعت الشاعر إلى هذا القول ، لأنه لا يقل جودة عن شعراء عصره إن لم يفقهم ، ولأن صلته بالقاضى الفاضل وعمق هذه الصلة هو الذى يدفعنا إلى هذا الترجيح .

وبعد أن استولى صلاح الدين على بيت المقدس قام ابن سناء بزيارته سنة ٥٨٣ هـ ، ثم توجه إلى دمشق لرؤية القاضى الفاضل : قال : « فوجدته مريضاً مدنفا فى خطة صعبة وفى حالة مخطرة ، فخشيت أن أقيم فيجرى من المحتوم عليه ما لاطاقة لى بمشاهدته فأقمت عنده أياما قلائل ، واعتذرت إليه بأننى وردنى عن أبى رحمه الله خبر مزعج ، وحديث مقلق ، فأعطانى دستوراً بالعود عن نفس غير طيبة ، وعلى كراهية غير خافية ، فلما عدت ومنّ الله تعالى بعافيته كتبت إليه كتابا ونظمت قصيدة أعتذر فى كل منهما

(١) فصوص الفصول (الفصل ٤٣ ، ٤٤)
(٢) الصفيح : السماء ووجه كل شىء عريض (المحيط — صفح) .

وأستغفر من انفصالى عن خدمته ، وخروجى من جنته فأما قصيدتى فمطلعها :

تذكرت أيام الصبابة والصبا وعيشا مليحاً بالمليحة معجبا

وبعد مقدمة غزلية طويلة اعتذر عن مفارقته إياه وهو مريض :

بسوء اختيارى كان لى عنك مذهب على أن قلبى لم يجد عنك مذهبا
ولولا أبى ماكان لى عنك مرغب وكيف أرى عن جنة الخلد مرغبا
وكم لك ، لولا سوء بختى نعمة مننت بها لو شئت سميتها أبا
وبعد أبى كم نعمة منك نلتها فألفيتها أحلى وأهنا وأعجبا
أبى لى أن أبقى السعيد بزعمهم شقاء أبى أن يسعد المرء إن أبى

وقد وصلت تلك القصيدة القاضى الفاضل ، وأعجب بها ثم كتب إلى ابنه القاضى الأشرف كتابا تعليقاً على تلك القصيدة وهذه الحادثة ، وقد أورده ابن سناء فى «الفصوص» وجاء فيه : «وأما اعتذارك عن معلمك القاضى السعيد فى كونه فارقنى فأرقنى وأوحدنى فأوقدنى ، فهذه حجج ملفقة علمك إياها فإنه يعلمك السحر ، ولكنه سحر البيان ، وما أحق أقواله أن توصف بما وصف به ابن المعتز كتابته بأنها سحارة تحكم عقد اللسان ، وقد عقد لسانى عن عتبه بالسحر من كتبه ، فإنى لما قرأت كتابه ، وتأملت قصيدته التى اعتذر فيها عن فراقى ، وهربه منى وتركه إياى ، أشواقى آخذة بأطواقى ، كنت كلما قرأت فصلا أو بيتا تحللت عقدى ، فعلمت أن أقواله هى النفاثات فى العقد ، وأن من وجد ما وجد ، ما فقد منه ما فقد ، وما هرب إلا خوفا أن يقضى علىّ بالمحتوم وهو حاضر بحضرتى ، فينفر ويتجرع حسرتى دون أسرتى ، وهذا عذر استحى أن يقوله فقلته عنه ، وخجل أن يجعله عذره فعذرته عند نفسى منه ، ما عليه والله عتب ولاله ذنب ، ومن أين للوجه الجميل ذنوب ، ووددت لوكان البحترى حياً فكنا نلسعه من تلك القصيدة بحية ، وكانت بائيته تغض من بأوها وعجبها ، وتستر من الأوراق فى حجبها ، وكنا نعلم أى الزينبين هى الخلوب ، وأيهما أحق بتملك القلوب ، ولا شك أن الغالبة هى زينب الغالب ، وهو صاحبنا ، والمغلوبة هى زينب المغلوب». (١)

وقصيدة البحترى التى يعنيها الفاضل هى التى مطلعها :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا خيال إذا آب الصباح تأوبا

وفى سنة ٥٨٤ هـ رأى « صلاح الدين » أن تصحيح الأحوال الاقتصادية فى مصر لن يتم إلا بعلاج حاسم سريع ، فعول على القاضى الفاضل ، وأمره بالسفر إلى مصر فكتب إلى ابن سناء يذكر تبريزه من دمشق عائداً إلى مصر فقال ابن سناء قصيدة مطلعها :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجر وحاشاك ثم من وجهها ضحك الثغر

ثم هنأه فيها بالقدوم :

هنيئاً لمصر أنها حلها الندى وبشرى لمصر أنها جاءها البحر
هنيئاً لها أن يسر الله يسرها فلا عسر إلا جاء من بعده يسر

---

(١) فصوص الفصول . :

لقد جاء مصراً نيلها فى أوانـه فليست تبالى ضن او سمح القطر

وعاد إلى صدر الأقاليم قلبه فعاش ولولا القلب لم يخلق الصـدر

وقد أعد هذه القصيدة ليعرضها عليه إذا وصل ، ولكن الله قدر أن يتأخر فأرسل إليه هذه القصيدة مع كتاب يشرح قصتها(١) .

وقد أعجب بها الفاضل أيما إعجاب وكتب : « ما رأيت أغرب من مطلع تلك القصيدة ولا أدل منها على شطارة طبع ، ولا من بيت الكأس المكسورة — وهو يعنى قوله :

وساحرة صانت سلافة جفنهـا بكأس به كسر وهذا هو السحر

ولا أدل منه على صلابة نبع ؛ ولا من بيت الورق الخضر — وهو يعنى قوله :

فلا تنكروا منها الخضاب فإنمـا هى الغصن فى أطرافه الورق الخضر

ولا أدل منه على رقة طبع وشدة نزع ، ماهو إلا مالك عنان الفضل فى عصره وواحد كل دهر ولا أسمح بهذه المنقبة لدهره ، وما تغصصت إلا بغهبة ابن المعتز عن أن يسمع كما نسمع ، فيقطع بفضله كما نقطع ، ويكف عن عدواء تشبيهه ، ويغض عن غلواء توجيهه ، ونوافقه على أنه اتكأ واتكل على ذى الرمة فأخذ فى طريقه مستأنسا برفيقه ، فما ترك له تشبيها إلا نقله وصقله ، واستعمله ،واستنزله ...(٢) .

وفى نهاية سنة ٥٨٤ هـ رحل القاضى الفاضل إلى مصر ، وبينما كان فى بيت المقدس وصلته قصيدة بائية يشير الشاعر فى مطلعها إلى قصيدته الرائية السابقة :

رأت منك رائيتى ما تحب وبشرى لها أنها لم تخب

وقد أرسل مع هذه القصيدة كتابا هنأه فيه بالقدوم .. جاء فيه : « ولما علم المملوك بالإياب سارع إلى عمل قصيدة للهناء بالقدوم ، وأملاها عليه بلسان الجذل اقتضابا وأذن له الفرح وقال صوابا ، وجعل القافية على باء ، وأراد تسييرها لتلقى مولانا فى طريقها ، فوجدها مقيدة والمقيد أسير ، لا يطيق المسير ، وتأسى بها المملوك لأنه يجب عليه أن يسعى إلى أول البلاد الشامية لتلقى مولانا فكان هو أيضاً مقيداً من الإحسان بقيوده ،لا يطيق معها القعود ، فلما أبطأ إيابه سيرتها إليه وكتبت عليها كتابا جاء منه فى ذكرها... ».

فلما وصلت القصيدة والكتاب أجاب الفاضل إلى أبيه القاضى الرشيد :

« وما أجدر هذه القصيدة أن تكون كأختها فى الهناء بالأمر غير الواقع وبالوصول إلى مصر وبينهما شاءت الأقدار من الموانع ، وبالجملة إن أهل هذه الصناعة وقفوا خلفا ووقف أماما ، وأتت السماء بهم دخانا ، وأتت به غماما ، وتأخروا وإن تقدموا فقصروا وإن سبقوا ... (٣) .

فشهد له بالسبق على أقرانه ، والتقدم على نظرائه وأنهم وقفوا خلفاً ووقف هو أماما ،إلى غير ذلك مما سنحققه فى الفصل القادم .

وقد بقى الفاضل فى مصر حتى نهاية سنة ٥٨٦ هـ ومن المحتمل جداً أن بعض القصائد التى لم تؤرخ فى الديوان تكون قد قدمت للفاضل فى هذين العامين.

---

(١) راجع فصوص الفصول

(٢) فصوص الفصول : ١٣ ، ١٤

(٣) فصوص الفصول : ١٦ ، ١٧

وفى سنة ٥٩٢هـ مات القاضى الرشيد والد الشاعر فتعرض بعد فقده لأزمات شديدة وضنك مرير ، حتى أحس انصراف الناس عنه ، وشماتة الحساد به ، وربما ترك وظيفته وصفرت يده ، وساءت حاله ، ولذا نراه فى القصيدة النونية التى مطلعها :

جاءت بحسن مطمئن جاءتك منه بكل فن

يشكو إهمال القاضى الفاضل له ، وانصرافه عنه ، ثم يستصرخه ويتدنى ويسرف فى التدنى ويصرح بجوعه ، ويطلب رفده ونواله :

ثقل الزمان علىّ حتى خف بين الناس وزنى
وسقيت منه مكارها حتى امتلأت وقلت قطنى
وأراه جار فكيف جار وأنت منه لم تجرنى
وانفلّ عزمى واستبيحت قلعتى وانهدّ ركنى

ثم قال :

ومضى أب يحنو علىّ فليت أمى لم تلدنى
وأراك لاتحنو وتشبع حاسدى وتجيع بطنى
أفنى زمانى بالتشوف والتشهى والتمنى

وقد نظم هذه القصيدة فى يوم عاشوراء :

ونظمتها فى يوم عاشوراء من همى وحزنى

وفى قصيدة أخرى دالية بلغت الخمسة والستين بيتا ، نظمها بعد سنة ٥٩٢ هـ أى بعد موت والده أيضاً يجأر بالشكوى والاستغاثة بالقاضى الفاضل ، ويضيق بإهماله له :

وقلّ من يفقد الرشيد أبا برا فيلقى من أمره رشدا
قد كان لى والد وكان من الطاعة والبر بى يُرى ولدا
وكان بى جنة النعيم فما بالى رأيت النعيم قد نفدا

ثم غالى فى مدح القاضى الفاضل فجعله قد استعبد الخلق بنواله ، ولولا خوفه لعبدوه ، والملوك تفد إلى بابه ، ورأيه سديد ، إلى غير ذلك من الصفات التى تعوّد أن يخلعها عليه ، ثم صرح بأنه جرد من منصبه :

أصبحت لا منصبا ولا أملا فيه ولا نعمة ولا حسدا
لامسعداً لى على الزمان ولا سعداً ولا عاضدا ولا عضدا
كسدت فيه وليس ذا عجبا منه فمثلى فى مثله كسدا
وطفّ غيرى وما لحقت به لا يستوى الأشقياء والسعدا
وكان لى والد وكان به عيشى من بعد أن غدا رغدا
وإننى ما يئست من أملى إن لم يجى اليوم منك جاء غدا

والظاهر أن هذه الفترة كانت عصيبة حتى على القاضى الفاضل نفسه ، فلم يكن مستريح النفس للأوضاع القائمة بعد موت «صلاح الدين» ، وربما يكون هذا هو السر فى تلك الجفوة التى نوه عنها الشاعر . غير أن هذه الجفوة سرعان ما انطفأ أثرها وزالت شواهدها ، لأن الشاعر لم يظهر تلك الجفوة وهذا الإهمال فى آخر قصيدة وجهها إلى القاضى الفاضل قبل وفاته بثلاثة شهور ومطلعها :

شربت شرب الهـــيم من فم ذاك الريـــم

وقد مدحه وهنأه بعيد النحر ، وذكر فضله وإنعامه عليه :

قد أثقلت ظهرى وقـــ ـــدت بالحيـاة أديمـى
أقـل ما يوليـه تبـــ ـــجيـلى مع تعظيـــمى

وكان الشاعر قد أهداه كتابه دار الطراز ، فأثنى عليه ورفع قدره ، وقد أشار الشاعر إلى ذاك حين قال :

ومنك تعليمى ومــــا علمت مع تفهيـــمى
وعمــــرت دار طـرا زى منـك بالرقـــوم
كـذا موشـــحاتى صر ن منـك كالطمــــيم

وهنأه بالعيد :

واهنــأ بعيـد قـادم بأســـعد القـــدوم
أتـاك بالتكميــــل للآ مـــــال والتتـــميم

فى صلاح الدين :

وأرى لزاما بعد أن تتبعت قصائده فى القاضى الفاضل تاريخيا ، وأشرت إشارة سريعة إلى المنهج الذى اتبعه وسار عليه فى تلك القصائد من بدئه بالنسيب ثم مدحه بصفات تقليدية ، ثم إشاراته التاريخية إلى مناسبات قصائده — أن أتتبع كذلك قصائده فى بطل سجل اسمه فى سجل الخلود ، وأملى على الأحداث تاريخه المشهود ، ذلك هو البطل « صلاح الدين » وإن لم يحتل المكانة الأولى فى مدائح ابن سناء . غير أنه بهر الشعراء جميعا وهزت مواقفه نفوسهم ، وخلق بمواقفه البطولية فى صد الصليبيين لونا من الشعر الحماسى . وفى هذه القصائد التسع التى مدحه فيها ابن سناء تسجيل نابض حىّ لتلك المعارك وهذه الانتصارات ، وإن اشتد عجبنا لشىء — فلأن الشاعر اكتفى بالقليل وكان جديراً به أن يتغنى بالكثير — أولعل بعض قصائده فى تلك المعارك كفتح القدس لم تسجل . وحسبنا أننا سنتتبع قصائده ونشير إشارة سريعة إلى المنهج الذى التزمه فى تلك القصائد ، وهو لا يختلف كثيراً عن منهجه فى مدائح القاضى الفاضل .

فى سنة ٥٧٥ هـ نازل « صلاح الدين » الصليبيين قرب « بانياس » وأسر فرسانهم وشجعانهم وانهزمت جموعهم فى أول لقـــاء فكان من جملة الأسرى مقدم الداوية ومقدم الاسبتـــارية ، وصاحب طبرية ، وأخو صاحب « جبيل » ، وابن القوصية وابن بارزال صاحب الرملة (١) وغيرهم . ولذا مدح ابن سناء السلطان صلاح الدين بقصيدة نونية مطلعها :

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنا (٢)

وبعد خمسة عشر بيتا خصها للنسيب انتقل إلى مدح الناصر فقال :

فدى لابن أيوب الملوك فإنهم إذا بخلوا أعطى وإن أفقروا أغنى
فدى كل من يعطى المئين عفاته ترى ملكا يعطى الأقاليم والمدنا
ولم يكفه أن أخجـل البيض بالدما إلى أن أرانا جوده أخجل المزنـــا

---

(١) الروضتين : جـ ٢ ص ٨

(٢) كناية عن السهر وتتابع الدمع

فهل ترى ابن سناء كان يتطلع إلى مدينة أو إقليم يكون ملكا عليه ، يفعل فى هذا فعل المتنبى مع كافور حين قال :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله ... فإنى أغنى منـذ حين وتشـرب
إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسونى وشغلك يساب(١)

ثم تحدث ابن سناء عن نصره الإسلام وتحطيمه الكفر ، وفرار الأعداء أمامه ، وأسر من تشجع منهم ووقف ، وتحدث عن اشتداد المعركه ، وتشبع السيف من دمائهم ، وسأم الأبطال للنزال ، وهرب ملكهم فزعا يتحسس قفاه ، ويحسبه لشدة الهول مطعونا فيه ثم أسره بعد ذلك الملوك والقواد :

ولما رأوه أدبروا حين عاينـوا ... أعنّة خيل لا تعود ولا تثنى
وقد وقفوا لكن لأسر رقابهـم ... وقطف رءوس منهم آن أن تجنى
ثبتّ لهم والسيف قد كره الطلى ... وجالدتهم والقرن قد سئم القرنا
بضرب يذيب الشمس فى الأفق حرّه ... ويحرق ما بين القلوب من الشحنا
مضى ملكهم فى أول الأمر هاربا ... يحس قفاه الطعن فيه ولا طعنا
ولم يقرع الناقوس بعد انهزامه ... ولكنه من بعده قرع السنّا
وأضحى أسيرا بادويل وغيره ... قرون ملوك كم أبادوا لهم قرنا
أسارى جبارى لا يرجون فدية ... ولا يأملون الدهر فكّا ولا أمنا
بكى «الكند» و«اليسكند» لا وحشة لهم ... ولكن على نفسيهما أسبلا الجفنا
غدا «بادويل» وهو يلعن نفسه ... وحق لتلك النفس أن تربح اللاعنا

ولا ندرى إذا كانت هذه القصيدة قد وصلت «صلاح الدين» أم لا ؟ لأننا لم نعثر على أثر أورد فعل لها ، ويبدو أن انشغاله بالحروب ألهاه عن الإجابة عنها أو الاهتمام بها .

وفى نهاية سنة ٥٧٧ هـ اتجه السلطان «صلاح الدين» صوب «حلب» قاصدا الاستيلاء عليها توحيدا للعروبة حتى تقف صفا واحدا أمام جحافل الصليبيين . وحتى يكون القائد والموجه للمعركة واحدا فلا تطل الخيانات برأسها ولا تلهى القوّاد مصالحهم الشخصية عن المصالح الكبرى للأمة الإسلامية فأرسل إلى واليها «عماد الدين زنكى» الذى كان قد قرر لقاءه وتحصن بأجناده وعساكره — أرسل إليه مهددا متوعدا ، فلما رأى عماد الدين ألا قدرة له على لقائه تراجع وقبل أن ينزل عنها بغير حرب ، على أن يعوضه السلطان عنها «سنجار» ، فرد السلطان عليه سنجار وخلع عليه مدنا أخرى (٢) ، واستولى «صلاح الدين» على حلب وأصبحت جزءا من الدولة الكبرى التى تدين لصلاح الدين بالطاعة وهزت انتصاراته تلك قريحة ابن سناء فمدحه بقصيدة بائية مطلعها :

بدولة الترك عزت ملة العـرب ... وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب

وكان الأتراك عنصرا فعالا فى كيان الدولة الإسلامية ، ولذا امتدحهم الشاعر فى مطلع قصيدته ، ثم أشار إلى فتح حلب وضمها إلى مصر :

وفى زمان ابن أيوب غدت حلب ... من أرض مصر وغارت مصر من حلب

---

(١) ديوان المتنبى : ص ٣٥٤ مطبعة هندية بالموسكى بمصر سنة ١٩٢٣

(٢) الروضتين جـ ٢ ص ٤٢

وقد ترك الغزل فى هذه القصيدة على غير عادته وأشار إلى ذلك بقوله :

ألهى مديحك شعرى عن تغزله فجاء مقتضبا فى إثر مقتضب
فلم أقل فيه لا أن الصبابة لى يوم الرحيل ولا أن المليحة بى

فقد انشغل عنه بمدحه ، وحديثه عن فتوحه فى أرض الجزيرة ، وسياسته الحكيمة فى التغلب على أعدائه :

أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها بمالك فطن أو سائس درب

وكانت أوصال الدولة الإسلامية مفككة وعلى كل جزء منها ملك ليس له من الملك غير الاسم ، أما قيادته وتصريفه فى يد مملوك خصى ، وليس له هو من الفهم والدراية أكثر مما لصبى

ممالك لم يدبرها مدبرهـــا إلا برأى خصى أو بعقل صبى
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت من الفساد كما صحت من الوصب
واستعمل الجد فيها غير مكترث بالجد حتى كأن الجد كاللعب
وقد حواها وأعطى بعضها هبة فهو الذى يهب الدنيا ولم يهب

ثم يشير إلى تفضله على حاكم حلب وتعويضه عنها ببعض المدن :

ويمنح المدن فى الجدوى لسائله كما ترفّع فى الجدوى عن الذهب
ومذ رأت صده عن ربعها حلب ووصله لبلاد حلــوة الحلب
غارت عليه ومدت كف مفتقر منها إليه وأبدت وجه مكتئـــب

ـ وما أجدر هذه القصيدة أن توضع إلى فرائد المتنبى فى سيف الدولة ـ سجل الشاعر فيها الأحداث ، وانفعل بها ، وعبر عن مشاعره وأحاسيسه وتجربته الواعية الصادقة . ولذا نخرج بهذه القصيدة عن نطاق العقم فى شعر ابن سناء الذى وصمه به الدكتور الأهوانى (١) .

وفى سنة ٥٨١ هـ توجه إلى السلطان بقصيدة سينية عن طريق القاضى الفاضل ومطلعها

أمجلس لهوى ليس لى منك مجلس لأوحشت لما غاب لى عنك مؤنس

وقد تأثر فى هذه القصيدة بقصيدة المتنبى التى مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

وقد خص الشاعر من هذه القصيدة عشرين بيتا للغزل ، ولكنه مدحه فى الباقى منها ، وهى من الشعر الحماسى تحدث فيها الشاعر عن بطولة صلاح الدين ، وأنه شاد للجهاد دارا منيعة بناها الرمح وهندسها الحسام ، والقسى تنحنى لراحة السلطان ، والسلطان يرى فى وسط المعارك جذلا ضاحكا مستهينا بالحرب ، وجواده هو الذى يعبس ويهتم ، ورءوس الأعادى وأيديهم تطير فى المعركة وتتقدم إليه معتذرة ، وجحفله بحر الدروع ، وحصانه ملثم بالحديد .

---

(١) راجع ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار من ص ٧٧ — ١٥٢

وماذا تقول المدح فيه ومدحه بآثاره يروى ويقرأ ويدرس
ومن شاد دارا للجهاد فأصبحت بها الرمح يبنى والحسام يهندس
لراحته تحنى القسى وبعضها هلال له فوق السماء مقوس
يرى جذلا فى حومة الحرب ضاحكا فلا القلب منحوب ولا الوجه معبس

وبين البيت الأخير وبيت المتنبى :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

تشابه واضح

ويقول ابن سناء فى حصان السلطان :

أغار عبوس الوجه فيها جواده ومن عجب أن الجواد يعبس
تطير إليه طالبـات أمانـه ومعتذرات منه أيد وأرؤس
وكل حصـان بالحديـد ملـثم عليـه كمى بالحـديـد مقلنـس

وهو من قول المتنبى :

أتوك يجـرون الحديـد كأنمـا سروا بجيـاد ما لهـن قوائم

ويقول ابن سناء :

تزاحمـت الأبطال فيه فخرقـت ثيابا لها من عهد داود تلبس

ويقول المتنبى :

تقطع ما لا يقطع الدرع والقنا وفر من الفرسان من لا يصادم

ويقول ابن سناء :

لك المدح منى تنتشى السامعون به كأن مديحى فى معاليك أكؤس
كلانا بديع الصنع مدحى مطبق وجأشك فى قهر الملوك مجنس

والمتنبى يقول :

لك الحمد فى الدر الذى لى لفظه فإنك معطيه وإنى نـــاظم

وقد وصلت هذه القصيدة إلى القاضى الفاضل وهو فى دمشق وكان الملك الناصر مريضا مرضاً خطرا « بحران » فأخر إنفاذها إليه حتى عوفى ، فكتب ابن سناء قصيدة أخرى فائية فى مدح الناصر مطلعها :

نظر الحبيب إلى من طرف خفى فأتى الشفاء لمدنف من مدنف

وكتب معها رسالة إلى القاضى الفاضل جاء فيها : — والقصيدة السينية قد صادفها زحل فى الطريق وحرمها التوفيق ، فأجاب القاضى الفاضل فى كتابه إلى ابنه الأجل الأشرف : « والقصيدة السينية ما وافقها زحل فى طريقها بل يقوم المشترى أحسن القيام فى قضاء حقوقها ، وتأخرت عندى إلى أن سيرتها مقترنة بالفائية لتكون البلاغة أكثر نفيرا ، ويكون بعضها لبعض ظهيرا ، ولو أنصفناه لكان أدنى ما فيها من بيت يعمر ألف بيت ، وكان يوسف عروسها قد قال لها وأغناها عن أن تقول : «هيت» وقرنتها بفصل إلى المقام الناصرى نبهت فيه على أنها من القول الفصل وأقمت الشهادة فى بابه وإن كان صغيرا فإنه كبير أهل الفضل الذى علمهم الفضل ، وأن الدولة بمدحه قد أنزل الله عليها فى الغابرين ، وأبقى لها ذكرا حسنا فى الذاكرين ... »

وخص من الفائية ثمانية عشر بيتا للغزل ، ثم هنأ السلطان بالشفاء من مرضه وأشار إلى كمد الصليب بشفائه ، وبشرى المسلمين بنجاته ، وأن الله قد اصطفاه لنصرة دينه وحمى به الدين من أن يمحى ، وجعل أكبر كافر يعنو لأصغر مسلم .

ثم أشار إلى أمله فى أن يكون فى حاشية صلاح الدين ، لأنه نذر أن يحج بيت الله إذا شفى السلطان ، وقد شفى فحق عليه أن يحج ، وحبذا إذا كانت تلك الحجة وهو فى ركابه وحاشيته حتى يفوز بأجر مضاعف : —

ولقد نذرت على شفائك حجة ولقد شفيت فقد تعين أن أفى
سهلت لى حجى فمنك موصلى لمنى وجودك موقفى فى الموقف
ولئن تيسر مع ركابك قابلا حجى فيا فوزى بأجر مضعف
إنى بذا أدعو وأسأل ملحفا والله ليس يرد دعوة ملحف

وقد قرّظ هذه القصيدة القاضى الفاضل ، وقرنها بالمعلقات بل جعل المعلقات دونها جودة وبلاغة ، لأن هذه «فضلتها بجودتها وجدتها ، وأما الفائية فالوأواء عندها فأفاء ، ومن هو الوأواء الركيك ، بل كل شاعر مفلق على حروف المعجم عندها فأفاء ، وأوجه الحساد عند سماع قوافيها أقفاء ، ولو وفى سار بنظره عندى لوفت ، ولو كفى مؤنس من ابنه لكفت ، ولو استعطفت الفصاحة العربية الألسنة العربية بكلمة منها لعطفت وانعطفت ، ولو أن البلاغة حلة لكان لابسها ، ولو أن الشعراء حلبة لكان فارسها ، ولقد أنجب الزمان الذى ولده : وفخر الوالد الذى ما قضى حقه أن أحبه ...»

وقد وصلت القصيدتان إلى صلاح الدين ولكنه لم يفعل شيئا للشاعر والظاهر أن اهتمامه بالحروب آنئذ صرفه عن التفكير فى الشاعر .

وفى سنة ٥٨٢ هـ ظهر نجم فى السماء له ذؤابة ، ولم تجر العادة بظهور مثله ، فكان حديث المنجمين وشغلهم الشاغل ، ويبدو أن ظهوره قد خالف ما ارتأوه قبلا من أنه لن يظهر إلا وقت اقتران الكواكب الخمسة فى برج الميزان فى جمادى الآخرة ، ولم يظهر الكوكب فى الوقت الذى حددوه ، ولذا أشار ابن سناء إلى خطئهم بقوله فى هذه القصيدة :

نجومك ما أعيت على راصد لها وذا النجم أعيا راصدا ومنجما

وقد استهل هذه القصيدة بقوله :

أرى كل شىء فى البسيطة قد نما بعدلك حتى قد نمت أنجم السما

وهو تعليل لطيف لطول ذؤابة ذلك النجم ، وكان هذا النجم يسمى «الكف الخضيب» وقد رأى الشاعر أنه أخر ظهوره فى السماء حتى تحلى الدهر بظهور «صلاح الدين» فظهر هو كذلك فى السماء تكريما له :

وما برح الكف الخضيب معطلا فلما تحلى الدهر منك تختما
فلا تفتخر كف السماء بنجمه فكم أطلقت أفعالك الغرّ أنجما

وبعد أن خص النجوم فى مطلع القصيدة باثنى عشر بيتا انتقل إلى مدحه وبالغ فيه مبالغة غير مقبولة حتى جعل المقادير رهن إشارة السلطان فلا تستطيع أن تغير ما يبرمه ولا أن تبرم ما ينقضه :

فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا   وما ينقض المقدار ما كنت مبرما

وجعله فريدا لا يدانيه أحد من الملوك والعظماء ، فهو الحليم وهم الجهلاء ، وهو العظيم وهم الأذلاء وهو يعطى إذا بخلوا ، ويعفو إذا عاقبوا ، ويفى إذا غدروا ، ويسمو إذا هبطوا ، وإن سيرته لم تدع فى الأرض ظلما ، وكرمه وعطاءه لم يبق معدما ، فنائله يسعى إلى كل سؤاله حتى أفسدت كثرة عطاياه قصاده ، لأن عطاءه كالربيع بعد المحل :

فلا تقرنوه بالملوك فإنـــه   أجلهم أرضا وأعـلاهم سما
يخفون جهلا حين يحلم قدرة   ويخفون ذلا حين يبدو تعظما
إذا بخلوا أعطى وإن عاقبوا عفا   وإن غدروا أوفى وإن هبطوا سما
فسيرته لم تبق فى الأرض ظالما   ونائله لم يبق فى الخلق معدما
له نائل يسعى إلى كل سائل   فيطلبه بالماء والزاد أينمـــا
وكم أفسدت أمواله قاصدا له   وقد يرجع الشىء الصحيح مقسما
أتاه فألفاه ربيعا وقبلـــه   رأى كل جود فى الأنام المحرما

ثم انتقل إلى بطولته وشجاعته ، ودفاعه عن الإسلام وعن البيت المحرم الذى أنقذه من براثن الكفر ، ولولاه ما بقى زمزم ولتحطم الحطيم :

لقد نصر الإسلام منهم بناصر   يرى مغنما فى الدين ما كان مغرما
يذب عن البيت المحرم جنـده   فلولاهم ما كان بيتا محرما
ولولاهم ما كان زمزم زمزمـا   ولولاهم كان الحطيم محطمـا

وقد تنسك بالإسلام ولكن الشرع أحل له أن يشرب دماء الأعداء . وكل حمى أمامه لا يحمى صاحبه :

تنسك بالإسلام لكن رأيتـــه   يحل له بالشرع أن يشرب الدما
فكم سل لما سل من بطن غمده   لسان دم من ضربة خلقت فما
إذا ما صلاح الدين سار بجيشه   فليس الحمى أن أمه الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع واستلت الظبى   بآفاقه حتى أضاء وأظلمـــا

وهى كما ترى من الشعر الحماسى الذى خلقته الحروب الصليبية ، وقد اعتذر الشاعر عن تأخير النسيب لأن مدائح السلطان أوجبت تأخيره :

ففى مدحه صار النسيب مؤخرا   ومن أجله عاد المديح مقدمـــا
رأى مادحوه المدح أولى فأقبلوا   عليه وخلوا ذكر سعدى وكلثما

وفى هذه السنة نفسها زعم المنجمون أن الكواكب الستة سوف تجتمع فى الميزان وعندها تهب رياح زعزع تهلك الحرث والنسل ، وخوفوا الناس حتى شرعوا فى حفر مغارات وسراديب ، ونقلوا إليها الماء والطعام ، ولكن لم يحدث شىء فى هذا التاريخ (١) الذى حددوه ، فكتب الشعراء معرضين بكذب المنجمين ، ساخطين عليهم ،

---

(١) الروضتين ج ٢ : ٧٢ ، تاريخ ابن الأثير فى ذكر حوادث سنة ٥٨٢ هـ وقد قال أبو الغنائم بن المعلم فى هذا :

قل لأبى الفضـل قـول معترف   مضى جمـادى وجاءنـا رجـب
وما جـرت زعـزعا كما حكموا   ولا بـدا كـوكب لـه ذنـب

وفى هذه المناسبة يكتب ابن سناء هذه القصيدة إلى الملك الناصر ، ويبدؤها بالتعريض بالمنجمين :

سعودك ردت ما ادعاه المنجم وقد كذبته فى الذى كان يزعم
يبشر بالريح العقيم وإنهـــا كما قال عما قاله بك يعقم
ويقسم أن الأمر لابد كائــن وبالأمر قد أحنثته حين يقسم
وجودك أمن للوجود من الـذى عن الريح يحكى أو به النجم يحكم
وقد قيل أحكام النجوم على الورى وأنت على أحكامها تتحـــكم

ويهنئه فيها بالسلامة من المرض الذى كان قد أصابه وبحلول شهر رجب :

نهنيك بالشهر المرجب إنــه يرجب فينا كاسمه ويعظـــم
وبالبرء من بعد البشارة إنه لجسمك برء بعده ليس يسقم
ونشهد أن الشهر شهر مبارك عليك وأن البرء برء متمم

ويلمح بعطاياه :

وإنك فى البأساء تخشى وتتقى وإنك فى السراء تعطى وتنعم
فما يبرم المقـدار ما أنت ناقض ولا ينقض المقدار ما أنت مبرم

وهذه القصيدة أشبه ما تكون بروح المتنبى قوة وسهولة ووصف بطولة وقد أخر فيها النسيب كما أخره فى القصيدة السابقة وأشار إلى ذلك بقوله :

فيا ناصر الدين الحنيف حسامه ونائلــه الفيــاض يسـلو المتيم
لمدحك أخرت النسيب تهيبـا وعندهم أن النسيب يقـــدم

وهذه القصيدة قالها الشاعر قبل سابقتها ــ لأنه أشار هنا إلى أن النجم المذنب لم يظهر وهناك أشار إلى ظهوره ... وهذا يؤكد أسبقية هذه القصيدة عن تلك .

وتوالت انتصارات « صلاح الدين » فخرت له قلعة الكرك ، ودكت أمام قوته نابلس وانتصر انتصاره الحاسم فى المعركة الخالدة « حطين » فهنأته القلوب وتبارى الشعراء فى إظهار مشاعرهم ، وأنشد ابن سناء يقول :

هل الكرك الثكلى بأولادهـا انتهت عن النسل مما جرّعته من الثكل
وكانوا لها كالعقد لكنــه وهى وأضحى لها جيش ابن أيوب كالغـلّ
أتاهم بمثل الرمل ينقل خيلهم إلى الأفق ما فوق الطريق من الرمل

ثم يقول :

فنابلس لمـا أن نزلت بربعهـا أقامت بهم حق الضيافة والنزل
أحسوا بطل للخريف فجـاءهم ربيع من النبل المسدد كالوبل
ولم أر أرضا جادها الغيث قبلها وتصبح تشكو بعـده غلة المحـل
وما شرقـوا بالمـاء والريق إذ رأوا جيوشك لكن بالفوارس والرجل

وفى هذه القصيدة لم يطلب شيئا ولم يشر إلى شىء ، ويبدو أن الحماسة والرغبة التى امتلكت الملايين المتطلعة إلى القضاء على الصليبيين جعلته ينسى نفسه فى هذه القصيدة ولايذكر شيئا غير اعتزازه ببطولة الملك الناصر ،

والحقيقة أن هذه القصيدة تتدفق فيها حرارة العاطفة ، وصدق الوطنية ، وثورة الشعب وأمله فى القضاء على الغازين المعتدين .

وقد رجمتها المنجنيقات إذ رمت   لشيخ لعين كافر جاهل رذل

فالكلمات تتسابق على لسانه بالغيظ والضيق ، والأمل فى الخلاص والرغبة فى تحطيم أولئك الكافرين الجاهلين الأراذل .. ومن هنا نرى أن الشاعر قد خرج على ما استخلصه الدكتور الأهوانى من أن جهد الشاعر كان منصرفا إلى هذا الافتنان العقلى حتى فى أمس الموضوعات بالانفعال العاطفى ، وهو انحراف الشعر عن وضعه الطبيعى وعن وظيفته أو مهمته الأصلية ، وأن الفن كله والشعر لم يخلق ليكون مجالا لهذا النوع من الجهد العقلى الذى يكون على حساب التعبير العاطفى ، والذى من شأنه أن يطمس هذا التعبير ، ويخرج إلى نوع من الصناعة العقلية تشبه الرياضيات والعلوم العقلية(١) .

فى خلفاء صلاح الدين : .

وبعد موت صلاح الدين حاول ابن سناء أن يكسب ثقة الملوك الشبان أبناء صلاح الدين ، فوجه كثيراً من القصائد إليهم يمدحهم ، ويرجو فضلهم ونوالهم ، وعونهم على التقدم والرقى ، مدح الملك العزيز بثمانى قصائد استطعنا أن نتعرف على تواريخ اثنتين منها هما قصيدته الميمية التى مطلعها :

من فر منك فما يـــلام   وطريـد بأســـك ما ينـــام

فقد قالها سنة ٥٩٢ هـ عندما فر الأسدية (عبيد أسد الدين شيركوه) من الملك العزيز إلى الملك الأفضل . وهى قصيدة بلغت سبعة وأربعين بيتا ثم وجه إليه قصيدة رائية بعد أن خلص قلعة تبنين من يد الفرنجة سنة ٥٩٤ هـ ومطلعها :

الشـــام للإسلام دار القـــــرار   وكان من قبـل طريق الفــــرار

وفيها يقول :

جئت لتبنين ومن حولهـــا   قوم كأعداد الحصى للحصـــار
سدوا عليها الطرق حتى لقــد   كادوا يسـدون طريق القطـــار

وقد بلغت ثلاثة وأربعين بيتا ، وأما بقية قصائده فى العزيز فمن الصعب أن نستدل على تواريخها لأن ماورد فيها من مدح للملك أوصاف عامة لا تحدد مناسبة ولا تشير إلى أحداث ووقائع يمكن أن نستغلها فى معرفة التواريخ.

وقد وجه الشاعر إلى الملك الأفضل إحدى عشرة قصيدة إحداها لامية ومطلعها :

هـــــواى لمحبوبى الأول   فقصر من العذل أو طـــول

ويبدو أن الشاعر وجهها إليه عند عبوره عليه فى عكا سنة ٥٨٣ هـ أثناء سفره إلى سوريا ، ولذلك نرى أنه يدعوه إلى العودة إلى مصر :

بكت مصر بالدم شوقا إليـك   وحنت إلى حكمك الأعـــدل
تناديك عن كمـد مسـرف   وتدعوك عن سـقم معضـــل

---

(١) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار ص ٤٧ ، ٤٨ .

وكم لك فضـــل على أهلها فسمتك بالأفضـــل المفضـــل
وقد جئت منهـــا رسولا إليك فكن بالرجـــوع لهـــا مرســـلى
فأنت فتاهـــا ونعم الفـــتى وأى فتى كان إلا عـــلى

وقد وجه إليه قصيدة رائية مطلعها :

سافر فوجه العيـــد ســـــافر فلترجعـــن وأنت ظـــــافر
ولتظهـــرن عـــلى عـــــدو ك إن حزب الله ظـــاهـــر

وفى هذه القصيدة يشير إلى حياة الورع والزهد التى انصرف إليها الملك :

كم ليلـــــة أحييتهــــــا نام الأنـــام وأنت ســـاهر
لله فيهــــا قائمـــــــا وعلى ســـواك الكأس دائـــر

ولهذا نرجح أن تكون هذه القصيدة قيلت حوالى سنة ٥٩١ هـ إذ أن انصرافه عن اللهو وترك الملذات كان فى هذه السنة.

والظاهر أن الصلة قد توطدت بين الشاعر وبين الملك الأفضل حتى استدعاه الأفضل إلى سوريا كما يفهم من قصيدته التى مطلعها :

قمر بات بين سحرى ونحـرى وخيـول الدموع بالأثم تجـــرى

وفيها يقول :

هو فى الدست جالس وعطايـا ه إلى الخلق والأقاليم تسرى
أنا من سرت إليـه وجـازت كل بر وجاوزت كل بحـــر
طرقتنى فى كل ليـل بصبح وأتتنى فى كل عسر بيســر
جل مقدار ذكره لى على البعـ ـد لقد جل فى البرية قـدرى

وفى قصيدة دالية مطلعها :

عاد قلب المشوق إذ عدت عيـده ووفى وعده ووافت ســعوده

قيل عنهـــا فى النسخة التيمورية أن الشاعر مدح بها الملك العزيز ولكن الظاهر أنها فى مدح الملك الأفضل - كما رجح ذلك الدكتور محمد عبد الحق إذ أنه يشير فى أحد أبياتها إلى الجفوة التى كانت بين الأفضل وأخيه العزيز فيقول :

خمدت نار من عصاه ونور الـ ـدين هيهات ليس يخشى خموده
بعده لا عصاه عاص ولا يخــ ـفق فى الخافقين إلا بنـــوده

وأشار فيها إلى حياة التنسك والزهد :

ملأ الليل بالتهجـــد حـــتى فاض عنـه ركوعه وسجـــوده

والظاهر أنه كان قد أعدها ليمدح بها الملك العزيز ، فلما حضر الملك الأفضل إلى مصر بعد موت العزيز غير الشاعر بعض أبياتها وزاد عليها ووجهها إلى الملك الأفضل.

ولم يدم حكم الأفضل طويلا فى مصر فسرعان ما حل العادل محله سنة ٥٩٦ هـ وغادر الأفضل مصر ، حيث قضى

بقية حياته فى التقشف والزهد ولا نظن بعد ذلك أن الشاعر قد وجه إليه أية قصيدة إذ أنه لايكن أى تقدير للنجوم الهــاوية .

ولما سطع نجم الملك العادل وآل إليه أمر مصر انصرف الشاعر إلى مدحه ولذا نجد قصائده فيه قد وجه معظمها إليه بعد سنة ٥٩٧ ه أى بعد أن انتهى أمر منافسيه من أبناء صلاح الدين ومن كان يشجعهم كالقاضى الفاضل . وليس لدينا سوى قصيدة واحدة وجهها إليه سنة ٥٧٧ ه يهنئه فيها بمطلع العام الجديد ، ومطلعها :

سجى ليل همى بالعذار الذى سجا وعرّج قلبى نحوه حين عرّجــا

وبالطبع وجهها إليه فى حياة أخيه « صلاح الدين » ولم تكن الخلافات الشخصية ولا كراهية القاضى الفاضل للعادل قد اتضحت بعد ، ولذا كان الشاعر فى أمن وحل من أن يمدحه .

ومن الذين حظوا بمدح ابن سناء الملك المعظم « توران شاه » ، فقد مدحه الشاعر بقصيدة واحدة مطلعها :

تقنعت لكن بالحبيب المعمم وفارقت لكن كل عيش مــذمم

وقد أثار هذا المطلع ضجة النقاد فمنهم من هجنوا التقنع بالحبيب ومنهم من دافع عنه ، وقد جعل منها ثلاثة وعشرين بيتا للغزل حشدها بالإشارات الأدبية والتعبيرات الغزلية التى استعملها الأقدمون ، ثم مدحه بالمألوف من الصفات ولكن فى ثوب خاص به فهو المعطى الممالك مجداً صميما ، وملوك البرايا يخرون له رهبة ، ويسجدون فى حضرته ، ويلثمون الأرض بين يديه ، حتى تظهر أثر مباسمهم عليها ، وقد غدا ينصر بالرعب حتى ليحمى بأسه حماه ، وإن سمعته إذا تعوذ بها الطير أمن شر اعتداء النسور الكاسرة عليه ،وقد أرهب الكفار وأمن فى ظله الإسلام ، وقد تعلم السيف منه العزم والحزم ، ودروع الأعداء لا تحميهم من سهامه بل إنها لتصير مثل البرود تمرق فيها سهامه فى يسر وسهولة ، وإذا صاد غيره الغزلان فهولا يصيد غير الضياغم ، وركض الخيل عنده نوع من الاستراحة ، ولبس الدرع نوع من التنعم ،وأجمل ما يتطيب به نقع المعارك ، وألين مهاد له ظهر خيله وإبله ، وكثير من أهل الصليب إذا رأوه أسلموا .

وهى قصيدة حماسية تمجد البطولة ،وتشيد بالعزم والحزم الذى اتصف به الملك المعظم « توران شاه » أخو صلاح الدين ، وقد بلغت هذه القصيدة سبعة وخمسين بيتا ، وقد صرح فى الأبيات الأخيرة منها بطلب نداه ، وأمله فى أن يمهد له طريق التقدم والرقى ، ولم ينس أن يفتخر بأدبه ، وروعة لفظه :

سيخدم منك الشمس منى عطارد ويبدى كلامى فى سمائك أنجمــى
ويغنيك لفظى عن حسام مجــرد وتغنيك كتبى عن خميس عرمرم
فخذها فقد جاءتك من متأخر مجيــد وليس الفضل للمتقــدم

ويحتمل أن هذه القصيدة وجهت إلى « تورانشاه » ما بين سنة ٥٧٤ ، ٥٧٦ ه إذ أن ذلك هو الوقت الذى استقر فيه « تورانشاه » فى الاسكندرية وظل حتى مات سنة ٥٧٦ ه .

ومن الشخصيات التى حاول الشاعر أن يكسب عطفها ، وودها الوزير « صفى الدين » المعروف بابن شكر فقد كان الطريق الطبيعى إلى الملك العادل ، وكان بينه وبين القاضى الفاضل عداء مستحكم ، صرح كل منهما به ، وبالطبع لم يحاول ابن سناء أن يمدح ابن شكر فى حياة القاضى الفاضل ، ولذا يمكن أن نستنبط دون عناء كبير أن

الإحدى عشرة قصيدة التي وجهها ابن سناء إلى ابن شكر ألفت بين ٥٩٧ ، ٦٠٦ هـ أي بعد وفاة القاضي الفاضل إلى وفاة الشاعر .

ومن المؤكد أن الشاعر استطاع أن ينفذ إلى قلب «ابن شكر» ولكن بعد عناء ومشقة حتى أنه حصل على خلع عديدة من الملك العادل كما أشار إلى ذلك في قصائده وكذلك حصل على هدايا الوزير نفسه ، فقد أهداه بغلا يسمى الجمل ، وقد صرح بذلك في إحدى قصائده إذ يقول :

حملتني فوق مركوب قوائمه ... كالسيل مع أنها قدّت من الجبل
تمثال حسن بلا مثل يماثله ... في الحسن لكنه في السير كالمثل
علوت منه على الأفلاك أورده ... نهر المجرة بين القوس والحمل
وياؤه حذفت من اسمه غلطا ... فهو الجميل وإن سموه بالجمل

وبعد : فقد استعرضت ألوانا هامة من مدائح الشاعر حاولت فيها أن أوضح المنهج الذي آثره ، والصفات التي خلعها على ممدوحيه ، واستغلال بعضها للتصريح بمطالبه وحاجاته التي كان يسعى في الوصول إليها .

وإن مدائحه التي وجهها إلى الشخصيات الأخرى كالظاهر غازي ، والمظفر تقي الدين والملك الكامل ابن العادل لا تختلف كثيراً عن تلك القصائد التي قدمناها .

ويمتاز مدحه بالحماسة المتدفقة في أرجائه ، وبحرارة العاطفة التي تبعث في هذا الأدب الحياة والقوة ، بسبب اندلاع نيران الحروب الصليبية ، وتدل على ما كان يعتمل في نفوس الشعراء من اضطرام نيران الألم لاغتصاب هذه الأرض من المسلمين ولما أصاب سكانها من تشريد وذبح وتقتيل ، ويدلنا هذا الأدب على أن سكان مصر والشام لم ينسوا برغم مرور الزمن وتطاول الأعوام هذه البلاد التي اغتصبها العدو منهم ولم يفقدوا الأمل في أنهم سيستردون يوما ما فقدوه .

وقد تلوّن هذا الأدب ألوانا شتى بين حزن وحسرة ، وفرح وبهجة ، وبين تمجيد للأبطال وحث على النزال ، وبين قوة وإقدام ، أو خوف وذعر إلى غير ذلك من ألوان العواطف والانفعالات التي ألمت بالأمة في تلك العصور ، وصورها الأدب وأبقاها على مر الدهور (١).

وقد تأثر ابن سناء تأثراً واضحا بالحروب الصليبية ، وانعكس في شعره أثرها فأدى دوره في معركة التحرير ، وكانت له حظوة وأثرة عند السلاطين والوزراء والأمراء وطبع بطابع الحماسة والبطولة فيشيد بجهاد السلاطين وبطولتهم ، ويدفعهم إلى خوض المعارك ، ويبدي مهارتهم في الضرب بالسيف ، والطعن بالرمح ، فيشيد ببطولة صلاح الدين ، ويرى الأعداء قد فروا أمامه حين عاينوا خيله التي تنطلق في أعقابهم ومن تباطأ منهم كان نصيبه أن طارت رأسه ، وجزت رقبته ، وقد كره السيف الطلاء من كثرة ما انغمس في دمائهم وقد فر ملكهم وهو يتحسس قفاه ويظنه مطعونا من شدة الذهول فيقول :

أقمت بها التوحيد لله وحده ... وأنسيت فيها الروح والأب والابنا
ولما رأوه أدبروا حين عاينوا ... أعنة خيل لا تعود ولا تثنى

---

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوي : ٤٠٧

وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم — وقطف رءوس منهمُ آن أن تجنى
ثبتّ لهم والسيف قد كره الطلى — وجالدتهم والقرن قد سئم القرنا
بضرب يذيب الشمس فى الأفق حره — ويحرق ما بين القلوب من الشحنا
مضى ملكهم فى أول الأمر هاربا — يحس قفاه الطعن فيه ولا طعنا

ويقول فى مدح الملك العادل :

إذا سل سيف الدين فى حومة الوغى — فقد سل أدرى بالقراع وأدرب
وجرد ماضى الكف والقلب ثابت — فما قلبه يوم الوغى يتقلب

ويمدح الملك المظفر «تقى الدين» ، فيتغنى ببطولة جيشه ، وإحرازه النصر ، وتوثب الأبطال منه واندفاعهم إلى الموت ، وترفعهم عن الأسلاب والمغانم ، فهم لا يسلبون سوى الأسود أما المها فيعرضون عنها فيقول :

لك الجحفل الجرار للبيض والقنا — تخط خطوط النصر حتى على الترب
به كل وثاب إلى الموت باسل — ومن ذا يردّ الأسد عن عادة الوثب
يعفّون عن كسب المغانم فى الوغى — فليس لهم غير الفوارس من كسب
ويشغلهم سبى الأسود عن المها — ويلهيهم نهب النفوس عن النهب
لهم معجز فى الطعن والضرب باهر — فلا طعن فى طعن ولاضرب فى ضرب
ويُرهب من أسيافهم قبل سلها — ورب سيوف قطعت وهى فى القرب

ويمدح الملك الأفضل ، فيذكر انتصاره على الصليبيين ، ويرمز إلى هذا بتحطيمه الصليب ويشيد ببطولته التى ترهب الأعداء فينتصر عليهم بالرعب قبل أن يراهم أويرونه فيقول :

أنت الذى قصم الصليـ — ـب وهدّ منه كل صلب
تسرى إلى الأعداء قبـ — ـل الجيش منك بجيش رعب
تلقى الأعادى واحدا — أبدا فتهزم ألف طنب
وببعض بأسك كم غزو — ت وكم قتلت بكل غلب

ومن الظواهر الهامة التى نلمسها فى مدائحه تأثرها بشكل ملموس بثقافة عصره : فقد تأثرت ألفاظه ومعانيه ، وتشبيهاته ، وصوره وأخيلته تأثراً واضحا بتلك الثقافة . فيستمد من النجوم والأفلاك والأبراج ألفاظه وتشبيهاته ، فى مدح صلاح الدين يقول :

لو رامها الدهر لم يظفر ببغيته — ولو رماها بقوس الأفق لم يصب
ولو أتى أسد الأبراج منتصرا — حارت قوائمه عنها ولم يثب
جليسة النجم فى أعلى منازله — وطالما غاب عنها وهى لم تغب
تلقى إذا عطشت والبرق أرشية — كواكب الدلو فى بئر من السحب

وفى مدح الملك المظفر تقى الدين يقول :

لنصرك حتى تملك الغرب بالغلب — قد اجتمعت زهر الكواكب فى الغرب
وما اجتمعت إلا انتجد عسكراً — بسعدك يغنى عن مساعدة الشهب

والظاهر أن الفلكيين والمنجمين – على الرغم – من تهجين الشعراء لهم ، وحرصهم على تكذيبهم كان أثرهم فى المجتمع ، وفى تدبير الأمور عظيما .

وفى مدح الملك المظفر تقى الدين يقول أيضاً :

ويسعده البرجيس فى السلم مثل ما ... يساعده المريخ فى حومة الحرب
وينحس كيوانٌ بلاد عدوه ... ويُعجله بالسل منها وبالسلب
ويفتح ديوان السماء عطارد ... لإنشاء أخبار البشائر والكتب
وما الزهرة الزهراء إلا مليئة ... ببعث سرور النصر للنفس والقلب
وهذا هو القول المحقق لا الذى ... يحرفه أهل النجوم من الكذب

كما ينعكس فى شعره أثر الثقافة الدينية : ويتجلى ذلك واضحا فى ألفاظه ومعانيه فأحيانا يقتبس ، وأحيانا يضمن أبياته معنى آية أو حديث ، وأخرى يذكر مصطلحات دينية فيقول :

جمالهم من مغازيهم إذا قفلوا ... حمالة السبى لا حمالة الحطب

فقد ضمن البيت معنى قوله تعالى : « وامرأته حمالة الحطب » . ويقول فى القصيدة نفسها :

تطوى البلاد وأهليها كتائبه ... طيا كما طوت الكتّاب للكتب

فهى من قوله تعالى : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » .

ويقول فى مدح الملك المظفر تقى الدين :

وباسمك من قبل الوغى تهزم العدا ... وباسمك قبل الحرب تنصر بالرعب

فهو يضمنه معنى الحديث الشريف : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » .

ويأتى بالمعنى نفسه حين يقول فى جيوش المظفر :

ويرهب من أسيافهم قبل سلها ... ورب سيوف قطعت وهى فى القرب

ويقول فى مدح الملك الأفضل :

تسرى إلى الأعداء قبل الجيش منك بجيش رعب

ويستعمل كلمة « الفرض » و «الندب » وهما كلمتان شاع استعمالهما فى علوم الفقه الإسلامى ، فالفرض ما فرضه الله وأوجب القيام به بالقرآن أوالحديث القدسى ، والندب هو السنة وهوماكان من عمل النبى أوفعله أو قوله ، فنراه يستخدم ذلك فيقول :

وردك فينا من سميك سنة ... فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب

ويستخدم معنى قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ... الآية فى مدح الملك الأفضل فيقول فى المقدمة الغزلية :

ختم الحبيب بخاتم ... منه على سمعى وقلبى
هو خاتم فى فيه يا ... ما فيه مما صاغ ربى (١)

وفى مدح الأفضل يستخدم أيضاً الفرض والندب :

---

(١) فى هذا التعبير أصالة مصرية

والرسم شيء لايـــزال يراه فرضاً كل ندب (١)

وهو ملم بالفلسفة الإسلامية ومذاهبها ، ويكثر فى شعره الإشارات الفلسفية فالأشعرية لا يثبتون للمعدوم وجوداً ولا ذاتا ، فيشير إلى هذا المعنى بقوله :

وأشعرى الحب لا يقـول بالمعـدوم

تعدد الأغراض فى القصيدة فيتغنى بمصر وبالنيل الخالد : ويظهر أنه كان يحب وطنه حباً شديداً عارما ، نرى ذلك حين يغادر مصر ويذهب إلى الشام فيزيد شوقه ،وسرعان ما يحن إلى العودة إلى بلاده ، وقد كثرت إشاراته إلى النيل وإلى ذكر مصر وفضلها مرارا على الشام وعلى غيرها ،وفى مدح العادل يقول :

أعدت لأهل النيل رى بـلادهم بأبحر نيـل عندها النيل مذنب
هنيئاً لمصر وصـله ووصـواه فقد كان يؤذى مصر منه التجنب
أخذت لمصر من دمشق بحقهـــا فمصر بما أوليت تطرى وتطـرب
وما برح الفسطاط مذ كان طيبـا على غيره لكنه اليوم أطيب

ويتغنى بالأتراك ويشـيد بجهودهم ، وهذا مظهر لم يكن مألوفا من قبل ، ولكنهم كونوا فى عهد صلاح الدين قوة ضاربة ، فلاقوا الأعداء وأبدوا من البطولة والشجاعة ما جعل الشعراء يشيدون بهم ،والواقع أن الرابطة الإسلامية كانت هى الرباط الوحيد بين أبناء المسلمين ،ولذا أشاد بهم«ابن سناء» فى مطلع قصيدته التى مدح بها صلاح الدين فقال :

بدولة الترك عزت ملة العرب وبابن أيوب ذات شـيعة الصلب

كان يفتخر بنفسه فى قصائد مدحه كثيراً : فهو لا ينسى نفسه ولاينسى شخصيته فهو يأخذ ويعطى : يأخذ الفانى ويعطى الباقى ، يأخذ مالا ويعطى مجداً وهو فى ذلك يحذو حذو المتنبى فى مدائحه سيف الدولة ، فيشيد بشعره ويعجب به فيقول فى مدح العادل :

وغنى بشعرى فيك كل مغـرد ونال الغنى منه مغن ومطرب
وكل قصيد قلتهـا فيك إنهـا بلا مرية فى الحسن والسير كوكب
فلا منطق إلا لقـولى مشرق ولا مسمع إلا لقـولى مغرب

ويقول فى مدح صلاح الدين :

لك المدح منى تنتشى السامعون به كأن مدحى فى معاليك أكؤس
كلانا بديع الصنع مدحى مطبق وجأشك فى قهر الملوك مجنس

مظهر آخر ظهر فى مدائح ابن سناء هو نغمة السؤال والاستجداء : ويظهر أن ذلك كان مرضاً عاما وشائعا بين الشعراء فى هذا العصر ، ظهر فى شعر ابن التعاويذى بصورة مزرية فيقول لأهل بغداد :

أترضون يا أهـل بغـداد لى وعنكم حديث النـدى يسند
بأنى أرحـــل عن أرضـكم أجـوب البـلاد وأسـترفد

(١) الندب : الخفيف فى الحاجة ، الظريف النجيب

ألا رجل منكمُ واحد يحركه المجد والسؤدد
يقلدنى منة يسترقّ بها حرّ شكرى ويسترفد (١)

وقد ظهر الاستجداء والسؤال فى شعر ابن سناء ، ولكن ليس بتلك الصورة المزرية فيقول فى مدح الملك العادل :

وإيا كما أن تتركانى على الظما فكف أبى بكر بسقياى تسكب
ولى ثقة فى جوده لا يخوننى ولى أمل فى فضله لا يخيّب
أمنت زمانى وارتقبت نواله وبحر نوال عنده البحر مذنب
وطرى جفاف الحال منى بجوده فها أنا أطرى بالمديح وأطرب
هو الملك المحيى المميت بأسه ونائله أيان يرجى ويرهب

وفى مدح الملك الأفضل يلوح بمطالبه فيقول :

أنت الذى لو شئت ما فل الزمان علىّ غربى
والله ما أسفى على قطع النوال المستتب
كلا وليس معيشتى نظم ولا بالشعر كسبى
لكن لأن نداك يسحرنى فيسبينى ويصبى
ولطالما قد فاض (٢) ما بى من نداك وطال عتبى

ويمدح الملك الناصر صلاح الدين فيقول :

إنى أحب بلادا أنت ساكنها وساكنيها وليسوا من ذوى نسبى
فجود كفك ذخرى فى يدى ويدى وحب بيتك إرثى عن أبى فأبى

ومع القاضى الفاضل يقول :

فأقرب شىء بعد رؤيته الغنى وأبعد شىء بعد رؤيته الفقر
ولا عيب فى إنعامه غير أنه تعلم منه كيف يستعبد الحر

وبعد فهذه أهم الخصائص التى ظهرت فى مدائح ابن سناء وإن لم يقتصر بعضها على مدحه كأثر الثقافة ، وانعكاسها فى شعره فإن ذلك الأثر ليس مقصوراً على المدح وحده — غير أنه أبرز فيه من غيره من بقية الأغراض .

بقى أن أشير إلى المنهج الذى سار عليه فى مدائحه من التقديم لها بالنسيب المطول حتى لتبلغ المقدمة أحيانا الثلاثين بيتا ، وقلما يترك هذا المطلع إلا حين تلهيه مدائح الممدوح عما عداها كقوله فى مدح صلاح الدين :

لمدحك أخرت النسيب تهيبا وعندهم أن النسيب يقدم

وفى مدح الملك المظفر تقى الدين يترك التقديم بالنسيب ويشير إلى ذلك بقوله :

ألهى مديحى فيك قلبى عن الهوى وإن كنت صبّا بالمليح الذى يصبى
فشخصك أبهى فى فؤادى وناظرى ومدحك أحلى فى لسانى وفى قلبى

---

(١) الأدب فى عصر صلاح الدين : للدكتور زغلول سلام ص ٢٦٧ ، ديوان ابن التعاويذى ص ١٣٩
(٢) تعبير مصرى أصيل فى العامية المصرية (فاض بى) .

بقيت ملحوظة أخيرة هي انعدام الوحدة الفنية فى مدائحه : — وهو مظهر عام فى الشعر الأيوبى بل الشعر العربى كله فإن القصيدة الواحدة تتعدد فيها الأغراض والأفكار دون أن يربط بينها رابط فهى فيبدأ القصيدة بالنسيب ، ثم يتحدث عن صفات الممدوح وأحياناً يفصل بين تلك الصفات بالتصريح بمطالبه ثم يعود لاستكمال صفاته ، وبعد قليل يعود من جديد لينوه بمطالبه وآماله ، بل إنه أحيانا فى تناوله صفاته وفضائله يفصل بين الصفة الواحدة بصفات لا ترتبط معها .. يبدو ذلك فى مدح صلاح الدين فى قصيدته التى مطلعها :

أمجلس لهوى ليس لى منك مجلس　　　لأوحشت لما غاب لى عنك مؤنس

فبعد عشرين بيتا فى النسيب ، يتحدث فى البيتين التاليين عن عظمة الممدوح وأنه يضفى على مدحه التقديس والإجلال ، ثم يترك هذه الفكرة ليتحدث عن جهاده فى البيت الثالث والعشرين :

ومن شاد دارا للجهاد فأصبحت　　　بها الرمح يبنى والحسام يهندس

وقبل أن يمضى فى إتمام هذه الفكرة يقف فى البيت الرابع والعشرين ليتحدث عن رفعته وعلو شأنه ، وليست هذه صفة من صفات الجهاد ولا من لوازمه فيقول :

ومن هو يسرى فى الفيافى وإنما　　　إلى النجم يسرى بل عليه يعرس

ثم يعود من جديد للحديث عن الجهاد ، وفتح بلاد الأعداء ، وشجاعته وخوضه المعارك فى استهانة فيمضى من البيت الخامس والعشرين :

ويرسل عزما للأعادى مبكرا　　　فيأتيه فتح للأعادى مغلس

حتى البيت الثلاثين حيث يتحدث عن نتيجة المعركة :

فكم أسلموا من خوفه وهو مغمد　　　ولو أبصروا نيرانه لتمجسوا

ثم يعود فى البيت الثانى والثلاثين ليتحدث عن جيشه الجرار وظلام المعركة واشتدادها من جديد — ويستمر على هذا النحو حتى البيت التاسع والثلاثين حيث يذكر ما حقه أن يكون مقدما وهو أن صلاح الدين يعتد بقوته وجبروته فلا يرضى مهاجمة أعدائه قبل أن ينذرهم بقدومه :

أمرتهم أن ينذروا قبل حربهم　　　ولم ترض أن الجيش فى السر يكبس

ثم يتوعد أعداءه وينذرهم ويخوفهم ببطش صلاح الدين ، ثم يتجه من جديد إلى صلاح الدين فيعلى من شأنه ويذكر بطولته وانتصاره ، وتفرده بصفة الملك القوية ، ويصرح بعد ذلك بمطالبه ويفتخر بشعره ومدحه ، وهكذا يظهر انعدام الوحدة الفنية وعدم ترابط أبياتها بحيث نجد من السهل علينا أن نقدم ونؤخر فى أبياتها دون أن يضطرب المعنى أو يختل ... وهذا مثل يمكن أن يطبق على كثير من قصائده إن لم يكن كلها بل إنه لينطبق على شعراء العصر أجمعين فمقياس الوحدة الفنية فى القصيدة أثر من آثار المدرسة الحديثة فى النقد ، أما فى العصر الأيوبى فقد سار الشعراء على مذهب المتقدمين الذين يرون أن البيت هو وحدة القصيدة .

٢ – الغزل

والغرض الثانى الذى حظى باهتمامه بعد المدح غزله ومجونه ، فقد أربت قصائده ومقطعاته فيهما على المائة ، وتجاوزت أبياته الألف بيت ... هذا عدا مقدمات النسيب الطويلة التى استهل بها مدائحه .. كما أسلفنا .

ويشتمل ديوانه على شتى أنواع الغزل فيتغزل تارة فى جاريته ، وأخرى فى غلامه ، وثالثة فى محموم جميل الصورة حسن الخرطوم ، ويتغزل فى أشيب ، وفى عمياء ، وفى جارية فى خدها ناسور .

واختلف الدارسون فى غزله من ناحية الإجادة : فقد رأى الدكتور «محمد زغلول» أن له المرتبة الأولى فهو أكثر ما يجيد فى الغزل والوصف – على حد تعبيره – وله غزل جميل يكاد يذوب فيه رقة وعذوبة(١) ، وقد عارضه فى هذا الرأى معارضة تامة الدكتور الأهوانى ، فقد رأى أنه عاش بشعره فى واد ، وعاش حياته العاطفية فى واد آخر (٢) .

ورأى الدكتور «محمد كامل حسين» أنه من مدرسة الكتاب الذين اتجهوا بفنهم الشعرى إلى الصناعة اللفظية التى تسللت إليهم من كتاب الفاطميين والتى عرفت – خطأ – بمدرسة القاضى الفاضل ، وليس على حسب تقسيمه لمدارس الشعر من مدرسة الرقة والسهولة(٣) .

ولذا رأيت إزاء هذا التضارب التام فى الآراء أن أسلك طريقة علمية فى دراسة هذا الغرض حتى أصل إلى وجه الحق والصواب فسلكت طريق الإحصاء ، واستطعت أن أحدد ثلاثة اتجاهات أساسية فى غزل ابن سناء .

(١) أول هذه الاتجاهات :

غزل تقليدى (نسيب) خالص نهج فيه ابن سناء منهج الأقدمين ، وأعظم ما يتجلى هذا الاتجاه فى مطالع مدائحه – التى كانت مظهراً عاما لدى شعراء هذا العصر – ويتحدث فى هذا النسيب عن الأوصاف القديمة المألوفة كالوصال والهجر والوشاة والعاذلين ، والقد السمهرى ، والثغر الأقحوانى ، والطيب والنشر ، وصورة البدر وإشراقة الشمس .. ولكن فى روح مصرية يتجلى فيها الخفة وروعة الافتنان ، وحسن السبك .

ويسرف ابن سناء فى هذا النسيب الذى يبدأ به قصائده فتبلغ مطالعه أحيانا الثلاثين بيتا حتى لنظن أنه هو الغرض الأساسى ، وهو يحسن التخلص إلى المدح .

استمع معى إلى هذا المطلع فى مدح القاضى الفاضل .. لقد بدأ الحديث عن ليلة الوصل التى هى أحلى ليالى العمر ، والتى مضت مسرعة فأحس بها قصيرة ، ولم يملك إلا أن يتمنى بقاء النجم ، وعدم قدوم الصبح من سفره فقـال :

يا ليلة الوصل بل يا ليلة العمـر أحسنت إلا إلى المشتاق فى القصر

---

(١) الأدب فى عصر صلاح الدين : ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٢) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى : ٢٠٤ .

يا ليت زيد بحكم الوصل فيك لـه ... ما أطول الهجر من أيامه الأخر
أوليت نجمك لم تقفـل ركائبه ... أوليت صبحك لم يقدم من السفر
أوليت لم يصف فيك الشرق من غبش ... فذلك الصفو عندى غاية الكـدر

ثم يتبع التمنى بطول ليلة الوصل بأمنيات أخرى عن المحب ، فكان يتمنى أن يبقى المحب بعد ذهاب الليل ويتمنى ألا تطلع الشمس على محبوبه الذى يشبه القمر ، بل ويتمنى أن لو نظر محبوبه إلى العشاء فيفتنها بسحره وجماله فتقف مبهورة ولا يتحرك بها الزمن فلا تأتى ساعة السحر فقال :

أوليت فجرك لم ينفر به رشأى ... أوليت شمسك ما غارت على قمرى
أوليت أنى حبيبى سـحر مقلتـه ... على العشـاء فأبقـاها بلا سـحر
أوليت لو كان يفدى من كلفت به ... در النجوم بما فى العقد من درر

ثم تحدث عن الواشين الذين حاولوا أن يحولوا بين محبوبه وبين زيارته ، ووصف خطو محبوبه ومشيته وخصره ، وتبرج الحسن فى خديه :

زار الحبيب وقد قالت له خدعى ... زره وقال له الواشون لا تزر
فجاء والخطو فى ريث وفى عجل ... كتابه حار فى أمن وفى حذر
كأنه كان من تخفيف خطوتـه ... يمشى على الجمر أو يسعى على الإبر
وقال إذ قال ما أحلى تخفـره ... تبرج الحسن فى خديه من خفر

ثم تحدث عن ملاحته ، وكسر أجفانه ، وحنينه ، ومضاجعته طيف من يحب ، ثم تخلص إلى المدح فى يسر وسهولة فقال :

عيش تذكرته ثم امتدحت علا ... عبد الرحيم فأغنانى عن الذكر

والظاهرة الثانية : التى تتجلى فى هذا اللون التقليدى انطباعه بطابع المدح : فالمدح هو الذى يملى على الشاعر موسيقى الوزن ، وموسيقى القافية بل وهو الذى يملى عليه قاموسه اللغوى . والمدح كالفخر من الموضوعات القوية التى تحتاج نغما موسيقيا قويا ، وقافية جياشة ، ولذا نرى أن الأوزان التى يهتدى إليها الشاعر فى معظمها من الأوزان القوية الطويلة النغم ، والألفاظ والعبارات يظهر فيها طابع القوة والضخامة أكثر ما تتجلى فيها الرقة والسهولة .

استمع إلى تلك المقدمة التى ابتدأ بها مدح الملك الناصر :

نظر الحبيب إلىّ من طرف خفى ... فأتى الشفاء لمدنف من مدنف

فأنت تسمع هدير ذلك البحر ، وقوة جيشانه وتدفقه من وراء تلك الرؤية الخفية التى شفت المحب المدنف . وحين تمضى فى قراءة الأبيات ترى الضغط المتكرر على مقاطع الكلمات يحدث نغما قويا وموسيقى صاخبة أشد ما تكون شبها بموسيقى الحرب ، لا بموسيقى الفرح والطرب ، ردّد هذه العبارات لتشعر بذلك الاحساس «سكن خده نار قلبى » « كفى فقد جاء الحبيب » « عاشقة المروع قد كفى » « وملية بالحسن » بل إن اختيار تلك الكلمات لمما يحسن ويليق بالمدح منه فى الغزل .. فأنت تحس بالنار المشتعلة فى القلب وتحس بالجرى والخوف حين تقرأ :

ودنا فسكّن نار قلبى خده ... أسمعتم نارا بنـار تنطفـى
وأرادت العبرات عادة جريهـا ... أو جرى عادتها فقلت لها قفى

وتشعر بالفزع والروع حين تقرأ قوله :

كفى فقد جاء الحبيب بما كفى   وصلا وعاشقه المروع قد كفى

وتشعر بالسخرية والاستهزاء وتلك المعركة القائمة بين البدر وبين المحبوب :

ومليّة بالحسن يسخر وجهها   بالبدر يهزأ ريقها بالقرقف (١)

وما توحى به كلمة السخرية والاستهزاء من حركات وتقلصات فى عضلات الوجه .. أشبه ما تكون بالمعركة وإن لم تستخدم فيها الأسلحة المادية فتلك أسلحة معنوية .

ثم تمضى فتنتقل من هذه المعركة المعنوية بين القمر والمحبوب لتشاهد دم العاشق المتيم وقد سفك ظلما فلا يخامرك شك أنك فى وسط معركة وأمام عدو معتد لا فى حضرة عاشق متيم ، أو محب عاطف :

فتقول من هذا وقد سفكت دمى   ظلما وتسأل عن فؤادى وهى فى

ثم تنتقل إلى بيت آخر فترى حريقا هائلا ولهبا قانيا ، ذلك هو تلهب خدها وبعد ذلك تقابل بالضغط الشديد على المقاطع وكأن الشاعر يعض على نواجزه ، ويتوعد ويظهر عليه العزم والتصميم حين يقول : «أنا أنتوى عنها» ثم يحبس أنفاسه ليخرج العبارة التالية فى قوة تتناسب مع الضغط الشديد على مقاطعها «لئلا أرتوى» ويخيل إليك أن وجهه ينحبس فيه الدم فيبدو أحمر قانيا وهو يردد قوله : «أتظن أنى أشتهى أن أشتفى» ثم يسترسل ويمضى مسرعا وكأنه يجرى وينطلق فيدعو على نفسه بألا يستمر عشقه ، ولا يبقّى تصبّره ، ولا يقل تلهفه :

لا سار عشقى ، لا أقام تصبرى   لا قل مع نيل الوصال تلهفى

ثم تكون نتيجة المعركة هزيمته أمام معشوقته ، ويصبح أسيرا بين يديها ، وما عليه حينئذ إلا أن يستعطفها ويطلب منها العفو والغفران :

يا من تجور لقد ملكت فأسجحى   يا من تهين لقد غنيت فأسعفى
فبحق حسنك يا مليحة أحسنى   وبعطف قدك يا نحيلة أعطفى

وهكذا نشعر إزاء تلك المقدمات فى مطالع المدح أن جو المدح قد انعكس عليها وطبعها بطابعه فى اختيار الألفاظ والعبارات ، وفى اختيار التشبيهات والاستعارات ، بل وفى اختيار النغم الصوتى الذى ينبعث من موسيقى الوزن وموسيقى الكلمات . لأن القوة الدافعة ، والأفكار المسيطرة على الشاعر ، والمدد الذى يستمد منه هو ما يختزنه من مادة المدح ، والصفات التى يحاول أن يصف بها الممدوح ، والجو العاطفى الذى يشده إلى ممدوحه لا إلى معشوقه .

والظاهرة الثالثة التى تتجلى فى هذا الاتجاه التقليدى : افتنانه العقلى ، فهو يتجاوب مع عقله أكثر مما يتجاوب مع عاطفته حتى ليطمس العاطفة ويخفيها ويخرج إلى نوع من الصناعة العقلية تشبه الرياضيات والعلوم العقلية .

وقد رأى الدكتور الأدوانى تغليب هذه الصفة عليه وشمولها أدبه كله (٢) . ونحن نوافقه على هذا فى نسيبه الذى يصدر به مدائحه فقط ، ولنؤكد ذلك نعرض نصا من قصيدة يمدح بها القاضى الفاضل :

---

(١) القرقف : الخمر

(٢) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار : ٥٢

يا ضنينا شوقى إليه كريم   وخؤونا قلبى عليـه أمـين
سافر القلب فالدموع بحـار   لتلاقيك والضلوع سفـين
دمع عينى قد عاث فيها وقد ضا   عت لديها أهدابها والجفون
ليت دمعى لو كف عن منزل الطيـ   ـف فإن الوصال فيه يكـون
لك نعم الوكيل منى دمـع   وهو للمقلتين بئس القريـن

فقد خص الشاعر الدمع بخمسة أبيات ، بسط فيها صورا وقضايا أطال لها التفكير والتأمل وأنفق فيها جهدا ذهنيا كبيرا ، فما دامت الدموع توصف لكثرتها بالبحار ، وما دامت السفينة فى انحناء جوانبها تشبه بالصدر ، وما دام القلب يشتاق إلى لقاء الحبيب ، فقد صار القلب مسافرا فى سفينة الضلوع فوق بحر الدموع ، وما دام الحبيب يعذب المحبوب ، وما دام الدمع يعذب العين ويعيث فيها فسادا فهو إذن وكيل المحبوب ، ونعم الوكيل إخلاصا لموكله ، وهو قرين للعين يخرب منها منزلا يستقبل فيه طيف خيال ذلك المحبوب ، وإذن فهو للعين بئس القرين . وهذه الظاهرة كثيرة واضحة فى مقدماته الغزلية .

وخلاصة هذا القول : أن النسيب التقليدى الذى يصدر به مدائحه تتجلى فيه صفات أساسية أهمها :

١ ــ استعمال الأوصاف القديمة فى الغزل .

٢ ــ انعكاس صفات المدح وما يقتضيه عليه .

٣ ــ الافتنان العقلى ، والتوليد الذهنى والبعد عن العاطفة .

(٢) ثانى هذه الاتجاهات : غزل رقيق :

يفيض عذوبة ورقة ، وينساب فى يسر وسهولة ، ويتجاوب فيه مع مشاعره وعواطفه يغترف فيه من بحر ، ويصقل ما ينحته من صخر .. إنه يحكى نبضات قلبه ، ولوعة نفسه ، وفيض إحساسه . استمع إلى قوله :

أواصل اللثم من فرع إلى قدم   وأوصل الضم من صدر إلى كفل
وبات يسمعنى من لفظ منطقه   أرق من كلمى فيه ومن غزلى
وددت أعضائى أسماعا لتسمعه   ولو تحملن فيه وطأة العذل
ودمعة الدل تجريها على جسـدى   فهل رأيت سقوط الطل فى الطلل
ونلت ما نلت مما لم أهم به   ولا ترقت إليه همة الأمـل
ومر والليل قد غارت كواكبـه   لما نوى الصبح تطفيلا على طفل
لم أسحب الذيل كى أمحو مواطئه   لكننى قمت أمحو الخطو بالقبل
يا ليلة قد تولت وهى قائلة   لا تنطمنى مع أيـامك الأول

فانظر إلى الصورة التى تحدث فيها عن تجربته الشخصية مع محبوبه فى ليلة حلوة من ليالى الوصال . لقد كانت ألفاظ المحبوب وكلماته موسيقى تنساب من فمه فتشنف الآذان ــ أو هكذا رأى العاشق المتيم -- حتى تمنى لو كانت جوارحه تتحول إلى مسامع لتنعم بما ينعم به سمعه الحقيقى . وهذه دموع الدلال تتساقط فى رقة وكأنها قطرات الندى تتساقط على الطلل ، وقد أحس بالسعادة تسرى فى أوصاله مما لا يطمع ولم يطمح فى أن

يصل إليه . ولما غابت كواكب الليل ، وبدأ الصبح يزحف متطفلا ، رحل المحبوب فقام فى أثره يمحو الخطو بالقبل .

هذه المعانى الرقيقة التى تحكى تلك التجربة الذاتية ، تنساب فى خفة ودلال ورشاقة زادتها العبارات والقوالب الفنية روعة وسحرا ، فما أحلى هذه الموسيقى التى تنساب من حروف الصفير فى الكلمات والعبارات : « يسمعنى – من لفظ – غزلى – أسماعا – لتسمعه – العذل – جسدى – سقوط » – لقد تكررت السين والزين والدال والظاء والصاد ، وتوالت فانبعثت منها نغمات موسيقية راقصة .

فضلا عن الإيحاءات الجميلة التى تستتبع تلك التعبيرات الحلوة ، فكل ثغرة من ثغرات جسمه يود أن تكون أذنا لتنعم بحديثها فكأنحديثها هاروت ينفث فيه سحرا ، وهذا جسده يذوب بين يديها فلا يبقى منه إلا طلل بينما تشتعل روحه وتتوهج نفسه ، وهذه دموع دلالها تتساقط على جسده المتهالك عله يفترش صدرها ، أو يضع رأسه على ساقيها فتتساقط دموعها على جسده ، إنها لوحة فنية ، إنه اندماج الأرواح ، فليست متعة جسدية فحسب ولكنها متعة روحية ونفسية ، لذا لم تزل تلك المتعة بزوال أثرها ، فما زال يذكر تلك السعادة بعد ذهاب صاحبته وكان حريصا على استبقاء تلك الذكرى فوجدها جديرة بأن ينحنى على الأرض ويلثم خطواتها التى تركت أثرا فوقها : « لكننى قمت أمحو الخطو بالقبل »

وهذه ليلة العمر ، لذا لا ينبغى أن تحسب مع الليالى الأخريات.

ومما زاد العبارات جمالا وروعة هذا الانسياب الذى يتمثل فى حروف المد التى زادت عدتها فى هذه الأبيات « أواصل – إلى – وأوصل – وبات – يسمعنى – منطقه كلمى – غزلى – أعضائى – أسماعا – لتسمعهو – العزلى – جسدى » ... الخ . إن حروف المد وتواليها فى هذه الأبيات أكسبها حلاوة وطلاوة ، وزاد فى جمال النغم الموسيقى الذى ينبعث عنها ، وهى توحى بالتعلق والرغبة واللذة حتى ليود ألا تنتهى الكلمة ذات الدلالة على المعنى .

والعاشق المتيم يجد صدى هذه الأبيات فى نفسه ، ويحس بالترجمة الصادقة لما ينطوى فى قلبه ، وتزيده تعلقا بها ، وتكرارا لها إذا كان قد مر بهذه التجربة ، فأمضى ليلة سعيدة مثل هذه الليلة مع من يهوى أو من يعشق .

وهجره المحب ، وعبثا حاول استرجاعه ، لقد حلت القطيعة محل الوصل والغضب موضع الرضى ، فأقر عين الحاسدين ، وأرضى العاذلين ... فماذا يملك العاشق المتيم الذى قتله معشوقه .. أيرسل له رسائل الشوق .. نعم فليفعل وقد فعل ذلك ، ولكنها ذهبت أدراج الرياح ، فلم يملك إلا أن يعض على أصابعه من شدة الغيظ . استمع معى إلى هذه التجربة اللذيذة فى تلك الأغنية الممتعة :

ليس حظى من الهوى	غير عض الأنامل
طال حزنى ولم أفز	من حبيبى بطائل
غضب غير قاطع	ورضى غير واصل
وصدود له قضى	بسرور العواذل
أترى هل درى حبيـ	ـبى وإن شئت قاتلى
أن هوج الرياح قد	أتعبتها رسائلى

إنها أغنية جميلة عبرت فى صدق عن تجربة الحرمان والهجر .

ولا أستطيع أن أنكر أن الصنعة تطل برأسها أحيانا فى ذلك اللون من الشعر ولكن العاطفة تجرفها بفيضها ، وتطغى على كلفتها ، فتزيد الغزل جمالا فوق جمال كالمرأة الجميلة تزيدها الأصباغ والعطور جمالافوق جمال وروعة فوق روعة ، استمع إلى قوله :

لا أجازى حبيب قلبى بجرمـه   أنا أحنى عليه من قلب أمـه
جـوره مثل عدله عند من يهـ   ـواه مثلى وظلمـه مثل ظلمه
ضـن عنى بريقـه فتحيا   ـت إلى أن سرقته عند نومه
وإلى اليـوم من ثلاثين يومـا   لم تزل فى فمى حـلاوة طعمه
إن قلبى اصـدره ورقـادى   ملك أجفانه وروحى لجسمه
قل لأهـل الحبيـب عنى قد جا   ء إلينا برغمكم لا برغمه
يكسـر الجفـن بالفتـور ومالى   عمـل عنـد كسره غير ضمه
واعتنقنا للوجـد ثم افترقنـا   وكتاب الآثام عنـا بختمه
كم يلومـون فى هـواه وماذا   قوا هواه ولا أحاطوا بعلمه

يكفى أن كتاب الآثام ظل مغلقا طول الوجد والعناق ..

١ ـ لعلك قد لمست بعد هذا العرض لذلك الاتجاه اختلاف النغم الموسيقى الذى ينبعث من الوزن والقافية عن النغم فى الاتجاه التقليدى فالأوزان هنا فى جملتها من البحور الخفيفة الرقيقة التى تناسب خفة العاطفة الرقيقة والغزل الحقيقى الصادق .

٢ ـ ومعظم غزله فى هذا الاتجاه مقطعات ، والمقطوعة أنسب فى الغزل وأليق من القصيدة إذ أنها مجال حدّة العاطفة ، وتوهج المشاعر أكثر من القصيدة .

٣ ـ ويبعد هذا اللون من الغزل فى جملته عن المغالاة فى الصنعة ، والجرى وراء الافتنان العقلى ، والتوليدات الذهنية ، كما ظهر فى الاتجاه السابق .

٤ ـ الرقة والعذوبة والطلاوة مظهر الألفاظ ، والتجربة مظهر صدق الشعور والإحساس ويرى الدكتور الأهوانى أنه كان فى غزله يميل إلى الافتنان العقلى والإتيان بالمفارقات العقلية التى يريد أن يثير بها التعجب من التناقض الواقع بين الأشياء ويستدل على ذلك بقوله فى إحدى قصائده التى مدح بها القاضى الفاضل والتى مطلعها :

ما ثناياك لـؤلـؤ مكنـون   مثلها لم تقع عليـه العيـون

وقد جاء فيها :

يا غنيـا من عسجـد فـرق خديـه تصـدق فإنـنى مسكـين
لست أدرى إذا سمحت أخـدّ   هو أولى بقبلـتى أم جبـين
عضة لى من تحت نـون بصدغ   منك أضحت كأنها تنويـن
كيف طاف اللحاظ بستان خد   وعليـه من صـدغه زرفـين

فهذه الأبيات الأربعة يجمع بينها موضوع واحد هو ذكر الخد ، تمثل هذه القضايا العقلية التى يعرضها الشاعر فى قصائده ، فحمرة الخد صارت ذهبا ، والزكاة أو الصدقة واجبة شرعا فى الذهب ، والشاعر فقير ، وإذن فقد اكتملت مقدمات القضية وصارت النتيجة أمرا بالصدقة ، ثم هذه المفاضلة بين الخد والجبين ، وأيهما أولى بالقبلة تصدر عن حرص على إثارة القضايا العقلية دون أن يكون وراءها سند من عاطفة ، ثم انتزاع التشبيه من النحو أو من رسم الكتابة العربية ليس بينها وبين الشعور العاطفى أى سبب ، وإنما هو احتيال عقلى ، وفى البيت الأخير تكتمل الصنعة التى شغف بها ابن سناء الملك شغفا عظيما ، وهى الإتيان بالمفارقات العقلية التى يريد بها إثارة التعجب الواقع بين الأشياء المتناقضة فإن صدغ الحبيب وهى الشعرات التى تتدلى على الصدغ ثم تنثنى مرتفعة هى الزرفين أى الحلقة التى تكون على الباب ، وإذا فنحن أمام باب مغلق وراءه بستان هو الخد بجامع اللون فى الزهر والمتعة ، فكيف استطاع البصر أن يصل إلى البستان ودونه هذا القفل ، ولا محل لأن نسأل عن غزل ابن سناء وأن نناقش هل كان الشاعر محبا ، وهل تعرض للحب فكان هذا الغزل تعبيرا عن واقع عاشه الشاعر ؟

لا فائدة من التساؤل لأن الشاعر عاش بشعره فى واد وعاش حياته العاطفية فى واد آخر ، فقد كان يسعى جاهدا لمحاكاة الشعراء الآخرين . (١)

هذا ما عرضه الدكتور الأهوانى ، ومع احترامى للدكتور ودراساته التى لا شك أنه بذل فيها جهدا طيبا إلا أننى أحب أن أناقشه فى هذا الرأى : ألا يمكن أن يكون هذا التفنن فى المزاوجة بين الألفاظ واختيارها على هذا النحو دليلا على اندماج الشاعر بكليته فى التجربة النفسية وانفعاله بها ، واستيفائه كل ما يدعمها مما أدى إلى هذه الموسيقى اللفظية ، هل هذا الاستنتاج نتيجة لدراسة الدكتور لكل ما ترك الشاعر من آثار فى الغزل حتى حتى يصح تعميم هذا الحكم ؟ أم أنها فكرة طرأت ثم التمس الدليل على صحتها فطاوعته بعض النصوص .

لقد شاهدت أنه استعرض قليلا من النصوص وأعقبها بهذا الحكم القاطع العام وأن من الممكن جدا لابالنسبة لابن سناء وحده بل بالنسبة لأى شاعر آخر أن نستنبط مثل هذا الحكم من بعض المقاطع ولكنها لا تصلح أن تكون حكما عاما والآن علينا أن نعرض من النصوص ما يتنافى مع ما قدمه الدكتور فهل قرأ الدكتور ما قاله ابن سناء فى محبوبته :

فأقطع من حدّ الحسام إذا مضى	حسام لها بين المحاجر والهدب
تطلع من بدر السماء إلى أخ	وتنظر من ريم الفلاة إلى ترب
أحن لشعب نازل فيه قومها	وما قومها قومى ولا شعبها شعبى
ويلحون نفسى فى هواها وإنها	شقيقة تلك النفس ريحانة القلب
وقد نقلتنى عن طباع كثيرة	وقد قلبت قلبى وقد خلبت خلبى
تغير فتى باللحاظ عقوانا	وكم من شجاع قد أغار ولم يسب

فما رأيه فى هذا الغزل ؟ فهل يرى الدكتور فى تشبيه الشاعر ألحاظها بالحسام الفتاك جرى وراء الصناعة العقلية ؟ وماذا يقول المحب إذا نظر إلى عين محبوبته فاضطرب قلبه ، وترنح فى مكانه ولم يستطع أن يديم نظره إليها ... أليس قريبا إلى العاطفة حينئذ أن يشبه عيونها الفاتكة وألحاظها الآسرة بالحسام .

(١) راجع ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار : ٥٤ ، ٥٥

وحقيقة لقد دأب الشعراء قديمهم وحديثهم على تشبيه المحبوب بالقمر غير أن الشاعر لجأ إلى الكناية : فجعل البدر لها أخا : وجعل ريم الفلاة لها تربا ، وليس فى ذلك جهد عقلى كبير ، فهو تعبير مألوف ، غير أن القالب اللفظى جميل ومعبر وسهل لا عناء فيه .

ثم حنينه إلى شعبها ، ولهفته إليه على الرغم من أن قومها غير قومه ، وشعبها غير شعبه فليس إذا حنينه إلا من حبه الشديد لها ، ولهفته عليها ، وقد جعلها جزءا من نفسه ، وريحانة قلبه ، بل إنها استطاعت بتأثيرها فيه أن تغير طباعه ، وأن تملك قلبه وتخلب لبه . وهذا التعبير الرائع الذى كرره كثيرا لإعجابه به .

تغير فتسبى باللحاظ عقولنـــا وكم من شجاع قد أغار ولم يسب

ثم استمع إلى قوله :

قالوا محبك يا حبيب صــــبر ما عند قائل ذا الكلام خــــبر
لـــا أراد بأن يقـــول صبــــا عثر اللســـان به فقـــال صـــبر
ونعم صبوت إليه حـــين وفى ونعم صبرت عليه حين غــــدر
ولقد أتى لاصـــب عاذلــــــه فنهى ولكن الغـــرام أمـــــر
ويقول دمعك لم يـــدع بصرا أسمعت قط لعاشق ببصـــــر
بأبى وأمى من أســــر إذا قـــالوا غـــزاه غـــزاله فأســـر
يا سافكا دمعى وناهبـــــه حسبى وحسبك قد أخذت فـــذر
عانقته سحـــرا وغبت هــــوى فكأنـــه لى بالعنـــاق سحـــر

نعم نلمس فى هذا الغزل ألوانا من الحلية اللفظية كالجناس الناقص بين صبا وصبر ، وصبوت وصبرت ، وغزاه وغزاله ،والطباق بين وفى وغدر ، ونهى وأمر ، ولكن هذا الجمال اللفظى لايغض من لهفة العاطفة ، وشوق المحب خاصة إذا أدركنا أن الجناس الناقص لا يدعو إلى التأمل الفكرى ، ولا يستوجب جهدا عقليا ، وكذا الطباق فإنه من قبيل الحسن اللفظى الذى لا يخفى شيئا من سمو العاطفة إذ أن الضد أعرف بالضد ، وله أيضا قوله :

فرطت فيك بسوء تدبـــيرى فجـــرى القضاء بعكس تقـــديرى

وفيها يقول :

القلب بعـــدك غـــير مســــرور والربـــع بعـــدك غـــير معمـــور
والشمس فى عينى قد خلـــعت من بعد بعـــدك خلعـــة النـــور
والعيش بعـــدك مظـــلم حـــرج فكأنـــا هـــو قلـــب مهجـــور
والمجلس المشهـــور رونقـــه قد صـــار بعدك غـــير مشهـــور
ولقد بكيت ونحـــت من حـــزنى بغريـــب منظـــومى ومنثـــورى
وشكرت طيفـــك حين يطرقـــنى فعلمت أنى أى مغـــــرور
ضيعت منك الحـــق متضحـــا ورجعت أقنـــع منـــك بالـــزور

الشاعر لا يمكن أن يتجرد من عاطفته ويعيش بعقله فقط . نعم قد تسوقه العاطفة للتعبير عنها ويقوده العقل والتأمل إلى أن يمزج بين فكره وعاطفته مزجا جميلا ، وهو ما حدث من الشاعر ، أما أن يتجرد تجردا تاما من عاطفته ويخلعها ولا يستجيب لها فهذا ما يأباه المنطق ، وقد يكون غزله فى معظمه ماديا يميل إلى العناق والضم ويصرح بالقبل وتغريه محاسن المحبوبة الجسدية ، فيفتنه قوامها ويضل فى ليل حالك مسدل خلف ظهرها ، وبغير ذلك من المحاسن المادية الصرفة .... ولكنى مع ذلك لا أستطيع أن أجرده من العاطفة الصادقة لدى المحب بل إن فى ذلك تعبيرا صادقا عن مشاعر المحب .. فأى محب لا يتمنى أن يحظى من محبوبته بالعناق والقبل والضم ، وحتى إذا لم يتحقق ذلك له فى عالم الحقيقة فلماذا لا تدفعه عاطفته أن يحققه فى عالم الخيال إرواء لعاطفته الملتهبة ، فهذه هى نظرته إلى الحب ، ولا يمكن أن ننقض اتجاها باتجاه آخر ، كما لا يمكن أن نسلك المحبين جميعا فى قلادة واحدة ما دامت العواطف الإنسانية فيها هذا وذاك .

وليس معنى هذا أن كل شعره فى الغزل كان استجابة للعاطفة لأن كثيرا منه قد استجاب فيه الشاعر للصنعة المطلقة كما صرح هو بذلك كغزله بشائب وكمطالع قصائده فى المدح فكل ما فى ذهن الشاعر عادة يكون منصرفا إلى عظمة الممدوح ، واستجلاء المعانى التى يحاول أن يخلعها عليه .

(٣) ثالث الاتجاهات : غزل ماجن وتهتك سافر :

وقد كثر هذا اللون فى شعر هذا العصر لانتشار الشذوذ الجنسى ، حتى أصبح اللون المفضل الذى يجذب أنظار القارئين ، تهفو له أسماعهم ، وتطرب لترديده أفئدتهم ويمكن أن نرجع أسباب ذلك إلى ما يأتى :

١ – كثرة الحروب الصليبية ، شغلت الرجال عن الزواج وصرفتهم عن الاستقرار الذى يدفع إلى تكوين الأسرة ، وكان الأكراد والأتراك يمثلون العنصر الأساسى فى هذه الحروب ، وقد وجدوا فى الشذوذ الجنسى تنفيسا لغريزتهم .

٢ – كثرة وجود الغلمان من الترك والأكراد والفرنج (سبى الحروب الصليبية) وقد امتازوا بجمال مفرط مما دفع الشعراء إلى التغزل بهم .

ومع أن الغزل بالمذكر يرجع إلى عصر أبى نواس إلا أن الشعراء الذين قالوا فى هذا الباب كانوا ممن عرفوا بالخلاعة والمجون ، أما فى عصر الحروب الصليبية فقد رأينا رجالا عرفوا بالتقوى والورع يكثرون من الغزل بالمذكر ، ويفحشون فى ذلك إفحاشا كبيرا .

٣ – انتشار الزوايا والتكايا شجع الناس على البطالة ، فلم يكن لديهم من وسائل العيش ما يمكنهم من الزواج إذ أصابهم الكسل والخمول ، ورضوا بأن يعيشوا عالة على المجتمع ، فتفشى فيهم الشذوذ الجنسى حتى تعرضوا بسببه لكثير من الحملات الشديدة من كتاب كثيرين . ولم يتردد أكثر الشعراء تقوى وورعا عن الغزل فى المذكر ترويجا لشعره ، فنرى ابن الوردى نفسه يقول :

ما المرد أكبر همى ولا نهاية علمى
ولست من قوم لوط حاشا تقاى وحلمى
وإنما خرج دهرى كذا فنفقت شعرى

فهكذا كان خرج دهره ، وكانت رغبتهم واتجاهاتهم . ويقول فيما بعد :

استغفر الله من شعر تقدم لى ... فى المرد قصدى به ترويج أشعارى

وكان ابن سناء واحدا من شعراء عصره ، استهتر كما استهتروا ، ومجن كما مجنوا فتغزل بالمذكر ، وتغزل بعمياء ، وتغزل بشائب ، وتغزل برومى أعجمى .

ويبلغ فى مجونه غاية التهتك والفجور فيتحدث عن اثنين عاشر كل منهما الآخر ويصف ليلة قضاها فى بيت الخنا والفجور فيتحدث عن العملية الجنسية وعن أعضاء التذكير والتأنيث ، ومن يقرأ مجونه واستهتاره يشم رائحة العصر الذى سادت فيه المباذل وكثرت فيه الانحرافات الجنسية فمثل هذا حين يصدر من ابن سناء الملك الذى كان يحتل مركزا مرموقا يطمح إليه الكثيرون — لذو دلالة واضحة فى عدم التحرج عن قول وفعل مثل هذه الأفعال المشينة ، استمع إليه يدعو إلى عدم وصل المرد :

إن وصل المرد مردى ... وهو لا ينفق عندى
علة فى العلق والعـ ... ـاة فى الأكثر تعدى
هات من ينقض قولى ... باعتراض أو برد

ثم ينقض هو رأيه ، فيتغزل فى المرد ، ويهيم بصبى صغير القد :

وصغير القد همت به ... تم فيه الحسن فى الصغر
قد علا بدر السماء وإن ... كان دون البدر فى العمر
خده مع ماء رونقه ... مجدب من خضرة الشعر

ولا يقف عند حد الصبى ، وإنما يتغزل فى شائب :

قالوا لقد شاب الحبيب ... وشاب فيه كل عزم
وأراك تظلم فى هواه النفس ظلما أى ظلم
فقلت من شر هى عليه أذوقه فى كل طعم

ويعجب برومى فيقول :

نال فمى من ذلك الريم ... مثل اسمه لكن بترخيم
له فم ضاق فلم يستطع ... أن يخرج اللفظ بتقويم
له فم للترك يعزى وإن ... أصبح مولاه من الروم
ولفظه سكران من ريقه ... فهو لهذا غير مفهوم
ما نمه ميم ولكنه ... علامة الجزم على الميم

وتغزل فى عمياء :

إن الكمال أصاب فى محبوبتى لما أصاب بعينه عينيها
زادت حلاوتها فصرت تخالها وسنى وقد كسر الكرى جفنيها
وكذا علمت وللدبيب حلاوة فكأننى أبدا أدب عليها
ولئن عدمت السكر من ألحاظها فلقد وجدت السكر فى شفتيها

ولم يقف عند هذا الحد فقد صرح كثيرا بما يستقبح ذكره ، وديوانه ذو حظ عظيم من المجون والاستهتار فلا داعى لذكر نماذج منه ، وقد سبق فى الفصل السابق أن أشرت إلى أنه تحدث تعليقا على غزله بشائب فى «فصوص الفصول» أنه إنما عمله تدريبا لنفسه حتى يتمكن من القول فى كل غرض .

وبعد فلعلى أن أكون قد أوضحت هذا الغرض ، وبينت تفصيلا الاتجاهات الأدبية فى غزله ، ومن ثم فلا يصح أن نطلق حكما عاما شاملا ففيه حيف وجور .

٣ ـ الرثاء

الرثاء فى المنزلة الثالثة بعد المدح والغزل من ناحية الكم ؛ فقد بلغت قصائده فى الديوان ثلاثاً وعشرين قصيدة فى ثلاث وثمانين وستمائة بيت . أما من الناحية الفنية ومقدار تجويد الشاعر فيه ، وتعبيره عن واقعه النفسى ، أو واقعه الفكرى وأثر الصنعة والطبع فهذا ما يمكن أن نصل إليه بعد استعراضنا لنماذجه العديدة فى الرثاء .

وينبغى أن نشير إلى أن قصائده فى الرثاء قد وزعها بين أهله كأبيه وأمه وجده ، وبعض أقاربه من جهة ، وبين أصدقائه الذين لم تربط بينه وبينهم المطامع والأهواء كعفيف التلمسانى ، والسيد شريف أبى القاسم عبدالرحمن الحلبى ، والشريف السعيد أبى الحسن على الحسينى ، وصديقه وثاب ، وبين جاريته التى أحبها من أعماقه وبذل النفس والنفيس لإنقاذها من مخالب الموت من جهة أخرى . كما أن بعض هذه القصائد كان عزاء ومجاملة، كعزائه الأسعد بن مماتى بفقد أمه .

فرثى أمه ووالده وجده بأربع قصائد ، ورثى جماعة من أهله بقصيدتين ، ورثى جاريته ــ بثلاث قصائد ، ومما يؤسف له أشد أسف أنه نسى أو تناسى أستاذه وصاحب اليد الطولى عليه القاضى الفاضل فتنكر له ولم يرثه ، كما لم يرث صلاح الدين ، أما تنكره للقاضى الفاضل فلأنه كان يخشى نفوذ الوزير ابن شكر الذى كان شديد العداوة والحقد على القاضى الفاضل ، وكان ابن سناء يتودده ويرجو أن يتخذه معبرا لتحقيق أهدافه فلم يشأ أن يغضبه أو أن يثير حفيظته ولكن الحبر حقا أنه لم يرث صلاح الدين الذى رثاه الشعراء جميعا ، وبكوه بقصائدهم وبدموعهم ، ولذا أرجح أن تكون قصائده فى رثاء صلاح الدين وأستاذه القاضى الفاضل ــ إن كان رثاهما ــ قد فقدت وضاعت .

وتتمثل حرارة العاطفة ، وألم الفجيعة ، وشدة المصيبة ، فى رثاء أمه وان لم ينس الصنعة التى أصبحت ملازمة له فى كل شعره فقال فى قصيدته الهمزية التى مطلعها :

صح من دهرنا وفاء الحياء — فليطل منكما بكاء الوفاء

ويستجيب للخطب الداهم فينطلق على سجيته قائلا :

قد رمانى الزمان منه بخطب — أفحمت عنه ألسن الخطباء

ويستمد من امرئ القيس تلك الصورة التى يرى فيها الهموم والأحزان تجثم عليه كقافلة وتستقر فى أحشائه وتأبى ألا تتركه حتى يموت :

وأناخت ركائب الهم فى قلـ — ـبى ولم تحتشم لطول الثواء
ثم آلت ألا تفارق ربعى — وفنائى إلا عقيب فنائى
صادفت منهلا يصب من العيـ — ـن ونارا تشب فى الأحشاء

ثم يذكر فضلها فى عالم النساء ومنزلتها ، ويتيه بها فيقول :

قد تيقنت مذ غدت لى أصلا — أننى مثمر فنون العلاء
يعذر الناس من تكون له — أما إذا ما ازدهى على الآباء

ويـــرون الصـــوا ب أن تنسب الأو   لاد لا للرجال بل للنســـــــاء

وفى قصيدة أخرى يزوره طيفها فيحل عليه الهم من كل جانب ، وتقل آماله فى الدنيا ، ويود اللحاق بها فيقول :

مـــالى أنهـــنه عنـــك آمـــالى   وأصـــد عنـــك كأننى قـــالى

ثم يقول :

يا من رأيت بعين أحـــــوالى   لمـــا نـــأت إدبار إقبـــــالى
ورأيت قطعى صـــــار متصلا   مذ قطعت بالبـــين أوصـــالى
والله لو حدثت عن خـــــبرى   لعلمت أنى بعـــدك التـــــالى

ويرثى أباه فى لهفة عارمة كما رثى أمه فيقول :

أيا دار فى جنات عدن له دار   ويا جار إن الله فيها له جـــار

وهى قصيدة بلغ فيها الذروة لأنها عصارة نفس ، وذوب فؤاد ، وحرقة فى الضلوع ، تتدفق فيها عاطفة البنوة المفجوعة ، على الأبوة الحانية :

سأبكى أبى بل ألبس الدمع بعده   وإنى لذيل الدمـع فيه لجـــرار
وإن فنيت من ناظرى فيه أدمع   لما فنيت من مقولى فيه أشعار
لعلى بعد الموت ألقاه شافعـــا   إذا أثقلتنى فى القيامة أوزار

وقد بلغت هذه القصيدة تسعة وستين بيتا ، وكثير من أبياتها فرائد نفيسه .

ورثى جاريته فى اوعة وحرقة ،وكان بها صباً مفتوناً فلم يفته أن يصرح بذلك وقد دافع عنها الموت بالطب ولكن قضاء الله لا يقف أمامه طب ، ولا يؤخر زحفه دواء .

ودافعت عنك الموت بالطب جاهداً   وذا غلط هل يدفع الموت بالطب

وقد زارتها الحمى ودخلت عليها حماها كما زارت المتنبى غير أنه فلت منها ، أما هى فقضت عليها .

وحماك غاثت فى حماك وأدخلت   عليك الضنى حتى أباحتـه للنهب
وزارتك غبا كى يحب مزارها   ويا جهلها بالموت فى ذلك الغب

وأظهر لوعته وحرقته وشدة حزنه فى قوله :

وما أنا ممن شق ثوباً وأنـــه   لفعل خلى " عن تفعـــله ينـــبى
نعم كبدى والقلب منى شققـــا   عليك أسى هذا شغافى وذا خلبى
ورمت نهوضاً إذ عثرت فلم أقم   على قدمى لكن سقطت على جنبى
فيا مهجتى ذوبى ويا دمعتى اسكبى   وياكبدى شيبى ويا لوعتى شبى
ولم أبق منى العين إلا لأنهـــا   تريح ثراك الحر من منة السحب

وحين عزى الأسعد بن مماتى بأمه وكانت مسيحية لم تظهر لوعته ، ولا شدة أساه لأنه تزيا بزى الحكماء ، فكان مقلاناصحا مذكراً بالدهر وتصاريفه ، والأيام وأفاعيلها وعلل لشدة الحزن مع اختلاف الدين أن النبى عليه السلام بكي عمه ولم يكن قط علي دينه ، واستمع إلى بعض ما قاله فيها :

ما أخشن الدهـر على لينـه وأخـدع المـرء بتلوينـه
ينقل الإنسـان من عـزه أسرع ماكان إلى دونـه
ويفجـأ المـرء بتحريـكه أوثـق ما كان بتسـكينه

إلى أن يقول :

ولا تلم دمعـك فى سـكبه فإنـه وافـاك فى حينـه
فسـيد الخلق بـكى عمـه ولم يكن قط على دينـه

ومن استعراضنا مراثيه نستطيع أن نحكم أنها فى مجموعها صورة صادقة لأحاسيسه ومشاعره ، وأنه ينقل إلينا لوعة نفسه فى رثاء والده وجده وأمه ،وسخطه على الزمن وتبصيره بفعل الأيام ونوبها ، والاستسلام للمقادير والحزن التقليدى حين يكون الرثاء فى شخص آخر .

والسؤال الهام بعد معرفتنا للشخصيات التى رثاها ، واختلاف طبيعتها ومنزلتها بالنسبة لمشاعره هو : هل كان فنه متساوقاً ومنسجماً مع ما تقتضيه طبيعة الرثاء فى تلك الشخصيات ؟ وبمعنى آخر : هل كان يصدر عن نفسه وعاطفته ومشاعره أوكان التيار الفكرى هو الغالب ؟

إننا نتوقع أن يكون دافع الحزن وحده هو الذى أملى عليه رثاء أقاربه الأدنين ، وأن مشاعره وعواطفه هى نبعه الوحيد الذى استقى منه أفكاره وتعبيراته ، وأن الحزن والأسى قد انعكسا فى تجربته التى اتخذت تلك القوالب الفنية لها إطاراً .. فتحدث فى نفوسنا أثراً مشابهاً ، فنحزن كما حزن ، ونتألم كما تألم لأن الأسى يبعث الأسى ، وإذا تجاوزنا أثر الصنعة والافتنان العقلى، والتوليد الذهنى فى عزائه الأسعد بن مماتى أو غيره ، فإن ذلك لا يغض من شعره فى رثاء أقاربه الأدنين ، فلم يطغ فيه أثر العقل على أثر الشعور ، ولا فيض الذهن على نبضات القلب ولوعة الأسى والحزن .

ولنمض إلى قصائده وجهاً لوجه :

قال فى رثاء أمه فى قصيدته التى مطلعها :

صح من دهرنا وفـاة الحيـاء فليطل منكما بكاء الوفـاء

والقصيدة طويلة تبلغ تسعة وستين بيتا . وفى هذه القصيدة يضيق صدره ولا ينطلق لسانه فيقول :

أنت عنـدى أجـل من كل تأبـين ولو صـغت بالثريـا رثائى
فى ضميرى ما ليس يبرز شعرى لا ولو كنت أشـعر الشـعراء

ثم يخاطب القبر ويناجيه فيقول :

وإذا ما دعـوت قبرك شـوقاً فبحقى ألا تجيبى نـدائى
هل درى القبر ما حواه وما أخ فاه من ذلك السنى والسـناء
فلكم شف باهـر النـور منه فرأيت الإغضاء فى إغضـائى
فاحتفظ أيهـا الضريح ببـدر صرت من أجله كمثل السماء
وترفق به فإنك تسـدى منة جمـة إلى العليـاء

أنت عنـدى لما حويت من الطهـ ـر يحاكيك مسجد بقبـاء
لك حجى وهجرتى ولمن فيـ ـك ثنائى ومدحتى ودعائى

الجنة تحت أقدام الأمهات :

اذكرينى يوم القيامة يا أمـ ـم لئلا أعد فى الأشقياء
واشفعى لى فجنتى تحت أقدا مك من غير شبهة وامتراء
فقريب لا شك يأتيك عنى بقدومى عليك وفد الهناء
عجل الله راحتى من حياتى إنها فى الزمان أعظم دائى
وإذا ما الحياة كانت كمثل الدا ء كان الممات مثل الدواء

ونحس من قراءة المطلع أن الشاعر قد التزم فى روابط جمله « المنطق النحوى » فصارت راكدة مستوية الأطراف ، خلوا من الحركة ومن الاهتزاز الذى يهب الشعر جماله وحيويته فتكرار المضاف والمضاف إليه ثلاث مرات متوالية : « وفاة الحياء — بكاء الوفاء — وكاء البكاء هو الذى أحدث هذا الركود ، وتكرار « منكما » « فى قوله : « فليطل منكما » وقوله فيما بعد : « ليست العين منكما لى بعين ... » تدل على افتقاره لحسن التصرف فى تراكيبه فخرجتا كالحشو الذى يكمل به الوزن .. وهذا المنطق النحوى هو سر الركاكة والضعف فى معظم الشعر بصرف النظر عن الأخطاء اللغوية أو الصرفية أو الإعرابية وقد جاء هذا المنطق الشعراء من أن اللغة ليست سليقة لديهم ، وجاءهم من طول ما ألفوه من قراءة النثر فى العلوم الدينية واللغوية وغيرها التى كان معظمها مختصرات مركزة ذات شروح ، وقد انتقل هذا الأسلوب إلى الشعر ؛ لأن أكثر الشعراء كانوا ممن انتظموا فى سلك هذه الدراسات وتخرجوا فيها ، وهذا أسلوب يفقد الشعر الجزالة والقوة (١) .

فقصيدة ابن سناء هذه تفتقر من ناحية التركيب واللغة إلى الطرافة والمفاجأة ، على أن حيوية الأسلوب ليست بمعزل عن حيوية الأفكار والمعانى وما وراءهما من انفعال عاطفى ، فالتفاعل قائم بين الجانبين ، وقد زاد الشاعر أبياته ركوداً ومواتاً حين خذله طبعه ، وجره تقليده إلى أن ينتقى فى مطلع قصيدته هذه الصور التى استخدمها الشعراء فى الوقوف على الأطلال ، فتوجيه الخطاب فى تلك الأبيات إلى رفيقين يسألهما البكاء ، ويستحثهما عليه ، ويقرر عليها أن الوفاء منهما لا يكون إلا بهذه المشاركة — كل هذه أفكار تقليدية نقلها الشاعر من باب إلى باب آخر فأساء ولم يحسن ، لأنه أضعف من شأن عاطفة الحزن بوفاة أعز الناس عليه ، وقرنها بعاطفة البكاء على الطلل الذى داعيه فراق الرحلة لا فراق الموت (٢) .

وكأن الشاعر قد أحس بهذا الإحساس وأن العبارات والكلمات تخذله ، وتتأبى عليه فعجز عن الإبانة عما فى نفسه ، فنهض مصرحا بذلك :

أنت عندى أجل من كل تأبيـ ـن ولو صغت بالثريا رثائى
فى ضميرى ما ليس يبرز شعرى لا ولو كنت أشعر الشعراء

ولا نملك إلا أن نوافقه على هذا الاعتراف بالعجز والتصور ... وكلما مضينا فى القصيدة التمسنا أدلة جديدة

(١) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) المصدر السابق ٤٣ .

على هذا العجز . فلقد خذله طبعه وجرّه تقليده كذلك إلى أن يختار من الكلمات والعبارات ما يقلل من جو الأسى والحزن ، ولوعة الفراق ، فيردد كلمات مثل : « شوقا – والسنى والسناء – شف باهر النور منه – بدر – السماء » فكلمة « شوقا » أضعفت من معنى الحزن لأنها مما يحسن فى الشوق أو الغزل ، وكان الأنسب أن يستعمل مكانها كلمة « لوعة » أو أسى أو وجدا أو نحو ذلك ، وفى آخر البيت يقول : « فبحق ألا تجيبى ندائى » ، وهذا لا يستقيم مع أوله فكيف يطلب منها إذا دعاها ألا تجيب .. إن المرء فى هذا الموقف يتمنى المستحيل فيتمنى أن ترد عليه وألا تخيب نداءه .. وأنا أرجح أن تكون العبارة : « ألا تخيبى ندائى » بالخاء لا بالجيم وأن هذا تحريف .

والبيت الثانى فيه حشو فى كلمة « وما أخفاه » ، فقد جمع بين « حوى وأخفى » دون أن يستتبع ذلك زيادة فى المعنى . وختام البيت « بالسنى والسناء » أى بالضياء واللمعان ، وهذا مما لا يحسن فى هذا الباب ولو قصد الضياء المعنوى ، فهذه الكلمات أليق فى المدح والغزل منها فى الرثاء وكان الأنسب فى « الطهر والوفاء » وهما صفتان لازمتان للحياة الأخرى أما الأوليان فهما أليق فى المدح فى الحياة الدنيا .

وفى البيت الثالث توليد ذهنى لأنه لما ذكر السنى والسناء ، أوحى إليه ذلك بإشعاع الضوء الساطع الذى يشف من القبر . وفى آخر البيت « فرأيت الإغضاء فى إغضائى » فعن أى شىء أغضى وانصرف ؟ وما الذى استوجب إغضاءه ؟ إن أول البيت لا يستدعى آخره ، وآخره لا يتوقف على أوله ، والمجانسة بين اللفظتين باردة .

وفى البيت الرابع : « فاحتفظ أيها الضريح ببدر » فهل يليق به أن يتحدث عن جمال أمه ، وأنها كالبدر الساطع فى السماء ، إنه يداوم النقل من باب الغزل والمدح إلى باب الرثاء .

أما الأبيات الثلاثة التالية من قوله : « وترفق به فإنك تهدى .. الخ فإنها تحمل فى صدق عواطفه وأحاسيسه ، وهى جميلة رائعة غير أنه تكلف فى الإتيان بتلك الكلمة « قباء » لإتمام الوزن ، وقد أرغمته القافية على استعمال هذا اللفظ الذى لا يتصل بما قبله ، ولا يوحى به أول الكلام .

وفى تقسيم البيت الأخير من هذا المقطع شحنة عاطفية جميلة بلغ بها الذروة ، حيث مثل هدوء العاطفة المضطربة فى حناياه ، والاستسلام للقضاء والقدر ، وليس عليه ألا أن يجعل إلى هذا القبر حجه وهجرته ، ويجعل لمن فيه ثناءه ومدحه ودعاءه .

وإذا ما انتقلنا إلى المقطع الأخير وهو مكون من خمسة أبيات يجمع بينها فكرة واحدة ، وهى مناجاة أمه ، وجدنا مطلع هذه الأبيات نجوى رقيقة تنبعث من كلمة « اذكرينى يا أم » ثم جعل ذكرها منجياً له من الشقاء والهلاك وهذا تعبير يوحى بما يصادفه المرء فى حياته من شعور بالشقاء والألم إذا ما أحس أن قلب أمه غاضب عليه . وجعل شفاعته مقبولة فكما تنجى شفاعة النبى يوم القيامة أمته من النار فكذلك تكون شفاعة أمه له يوم القيامة ، وهذا يوحى بعظم منزلتها عند الله وتقواها حتى لتقبل منها الشفاعة ، وقد ضمن هذا معنى قول الرسول عليه السلام : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

وفى البيت الرابع : «عجل الله راحتى من حياتى » عاطفة الضيق واليأس بالحياة التى خلت بوفاة أمه من مصدر البهجة والسعادة ، فما فائدة بقائه بعدها .. فلذا دعا الله أن يعجل منيته ، ويقصر أجله ، وهو تعبير يحمل شحنة نفسية كلها فزع وضيق وحزن عميق .. وهذه الأبيات يصدر عنها نغمة حزينة تشبه رنة الأسى التى تنبعث من القصيدة التى رثت بها عائشة التيمورية ابنتها ...

وقد ختم الأبيات بحكمة صادقة يستوجبها المقام :

وإذا ما الحياة كانت كمثل الدا ء كان الممات مثـل الدواء

وعلى الرغم من أنها تحمل معنى عادياً مألوفاً إلا أنه فى واقعه تجربة إنسانية صادقة ما زلنا نردده حتى يومنا هذا ، ويجرى على ألسنة العامة فيقولون « حياة فلان داء وموته دواء » .

وبعد فمن دراسة هذه القصيدة نرى أن الشاعر قد حالفه التوفيق فى آخرها حين ترك نفسه تنساب على سجيتها وطبيعتها فى نداء أمه .

وقد خالفه وتأبى عليه فى أولها فاستجاب للتراكيب النحوية العقيمة ، وخلط بين مقتضيات الوقوف على الأطلال ، والبكاء على القبور ، وبين ما يقتضيه المدح والغزل من كلمات وعبارات ، وبين ما يستدعيه البكاء من كلمات ينبعث منها الأسى وجو الحزن وعلينا أن نستعرض قصيدة أخرى .

قال يرثى جده ، وكان هو مريضاً :

خانت جفونى لما لم تفض بـدم لكن وفى الجسم لما فاض بالسقم
وما بكى الطرف منى وحده ألما لكن بكاك جميع الجسم بالألم

وقد بلغت هذه القصيدة تسعة وثلاثين بيتا ، ابتدأها بهذا الحزن التقليدى الذى اعتاده الشعراء ، فقد ألفوا أن يطلبوا إلى عيونهم أن تبكى بدل الدمع دما ، غير أنه جدد فى التعبير حين عد ذلك الإباء من العين خيانة ، وأحسن التعليل لألم جسمه ومرضه ، إذ جعله وفاء لداعى الحزن والأسى ،وقد أوضح المعنى فى البيت الثانى وفرده فجعل العين تبكى ، ويبكى معها كل ثغرة من ثغرات جسمه ولكن بالألم واللوعة ، والمقابلة بين « خانت ووفى » مقابلة طبيعية .

والواقع أن الشاعر استطاع أن يغمرنا بجو الحزن من بداية القصيدة ، وأوحى إلينا بفرط المصيبة ، وهول التجربة التى عاناها ، ويؤكد ذلك حين يقص علينا أن أمه ومرضه ، لم يمنعاه — برغم شدتهما — من الخروج خلفه لتشييع جنازته ، فخرج محمولا فى إثر محمول :

خرجت خلفك محمولا كما خرجوا بجسمك الطهر محمولا على القمم

وحدثنا عن حزنه الذى ورثه إياه جده ، لأنه ابن الابن ،وابن الابن يرث شرعاً عند فقد الأب ، إلا أنه فى الحزن هنا لم يحجبه والده بل وجد نفسه أحق بالحزن وأجدر وقد بلغ به الشقاء حداً لم يألفه من قبل بينما سينعم جده بنعيم الفردوس ، ولذا ناداه مؤكداً له هذا المقر الجديد فى الجنة المزخرفة بالنور مبينا له أنه يعيش ما بقى من حياته فى ظلام الأحزان ، ويطلب منه ألا ينسى ذوى رحمه فى الجنة ، كما كان لا ينساهم فى الدنيا ، ثم يضفى عليه من الصفات ما يليق بجلال الآخرة من إخلاصه لله وانشغاله به ، وعبادته وصلاته وطهره حتى انحنى ظهره من الركوع والسجود . استمع إليه يقول :

يا حسرتى إذ رآنى راكبا لهم وما مشيت على رأسى ولا قدمى
قد حزت حزنك ميراثاً فكنت به أولى وأحرى من الأولاد كلهم
تركتنى لشقاء لست أعرفـــه وأنت من جنة الفردوس فى نعــم
يا ساكنا بين جنـات مزخرفـة بالنور إنى من الأحزان فى الظلـم ...

لم تنس فى جنة الفردوس ذكرهم	وأنت ما زلت لاتنسى ذوى الرحم
وقد حفظت عليهم عادة لهم	حاشا لمثلك ينسى عادة الكرم
لقيت ربك مشغولا برؤيته	فما التفت إلى حور ولا خدم
خمسا وتسعين تسعى فى عبادته	لم تشك من ملل فيها ولا سأم
وقد انحنى الظهر وانهدّت قوائمه	من الركوع إليه لا من الهرم

لا شك فى أن الأفكار والمعانى التى عرضها من فجيعة وأسى ، وحزن موروث ، وتنعم جده فى الجنة ، والصفات التى وصفه بها من صلته الرحم ، وانشغاله بالله ، وقضائه خمسة وتسعين عاما فى عبادته ، وانحناء ظهره من الركوع والسجود .. الخ .. هذه كلها من لوازم الرثاء ومقتضياته ، لم يشذ ولم يخرج من باب الرثاء إلى غيره من الأغراض .

وقد اهتدى بفطرته إلى الألفاظ والعبارات التى تحمل شحنة عاطفية حزينة ، وتتلاءم مع هذه المعانى والأفكار فأحسن وصفها وسبكها ، وحين نستعرض تلك الكلمات : « يا حسرتى — قد حزت حزنك — تركتنى لشقاء — إنى من الأحزان فى الظلم » ، هذه العبارات لو نثرت واستعملت فى الرثاء لم تفقد شيئا من معناها وإيحاءاتها الحزينة .

وفى وصفه يقول : « أنت لا تنسى ذوى الرحم — حاشا لمثلك ينسى الكرم لقد انشغلت برؤية ربك — عبدت ربك خمسا وتسعين سنة — انحنى الظهر من العبادة » ، فهذه الصفات من أخص مستلزمات الميت ، ولوكانت منثورة لوهبت النثر لون الوقار والأسى الذى يستدعيه الحال .

والحقيقة أن شاعرية ابن سناء هنا قاربت الكمال ؛ فطاوعته العبارات فى بناء تلك التجربة ذات الوحدة الفنية الحزينة ، وقد استطاعت أن تنقل إلينا إحساسه فى صدق.

وأما ما اشتملت عليه القصيدة من أثر الصنعة فلم يكن فيه إسراف ولا مبالغة تسىء إلى القصيدة ، وقد نقل الشاعر تجربة الموت من حدث فردى ، وإحساس ذاتى إلى تجربة إنسانية عامة ، فذكر الناس بالموت ، وخوفهم من الآخرة ، وأرشدهم إلى طريق الجنة فى حكم مستقاة من القرآن الكريم ، وتعاليم الدين :

من لم يقدم كما قدمت من عمل	فسوف يأكل كفيه من الندم
وسوف يدرى إذا ما الموت أيقظه	بأنه كان من دنياه فى حلم
لا تحسبوا كل ميت مثل ميتنا	هيهات هيهات والموتى ذوو قيم

فالبيت الأول يتضمن معنى قوله تعالى : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » والشطر الثانى منه يتضمن معنى قوله تعالى :

« ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا » .

بقى أن نشير إلى أن تعبيره بقوله : « راكبا لهم » .. يا حسرتى إذ رآنى راكباً لهم » هذه الكلمة لا توحى بمرضه وبألمه الجسمى ، إذ أنه يركب الناس وربما كان ذلك باختياره ، وأحسن منها محمولا التى ذكرها فى البيت السابق .

وفى رثاء أصدقائه يكون هادئ النفس رزيناً ، يسيطر عقله على إحساسه ؛ وتفكيره على شعوره . وتشغله أناقة اللفظ وتكلف الصنعة عن لوعة الحزن وفجيعة المصاب ؛ فلقد مات صديق له يسمى عفيف فأوحى إليه هذا الاسم باستعمال كلمات تجانسه فعاف عيشه . والعفاء على هذا العيش من بعده ..

لقد عفت عيشى بعد العفيف | على العيش بعد العفيف العفاء
فما غاب ما غاب إلا الجميل | وما مات ما مات إلا الوفاء
وإلا الصديق وإلا الصدوق | وإلا الصنى وإلا الصفاء
حبيب قريب به يلتهى | وتنسى الأحباء والأقرباء
يقرب إن بعد الأقربون | ويشكر إن ذمت الأصدقاء

فنغمة الأسف أبرز وأظهر من نغمة الأسى والحزن .

وفى رثاء جاريته تحس با للوعة والحرقة ، واستعذاب الألم :

خيالك لا يبلى وشخصك بال | ومثلى من لايلتهى بمثال
وإن كنت فى جنات عدن فربما | حزنت لبعدى لو علمت بحالى
على الرغم منى ذا السلو وإنما | على رغمها ألا تجيب سؤالى
سكونك عن رد الجواب تعمدا | لعى لسان أم لفرط دلال

وعندما يعزى الأسعد بن مماتى فى وفاة أمه يسيطر على قصيدته جو المواساة والدعوة إلى الصبر والسلوان ، ولا يعكس لنا إلا مشاعر عامة إزاء هذا المصاب ، فكأنه يقف متفرجا من بعيد ؛ ولهذا لا يحدثنا عن أحاسيسه ومشاعره ، وإنما يتحدث عن الدهر وخشونته ، وخديعة المرء به ، وانتقال الإنسان من العز إلى الذل ، ومفاجأة الدهر إلى غير ذلك فى صياغة محكمة ، وحكم صادقة ، ويكون واعظاً أكثر منه راثياً حزيناً ، استمع إليه :

ما أخشن الدهر على لينه | وأخدع المرء بتلوينه
ينقل الإنسان من عزه | أسرع ماكان إلى هونه
ويفجأ المرء بتحريكه | أوثق ماكان بتسكينه
ولا يساوى بعض تقبيحه | إلى البرايا كل تحسينه

ولا يتحدث عن حزنه هو شخصياً وإنما يرى أن الناس جميعاً قد حزنوا لفقد أمه :

وكل قلب واجد بعده | كأنه فى عقد تسعينه(١)
تعز أو قابل حفاظاً ولا | تستقبل الخطب وتهوينه
ولا تلم دمعك فى سكبه | فإنه وافاك فى حينه

ويحسن التعليل فيرى أن لا بأس بالبكاء على المتوفاة مع أنها على غير دين الإسلام لأن النبى عليه السلام بكى عمه ولم يكن على دينه :

فسيد الخلق بكى عمه | ولم يكن قط على دينه

بعد استعراض هذه النماذج المختلفة من رثائه ، والتى يتمثل فيها تعدد الاتجاهات والموضوعات ، نستطيع أن نصل إلى خصائص هذا الفن على قدر استطاعتنا .

---

(١) عقد تسعين : عقد الأنامل أن يضم الإبهام بأصل السبابة حتى لا يبقى بينهما خلال ، وقد أراد فى هذا البيت أن القلب الواحد بعده معقد غير منفتح كما يكون عقد تسعين فى عقد الأنامل .

خصائص الرثاء :

١ – يتجلى الحزن الحقيق ، والأسى العميق فى رثاء أقاربه الأدنين ، فيتجاوب فيه مع واقعه النفسى ، وإن خالفه التوفيق فى التعبير أحياناً .

٢ – وحين يرثى أصدقاءه تحس بجو الأسف والحزن الفكرى الهادئ الرزين .

٣ – كما ينبعث من العزاء جو المواساة ، والتصبر والسلوان ، وهو مخالف حتما لجو الحزن والأسى .

٤ – يختلف معجمه اللغوى باختلاف المرثى ، فنى رثاء أقربائه ألفاظ حزينة ، وعبارات باكية صادرة عن قلب باك حزين ، وفى رثاء أصدقائه ألفاظ رزينة ، وعبارات هادئة صادرة عن عقل وتأمل ، وفى رثاء جاريته ألفاظ وعبارات ملتاعة ، فيها الحرقة واستعذاب الألم ، وفى العزاء ألفاظ السلوان ، وعبارات التصبر والعظات تجاوبا مع ما توحيه المجاملة .

٥ – ينعكس على أسلوبه أثر الثقافة والقراءة ، كما تجلى فى رثاء أمه حين استبد به بكاء الأطلال والدمن فتأثر بقول الأقدمين كقول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

حيث أخذ منه مخاطبة الاثنين فقال :

صح من دهرنا وفاة الحيـــاء ... فليطل منكما بكاء الوفـــاء

كما انعكس على المعنى والأفكار فاستمد قوله :

يعـــذر الناس من تكون لهأمـــــاً ... إذا ما ازدهى على الآبــاء
ويرون الصـــواب أن تنســــب ... الأولاد لا للرجال بل للنســاء

ن قول المتنبى فى رثاء أم سيف الدولة :

ولو كان النســاء كمن فقــدنا ... لفضلت النساء على الرجال (١)

ومن قوله يرثى جدته لأمه :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد ... لكان أباك الضخم كونك لى أما (٢)

وقد بينت فيما مضى أن الثقافة النحوية والدينية قد أثرتا على شعره ، والأولى تميل به إلى الركاكة ، والثانية تميل به إلى الحكمة والعظة .

٦ – ظهور الطباق والجناس فى مراثيه بشكل ملحوظ يجعل الصنعة أحياناً ظاهرة متكلفة ، ويحول بينها وبين الصدق الفنى .

---

(١) الديوان : ٣٠٦ مطبعة هندية بالموسكى ١٩٢٣ .

(٢) الديوان : ١٣٦ مطبعة هندية بالموسكى ١٩٢٣ .

٤ ـ الهجاء

لم يعد النقاد قديمهم وحديثهم « ابن سناء الملك » من شعراء الهجاء ، وذلك لمكانته الاجتماعية من ناحية ، ولقلة أهاجيه التى اشتمل عليها الديوان من ناحية أخرى .

وحقيقة لم تزد مقطعاته وقصائده عن ثلاث وثلاثين ، ولم تصل حدود المائتين من الأبيات غير أننى أرى أنه من الهجائين ، أو أن فى مقدوره وفى استعداده الخفى ما يجعله فى عدادهم ، فلا ينقصه سلاطة اللسان وحدته ، ولا تعوزه القدرة على السخرية والاستهزاء ، كما أن له قدرة على النقد الاجتماعى اللاذع . وهو وإن لم يبلغ بأهاجيه مبلغ جرير والفرزدق ، ولا بتصويره الساخر (الكاريكاتيرى) مبلغ ابن الرومى إلا أنه جاراهما . وعلى الرغم من تفاهة المعانى فإن فيه طرافة التعبير أحياناً التى تدعو إلى قراءة الشعر وتكراره .

وقد رأى بعض النقاد أنه فى هجوه أبلغ منه فى مدحه وقد أشار إلى ذلك بقوله :

قولوا لمن قال إن هجوى ... يفوق مدحى بلا امتراء
صدقت يا مانعاً ثوابى ... منه ويا قاطعاً رجائى
كآبة الكذب فى مديحى ... ورونق الصدق فى هجائى

وقد فازت شخصية ابن عثمان بأوفى نصيب من هجائه وسخريته ومجونه ، وبأقسى ماعرف من السباب .
يقول من قصيدة مطلعها :

يامقبلاً أطربنا ... حتى رقصنا للطرب
صفعت كلباً أعورا ... هرّ وبالصفع هرب

وفيها يقول :

فياابن عثمان الخرا ... قد كسر الصقر الحرب
تقول جدى عربى ... أصله حاشا العرب
قد نزل الصفع به ... فى داره وما اغترب
تراه إذ تبصر شخصا ... سالحا قد اقترب
فبغضه من الحجا ... ولعنه من القرب

فبالطبع ليس ثمة أقبح من هذا الشتم ، ولا أقذع من هذا السباب . ويبدو أنه كان مغيظاً محنقاً منه حتى إنه تمنى ضربه بالنعال :

وكم له من وقعة ... لم تبق منه باقيه
وما عليه قط من ... صفع النعال واقيه
وهذه عاشرة ... لا تحسبوها ثانيه
لكنه جلف القذا ... ل وغليظ الحاشية

ويشتد عليه مرة أخرى معرضاً بعرضه واستهانته به :

فما يبالى عرضه بكل هجو مروى
ولا يبالى رأسه بضرب ألف دلو
نريد من يزيل عنا وجهه ويزوى

وهو رسام هزلى يذكرنا بابن الرومى فيرسم لنا صورة معبرة للحية ابن عمرو التى طالت وعرضت حتى أصبحت كمروحة الجيش :

عرضت لحية ابن عمرو كما طا لت فحلقا لها وسحقا وبعدا
إنما أصبحت كمروحة الجيـ ـش حكتها لونا وشكلا وبردا

ويستخدم حسن التعليل الذى يجيد استخدامه فى النيل من ابن عثمان الذى كان جده كذلك يسمى عليًا ، فيرى أن تسميته بأسماء الخلفاء الراشدين لا تحميه من الرجس ؛ فقد سرق أسماء الكرام ، وكثير من اليهود يسمون باسم سليمان ، ولاينجيهم ذلك من الإثم ولا يرفع قدرهم عن الذم ؟

على وعثمان أبوه وجده على قوله – حاشا عليا وعثمانا
فإن سرقوا اسما الكرام فربما رأينا يهودياً يسمى سليمانا

وهكذا نراه هجاء مراً ، يفتن فى أهاجيه ، وتطاوعه شاعريته ويستجيب له طبعه فيقول من غير تعمل ولا إجهاد . وفى هذه الأبيات دلالة واضحة على أن جده لم يكن يهوديا ويطعن فى شرف شخص يسمى الرضى ، وأنه يقود على نفسه وعلى زوجته ، ويشبهه بالتيس الذى يستعير قرنين من نعجته فيقول :

فكان يقود على نفسه فصار يقود على زوجته
وكيف يغار على عرسه فتى لا يغار على مهجته
ولا بأس بالتيس أن يستعيـ ـر قروناً على الرأس من نعجته
فأشبعنا الله من هجوه وجوعنا الله من عجته

ويهمنا أن نشير هنا إلى خصائص هذا الغرض بعد تقديم هذه النماذج .

خصائصه ومميزاته :

١ – الهجاء عند ابن سناء لون من السباب والشتم الرخيص يشبه أحياناً ما يردده السفلة وأراذل القوم فى الأزقة والحوارى .

٢ – لا يعصمه خلق ولا دين فيتناول العرض والشرف كما فعل مع الرضى الذى جعله تيساً ورماه فى عرضه وشرفه .

٣ – يبلغ مبلغ ابن الرومى فى التصوير الساخر (الكاريكاتورى) فيصف ابن عثمان وقد قصر قذاله من كثرة الضرب عليه ، وترقب الصفع المستمر :

قصروه بالصفع أو ضمروه فاعجبوا لاجتماع قصر وضمره

٤ – ويتخذ من هجائه وسيلة للنقد الاجتماعى ، فيذم بالبخل ويقول فى صديق له :

صديق يرى التوفيق فى البخل وحده | فمن ذاك يدعو نفسه بالموفــق
يود لو أن الدهر صيف مهجــر | ليلبس فيــه فرد ثوب ممـــــزق

وفى النقد الاجتماعى ينقد من يزعم أن له خدما من الجن يسعون لخدمته بينما هو جالس ، ويجلس فى مجالس الشراب ولا يشرب ، فيضايق الجماعة ويودون التخلص منه كقوله :

يا قاعداً معنــا ويـــز | عم أنه بالأنس يخـــدم
والكأس دائرة تحــى | بالتنفس والتبســـم
ويصــد عنــا أى بـأنى | تائب وكــذاك يزعــم
قــل لى فما معنى قعــو | دك عندنا ضيقت قم ، قم

٥ ــ ولعلك قد أحسست بسهولة موسيقى الوزن والقافية ، وبساطة الكلمات والعبارات ، وكثير منها نستعمله حتى يومنا هذا .

٥ ـ الوصف

لم تتجاوز أبيات الوصف فى ديوان ابن سناء الملك مائة بيت إلا قليلا ، ومع هذا فقد وصف البستان ، ووصف القصر ، والفرس ، والجلنار والسوسن ، كما وصف الجرب الذى أصابه ، ومنظرته الجميلة ، ووصف قوما سكارى ، ووصف جارية صافية السواد . ولكن ما منزلة الوصف بالنسبة لأغراض شعره ؟ وما مدى تجويده فيه ؟

يرى الدكتور محمد زغلول سلام أن الوصف وشرب الخمر يأتيان فى منزلة تالية للغزل فى شعر ابن سناء(١) . أما غيره من الأدباء الذين تعرضوا لترجمته فلم يذكروا شيئاً عن وصفه لا من قريب ولا من بعيد . وأحب قبل أن أقرر حكماً مّا بالنسبة لهذا الغرض أن أتساءل : هل كان ابن سناء وصافا حقاً ؟ وهل جاء الوصف فى الديوان غرضاً مستقلا قائماً بنفسه ، وخصه بقصائد منفردة ؟ أم أنه جاء تابعاً لمدحه تارة ولغزله تارة أخرى ؟ وهل فتن ابن سناء بالطبيعة فناجاها ، ومنحها حياة تحبنا ونحبها ، ونعطف عليها وتعطف علينا ، ونناجيها وتناجينا ؟

إن الشاعر قد يؤخذ بأحمر الطبيعة وبأبيضها ، وأصفرها وأخضرها ، ويفتن بما فيها من الزراكش والأفانين ، ثم لا يعدو بعد ذلك أن يمدح شيئاً قد يجد مثله فى ألوان الحلى وأصباغ الطنافس ونقوش الجدران ، وهو لا يعدو بذلك أن ينظر إلى دمية فاتنة يروقه منها وجه مليح وقوام ممشوق ، وحسن مفاض على الجوارح ، والأوصال ، ولكنه لا يتطلع منها إلى عطف ولا يفتش فيها عن طوية . وقد يستريح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل ، وماء نمير ، ومهاد وثير وهواء بليل ، وراحة من عناء البيت ، وضجة المدينة فلا يعدو بذلك أن يستريح إليها كما تستريح كل بنية حيّة إلى الماء والظل والهواء ، كذلك تهجع السائمة فى المروج ، وكذلك تهتف الضفدع فى الليلة القمراء.

وقد يمنح الشاعر الطبيعة حياة من عنده أو من الخرافات والأساطير فإذا هى حياة بغيضة لا تصلح للتعاطف والمناجاة ، أما الطبيعة التى تحب وتناجى ويتم التعاطف بينها وبين الشاعر فهى الطبيعة التى تبث الإغراء فى كل شىء ، فى رفرفة النسيم ، ورقرقة الغدير ، وتغريد البلابل ، وحفيف الأغصان ...

فعلى هذا النحو تتجلى الطبيعة للعبقرية التى تحبها وتمنحها الحياة ، فليست هى دمية ولا حلية ، وليست هى مروحة للهواء ، ولا مجلساً للمنادمة ، ولكنها قلب نابض ، وحياة شاملة ، ونفس تخف إليها ، وتأنس بها ، وذات تساجلها العطف وتجاذبها المودة ، ثم هى عمار لا خواء فيه ، وأسرة لا تبرح منها فى حضرة قريب يناجيك وتناجيه ، ويعاطيك الإخلاص وتعاطيه .

فهل كان ابن سناء على هذا النحو هل كان يحب الطبيعة كما أحبها ابن الرومى ؟ وهل استروح من محاسنها نفسا تصبى الناظر إليها ، وتتبرج له تبرج الأنثى تصدت للذكر كما استروح ابن الرومى وهل رأى هذه الزينة التى تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة كما قال ابن الرومى :

فهى فى زينة البغى ولكن ... هى فى عفة الحصان الرزان

وهل يشف وصفه للطبيعة عن شغف الحى بالحى ، وشوق الصاحب إلى الصاحب ، وتسمع من تشبيهه

---

(١) الأدب فى عصر صلاح الدين : ٣٦٨ .

بها رنة طرب أو شجو لا تخرج إلا من نفس منعمة بأصداء الطبيعة قد نفذت إلى طويتها ، وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور ، فهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع على الأرض « خدا أضرع » من دهشة الفراق ، وهو يحيا مع النوار حين تخضل بالدمع عيونه ، وتهبط مع الليل شجونه ، وهو يحيا مع الذباب المغرد والطير الساجع فى ساعة الغروب التى يمتزج فيها الحنان الذائب بالشوق الخفيض ، كما فعل ابن الرومى وهو ينظم ذلك كله فى أنشودة واحدة لم تدع مزيداً لفن اللون والحركة ، ولامزيداً لوحى الخيال والسليقة :

إذا رنقت شمس الأصيل ونفضت ... على الأفق الغربى ورساً مزعزعا
وودعت الدنيا لتقضى نحبها ... وشوّل باقى عمـرها فتشعشعـا
ولاحظت النـوار وهى مريضة ... وقد وضعت خدّا إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عوادّه عين مدنف ... توجع من أوصابه مـا توجعـا
وظلت عيـون النور تخضل بالندى ... كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينها صـوراً إليها روانيـا ... ويلحظن ألحاظاً من الشجو خشعا(١)

فهل كان ابن سناء مفتونا على هذا النحو بالطبيعة ... إننا نعرف أن ابن سناء قد أهدى إليه والده بستاناً جميلا ، فأسره بهاؤه ، وحسنه ، وأحس أنه جنة حقيقية وأن من يملكه لا يشك فى أنه خالد مخلد ، حتى إن آدم لو حل فيه بعد أن أخرج من جنته لم يحزن ولم يصبه كمد ، بل لو طمع الكافر أن ينال مثله يوم القيامة لآمن وامتلأ قلبه حبا للإيمان ، وفى وسطها نهر جميل يحكى ساعة الأصيل ونسيمه الرقيق سحالة العسجد (أى ما يتساقط من الذهب إذا برد) وزهرها فوق الأشجار كأنه قلائد فى جياد حسناوات جميلات ، وما أروع ذلك النغم الشجى الذى ينبعث من أطيارها التى تذكرنا بصوت «معبد». فما أروع تلك الجنة التى طابت إقامتى فيها ، فما مثلها فى الخلد من مقعد أقامه الحسن فلا يضاهيه ولا يحاكيه مقعد آخر ، ولقد اعترف الشاعر بعجزه عن وصفه مع أن خاطره لم يعتد العجز ، استمع إلى هذه المعانى يرددها ابن سناء فى هذه الأبيات التى جاءت جزءاً من قصيدته فى مدح والده القاضى الرشيد :

جنـة ملك حـين ملكتهـا ... شككت فى أنى لم أخـلد
لو حلهـا آدم مـن بعـد ما ... أخرج لم يحزن ولم يـكمد
أو طمـع الكافـر فى مثلهـا ... فى الحشر لم يكفر ولم يجحـد
يحكى أصيـل الجـو فى نهـرها ... سحالة العسجد فى المـبرد (٢)
وزهـرها يحكـى بأشجـارها ... قلائـد تعـلو على خـرد
فكم عـلى الأغصـان من منشـد ... بل كم على الأغصان من معبد
لا سيما مذرمتهـا مقعـدا ... ما مثلها فى الخلـد من مقعـد
أقامـه الحسـن فمـا مقعـد ... إلا إذا جـاراه كالمقعـد
وصفى له عجـزى عـن وصفـه ... وخاطـرى للعجـز لم يعتـد

حقا إن هذا التصوير فيه اللون والحركة والخيال ، وان كان ينزع فى معانيها إلى ثقافته الدينية فربط بينها

---

(١) ابن الرومى : حياته من شعره : ٢٩١ للعقاد .

(٢) السحالة بالضم : ما سقط من الذهب والفضة إذا برد .

وبين الجنة ، وجعلها جنة الخلد ، وتمادى بذكر آدم . وطمع الكافر فى مثلها وقد شغله هذا عن الاندماج فى حسنها وبهائها اندماجاً تاماً حتى يتم له التجاوب الشعورى لا التجاوب الفكرى وحتى ينصرف قليلا عن التوليد العقلى والمجاهدة الذهنية — على رأى الدكتور الأهوانى — (١) فالذى يطلب من الشاعر هو الأصالة فى الفن ونعنى بها عمق الإحساس من ناحية ، واستقلاله وتميزه فى التعبير عن هذا العمق من ناحية أخرى . ولقد كان ابن سناء — كغيره من شعراء العصر الأيوبى — يتصورون أن الابتكار فى الشعر هو أن يأتى بفكرة أو بمعنى أو بتشبيه لم يسبق إليه ، وتحس ذلك فى هذا الوصف لساعة الأصيل حين يدفع الهواء الرقيق موجات النهر ، ويبدو الهواء الرقيق فى الجو مشبعا ومبللا بقطرات الماء والشمس ساعة الأصيل تميل إلى الحمرة ، وترسل أشعتها من خلال تلك النسمات المبلله بقطرات الماء فلا نجد صورة إلا ما يتساقط من الذهب إذا برد وسقط على الثوب المزركش فالجهد الذهنى واضح فى ذلك التشبيه المركب.

ولكنه ينسجم مع الطبيعة ويتجاوب مع نفسه تجاوباً تاما فى هذا المقطع عن بستانه حين هاج الذكريات فراح يقبل الطلّ ؛ ويلثم الزهر ؛ وكأنه ينال ذلك من لمى المحبوب وثغره ؛حتى كان أصحابه بين لائم وعاذر استمع إليه يقول :

جلست ببستان الجليس وداره   فهيج لى مما تناسيته ذكـــرا
أقبــل ذاك الطــل أحســبه اللمى   وألثم ذاك الزهــر أحســبه الثغرا
وكم لائم لى فى الذى قد فعلته   وكم قائل دعه لعل له عــذرا

فالشاعر هنا ينقل إلينا صورة تنبض بالإحساس العميق ، وتفيض بالمشاعر الصادقة ، وفى تصوير الجلنار (أى زهر الرمان) وقد تمايلت بها الغصون ، يراها كالشراريب الخضراء ، والزهر فى أطرافها كبائس (٢) فيقول

وجلنــــار على غصــــون   وكل غصــن بهـن مائس
يحكى الشراريب وهى خضر   وهــو بأطــرافها كبائــس

ويصف قوماً سكارى فيقول :

وندامى فصحــاء شــربوا   إذ غدت ألسنتهم منخــرسة
لبســوا أثواب سكر وكــرى   وانطــووا طى ثيــاب دنســة

فالتصوير هنا — على الرغم من طرافته وجدته — حيث جعل السكر يعقد ألسنتهم فيصبحون بعد الفصاحة خرساً ، ثم تلعب الخمر برءوسهم وعيونهم ، فيلبسون أثواب السكر التى تفقدهم كل إحساس ، وينطوون طى الثياب الدنسة — وهى صورة موحية لأن الثوب الدنس يلف بإهمال وبغير عناية ولا نظام فكذلك كان حالهم ، لأنهم لا يصدرون عن عقل واع مدرك فقد فقدوا مشاعرهم — أقول : فى هذا التصوير إجهاد ذهنى واضح .

وقد وصف الجرب الذى أصابه وصفاً غريباً أبرزه فى صورة حسنة إذ جعله كاللؤلؤ الرطب النفيس ، والفرق بينه وبين لؤلؤ البحر أن هذا رطب وذاك يابس فقال :

اللــؤلــؤ الرطــب حــب   فى راحــتى نفائـــس
فلـــؤلـــؤ الحــب رطــب   ولــؤلــؤ البحــر يابــس

---

(١) ابن سناء ومشكلة العقم : ٧٦ .

(٢) الكبائس : جمع كباسة بالكسر وهى العذق الكبير ، والكبيس : ضرب من التمر ص ٢٤٥ القاموس المحيط ج ١ .

ويعلل تعليلا حسنا لمرضه بالجرب فيقول :

اعلوّى جربت لا لانخفاضى جربى رفعة وان كان داء
جربت مثلى السماء وناهيك علوّا أن أشبهتنى السماء
ولذا أجمع الرواة وما خو لف فيها أن اسمها الجرباء

وقد وصف شعراء كثيرون من قبله الفرس وأجادوا ، أما الإجادة عنده فهى أن يأتى بجديد فى الوصف معنى أو لفظا فلنستمع إلى هذا الوصف :

وأشقر ما زلت من جريه أطوى به البيد كطى الكتاب
كأنما أرجله فى الفلا أنامل تسرع لقط الحساب
يجرى فلا أعلم عجبا به أمارد أبصره أم شهاب
كم غصة للبرق من أجله فليت شعرى كيف حال السحاب
أثاره عقد نهود الربا ونقعه طحلب بحر السراب

الصورة الأولى وهى تشبيه السرعة بطى الكتاب ليست غريبة ولا جديدة ، وقد عبر عنها القرآن الكريم واستغلها الشعراء كثيراً — وتشبيه أرجله فى الفلا بالأنامل التى تتحرك بسرعة للقط الحساب — صورة فيها الحركة وطرافة التشبيه إذ أن اليد تتحرك بسرعة مذهلة عند عد الجنيهات كما تتجلى هذه الصورة بوضوح فى صرافى البنوك . غير أن عبارة «عجبا به» أضعفت المعنى كذلك ؛ إذ يحتمل أن إعجابه به هو الذى دفعه إلى هذا التصور فتصوره مارداً أو شهاباً من شدة الإعجاب فقط ، وليس هو كذلك فى نظر الآخرين . ولو أنه جعل الإعجاب به مترتباً على تلك الصورة لكان أروع . والجهد العقلى واضح فى البيت الأخير حيث جعل آثار أقدامه على الأرض حبات فى عقد تتحلى به الربا ، كما جعل ما يتصبب من عرقه طحلب بحر السراب . فهى صورة ذهنية بعيدة وإن كانت جديدة فريدة .

وبعد فهل نستطيع بعد ذلك أن نصل إلى حكم صحيح بالنسبة لهذا الغرض ومنزلته بالنسبة لشعره ؟

الواقع أن الوصف لم ينل من ابن سناء عناية خاصة ، فكثيراً ما جاء الوصف تابعا لغرض أساسى كالمدح أو الغزل أو الرثاء .

لم تكن الطبيعة فى مصر آنذاك متعددة فاتنة فإنها تتخذ شكلا واحداً مستوياً أما الطبيعة فى الشام فتعدد فيها المناظر فمن مرتفعات إلى منخفضات ، إلى رياض وبساتين ، إلى جبال خضراء وأخرى جرداء فلذا كان شعراء الشام أبرع فى الوصف من شعراء مصر .

وما ورد فى شعره خاصاً بالوصف كله مقطعات لا تتجاوز السبعة الأبيات على الرغم من أن ما خص به الطبيعة من وصف لا يسمح بدخوله بين الشعراء الوصافين للطبيعة إلا أنه يدل من جهة أخرى على الاستعداد الكامن القوى لهذا الغرض .

وواضح ميله إلى الافتنان العقلى ، والابتكار فى الصور والتشبيهات ، وحينما يتجاوب مع نفسه ومشاعره — وهو نادر قليل — يصل غاية الإعجاب ؛ إذ أنه ينقل فى نفوسنا أثراً مشابهاً .

أما قدرته على النحت والسبك : فله القدرة الفائقة على الافتنان فى اختيار الألفاظ وسبك العبارات كما ظهر ذلك من العرض السابق .

وبهذا نكون قد أوضحنا خصائص هذا الغرض ، ونكون قد أوضحنا مكانته بالنسبة لشعره وهو تال للهجاء كما وضعناه هنا .

أما ما بقى من أغراض شعره كالفخر والحكمة والزهد والاعتذار والشكوى فلا يستأهل كل منها أن نقف عنده طويلا لأنها لم تحظ من الشاعر بأهمية تذكر — ولذا سنشير إليه إشارة سريعة .

٦ - الفخـــر

ليس في الفخر سوى قصيدتين. أولاهما عاتب فيها الدهر لأنه يحاول صده عن مطلبه ، ويصطنع له العقبـات ، ثم يفتخر بآبائه ، وبانتسابه إلى والده الرشيد الذى به فاق الأنام لعلو منصبه ونصابه ، حتى إنه يستطيع بفضل ذلك النسب أن يتخذ من النجوم له نعلا ، ومن الهلال مركباً - يجرى به في نهر المجرة ، فيقول :

أيدفعني الدهــر عــن مطلـبي	ويكثر من لومــه المطـــل بي
ولم يدر أني كثـــير الإبـــاء	وأن الرشـيد المـرجى أبي
وأني به قد فخـرت الأنـام	بفضـل النصـاب مع المنصـب
وأني لــو شئــت مــن سعــده	لأنعلــت رجــليّ بالكــوكــب
ولــو شئــت كان لـــديّ الهلا	ل بنهــر المجــرة كالمــــركب

وهكذا يتسم فخره بالمبالغة الشديدة ، والغلو الزائد . وفى القصيدة الثانية لا يرهب فيها الدهر مهما ناصبه العداء ، بل ولا يخاف الموت الزؤام إذا عدا عليه ، بل إن الدهر لو حاول أن يمد له يداً لينال منه ارد اعتداءه باعتداء مثله ، وعزمه المتوقد يحيل الماء البارد جمراً ملتهباً ، وحلمه البالغ يفل حد السيف . ويحتقر الناس احتقاراً شديداً لأن من لم يتحلّ بمثل صفاته وسؤدده فلا قيمة له . وإن اباءه الشديد ليأبى إلا أن يراه متربعا فوق هامة الناس ، وأنه يفضل الظمأ الشديد إذا أبدى له الماء الذى يشربه منة أو فخراً ، ولو رأى أن إدراك الهدى ورضى الله لا يأتى إلا بالتذلل ، لا بتعد عن طريقـــه .. ثم يرى الزمان عبداً له ، وأنه له سيد على الرغم منه وهى قصيدة مشهورة :

سواى يخاف الدهر أو يرهب الردى	وغيرى يهوى أن يكون مخلــدا
ولكنني لا أرهب الدهر إن ســطا	ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا
ولو مد نحوى حادث الدهر طرفه	لحدثت نفسى أن أمد اه يدا
توقد عزمى يترك المــاء جمـــرة	وحلية حلمى تترك السيف مبردا
وفرط احتقارى للأنام لأنـــنى	أرى كل عار من خلا سؤددى سدى
وأظمأ إن أبدى لى الماء منـــة	ولو كان لى نهر المجرة موردا
ولو كان إدراك الهدى بتذلل	رأيت الهدى ألا أميل إلى الهـــدى
وإناك عبدى يا زمان وإنـــنى	على الكره منى أن أرى لك سيدا

وقد بلغت هذه القصيدة ثلاثة وأربعين بيتاً وهى أشهر قصائده على الإطلاق ، ولسهولة ألفاظها ، وبعده عن التوعر كانت من بين المختارات من شعره ، ومن شعر العصر الأيوبى لتلاميذ المدارس ، وقلما خلا منها كتاب يختار من شعر ابن سناء . وأفكارها ومعانيها أشبه بأفكار الشباب وغرورهم ، وما لديهم من طموح كاذب ، ولهذا نرجح أنه نظمها فى سن شبابه قبل أن يجابه حقيقة الحياة التى جعلته يتذال ويتودد إلى الملوك والرؤساء .

٧ - الزهـــد

ليس ابن سناء من شعراء الزهد والتصوف على الرغم من أن الحياة المصرية فى ذلك العصر كانت تدعو إلى شىء من الاستسلام للمقادير والاتجاه إلى الله والزهد فى الدنيا ، وذلك لأن الاضطرابات التى حلت بمصر بسبب الحروب الصليبية والحروب التى كانت بين سلاطين آل أيوب بعضهم مع بعض جعلت المصريين – وقد ألمّت بهم المحن والمصائب – يتطلعون إلى لون من ألوان الحياة الروحية عساها تخفف عنهم هذه الآلام والمحن التى حاقت بهم من كل جانب . (١) وقد نبغ فى الزهد والتصوف شاعران عظيان هما : ابن الفارض ومحيى الدين ابن عربى اللذان رفعا علم التصوف فاهتدى به المتصوفون من بعدهما .

أما ما تحدث فيه ابن سناء وأمثاله كابن عنين ، والعماد الأصفهانى ، وأسامة بن منقذ فلا يعدو أن يكون تبرماً بالدنيا ، أو سخطاً من تصرف الأحداث ، أو شكوى من الدهر ، أو استسلاماً للقضاء والقدر حين يعجزون عن تحقيق أهدافهم والحصول على مآربهم ومن ذلك قصيدة لابن سناء مطلعها :

عـــز إلـــه العـــالم وذل ابـــــن آدم

ينعى على الناس سخطهم على القضاء والقدر ، وتفسيرهم كل شىء بالعقل والعقل قاصر عن الحكم وأن التسليم بالقضاء والقدر والرضا بهما هو طريق السلام والنجاة ويسخر من مدعى العلم الذين يقولون بقدم الزمان ، مع أن فعلهم يحمل دليل البطلان .. وهى إشارات سريعة لبعض معتقدات الفرق الصوفية ... استمع إليه يقول بعد البيت الأول :

يخـــاصمـــون ربهـــم والـــــرب لا يخـــاصم
وحـــاكمـــوه للنهـــى وعنـــــده نحـــاكم
وقـــائل لم كـــان ذا وقـــائل لم لا ولـــم
قـــد سلمـــوا لـــو سلموا وقـــد نجـــا مـــن ســـالم
ومـــدّع بـــــأنـــه فى العـــــلم لا يقاوم
رأى الـــزمـــان حادثـــاً فقـــــال قـــد تقـــادم
ومـــا درى بأنــــه افعلــــه قـــد صـــادم

وفى قصيدة أخرى يرجع فيها إلى ربه ، ويثوب إلى رشده ، فيخاف الله ويختار طاعته ويعاف الدنيا ، ويذكر غرورها وباطلها ، وأوطاره التى قضاها بها ، وأن جنة الدنيا فانية وجنة الآخرة باقية . وهى قصيدة رقيقة تجاوب فيها مع تجربته الحقيقية ، ومشاعره النفسية لذا تحس بأسرها للنفس والقلب ، ولو كان له غيرها فى قوتها وما تحمل من صدق التجربة لكان من شعراء الزهد دون منازع ولصح أن نسلكه فى ميدان شعراء الزهد الكبار من أمثال أبى العتاهية .. استمع إلى هذه القصيدة وما فيها من حسن جرس ، ونغم هادئ رزين :

---

(١) دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى : ٦٥ .

قد كان ما كان من جهلى وطغيانى وجاء ما جاء من نسكى وإيمانى
وسُر من بعد غم النفس بى ملكى واغتم بعد سرور النفس شيطانى
فما المعمم بعد النسك من أربى ولا المقنع بعد الزهد من شانى
نسيت إلفاً بخيلا ليس يذكرنى بذكر رب كريم ليس ينسانى
وخفت عصيان من لو شاء أهلكنى واخترت طاعة من لو شاء أنشانى
وعفت دنيا تسمى من دناءتها دنيا والا فما مكروهها الدانى

ويبدو أنه قال هذه القصيدة وهو فى سن الثلاثين لقوله :

لا ترغبى يا ابنة العشرين فى صلتى إن الثلاثين هدت ثلث أركانى

ويبدى انصرافه عن الدنيا ، ويتحدث عن وحشة القبر ، وأنه الدار الباقية ، ويسعى إلى توسعته بالأعمال الصالحة :

إليك عنى يا دنيا إليك فلى فى وصل مثلك شأن المبغض الشانى
فى وحشة القبر والدود المقيم به شغل لنفسى عن دارى وبستانى
أقول دارى وجيرانى مغالطة والقبر دارى والأموات جيرانى
سأوسع القبر بالأعمال أصلحها جهدى وألبس زهدى قبل أكفانى

وفى مقطوعة أخرى يتحدث عن كرهه الدنيا ، ورغبته فى الانصراف عنها لخسة الشركاء فيها :

أصبحت للدنيا الدنية كارها لا أشتهيها
وعققت منها طائعا أمى فما أنا من بنيها
ووهبتها منى لبا نع نفسه كى يشتريها
ورفضتها لغرورها ولخسة الشركاء فيها

ويقول فى الدنيا والآخرة :

أحسنت الدنيا التى استرجعت منى تلك الحالة الفاخرة
ما شغلت بالى بتقبيحها بل فرغت قلبى إلى الآخرة

وبقية شعره فى الزهد مقطعات لا تتجاوز خمسة الأبيات يتحدث فيها تارة عن الموت وطهارته للنفس ، أو عن الدنيا ودناءتها ، أو عن الآخرة وتفريغ قلبه لها ، أو عن الزمان وعدم وفائه . وهى خطرات تفد إلى نفسه عندما تتشبع من الباطل ، وتحن إلى الصفاء ، وربما يدفعه إلى هذه النفثات مواقف مؤلمة من الحياة فيعبر تعبيراً صادقاً عن مشاعره وأحاسيسه ، فلم تتجاوز أبياته التى كتبها فيه مائة بيت إلا قليلا ، وربما كان انصرافه إلى الزهد والرغبة عن الدنيا ومباهجها إثر موت صديق أو عزيز أوقريب مما يدفع إلى التفكير والتأمل فى الآخرة وفى باطل الدنيا ، وفى بعض قصائده تحس أنها كانت فى أخريات حياته حين يشعر المرء بقرب اللقاء ، فيستعد بالصفاء وغسل النفس من الرجس والدنس .

٨ - الاعتـــذار والاستعطاف

ويلى الزهد فى الديوان ما اشتمل عليه من بعض القصائد والمقطعات فى الاعتذار والاستعطاف . وعلى الرغم من أنه كتب قصيدة طويلة إلى القاضى الفاضل حين غادره وهو مريض فى دمشق والتى مطلعها :

تذكرت أيام الصبابـــة والصبـــا ... وعيشاً مليحـــاً بالمليحـــة معجبـــا

وقد بلغت هذه القصيدة واحداً وخمسين بيتا ، إلا أن طابع المدح يغلب عليها . أما ما ورد فى الاعتذار والاستعطاف فقليل نادر ، وأغلبه مقطعات ، ويرق فيه غاية الرقة ويبتعد عن الإغراق فى الصنعة ، ويترك نفسه على سجيتها كاعتذاره لمن عتب عليه فى ترك القيام له فقال :

أماناً فإنى من عتابك خائـــف ... وعفواً فإنى بالجناية عـــارف
على أن لى عذراً فإن كنت منصفا ... فكن قابلا أولا فإنك حائف
وما كان شغلى عنك إلا لأنـــنى ... بفكرى على تحبير شكرك عاكف
وإن كان جسمى عند لقياك قاعداً ... فإن فؤادى قبل لقياك واقـــف

وهكذا نلاحظ رقة اللفظ ، وخفة الوزن ، وهدوء النغم ، وبساطة الفكرة ويزداد رقة وطلاوة حين يستعطف ، فيتخير وزناً سهلا قصيراً ، ومعانى مبسطة ، وألفاظاً تساعده بموسيقاها على تحقيق هدفه :

أنا غرس بيتك إن أرد ... ت فأظمــه أو شئت فاسقــه
وكـذا بصـــدك إن أرد ... ت فأفنــه أو شئـــت أبقـــه
وكـــذاك نعمــــه إذا ... أبقيته أولا فأشقــــــــه
رقّيتـــــــه وحططتــــه ... هـــونا فليتـــك لم ترقّـــــه
ووفيتـــــه لكـــن رضـــا ... ك فليت أنك لم توفــــه

ويمضى على هذا النحو ، وإن غلب على أبياته هنا اصطناع الطباق والمقابلة لكنهما يأتيان هنا دون مبالغة ولا تكلف ، ويضفى عليهما حسن النغم جمالا وروعة .

٩ ـ الحكمة

ولم ترد الحكمة فى شعر ابن سناء الملك غرضاً مستقلا ، وإنما وردت فى تضاعيف شعره ولم يجد دافعاً يدفعه إلى الغرام بها حتى ينحو منحى «صالح بن عبد القدوس» الذى خص بعض قصائده بالحكمة، وأفردها بها . أما ابن سناء فحاول أن يجارى المتنبى ويستمد حكمته من تجاربه ومواقف الحياة . فالحكمة ليست إلا موقفاً من من الحياة ينطوى على شحنة عاطفية ، نعم إنها تجارب يتلقاها الشاعر من الحياة ومن الأحياء مباشرة ، لا من الكتب والثقافات ، والحكمة مثلها كمثل الأمثال العامية تحمل من الطاقة العاطفية ما يجعلها شيئاً آخر غير التفكير الفلسفى ،والقضايا العقلية والمنطقية ، وابن سناء الملك حين يقول فى قصيدته التى رثى فيها جده :

وجنة الخلد بالأعمال تدخلها ... لا بالحظوظ – كما قالوا – ولا القسم

كم قام غيرك للدنيا وقد قعدت ... عنه وقامت لك الدنيا ولم تقـم

قد عبر فى هذين البيتين عن شعور صادق ، وإن بدا فى ظاهره التناقض ، لأن الصدق والكذب فى مثل هذه الأمور لا يخضع لمبادئ عقلية ، وإنما يرجع إلى حالات النفس ومشاعرها ، واختلاف مواقفها من الحياة ، فقوله :

ومن صفت منه عين فى الفؤاد رأى ... خطه الله فوق اللوح بالقلم

مستمد من مشاعر التصوف ، وهى مشاعر تمتزج فيها العاطفة بالخيال ، وبالنظريات الفلسفية ، ولا تقف عند حدود النظرة الفلسفية وحدها ، وقد اقتبس ابن سناء الملك بعض معانى المتصوفة فى شعره .

وكان المتنبى وأبو العلاء من الشعراء الذين ضربوا بسهم وافر فى الحكمة ، أما ابن سناء فحظه من الحكمة قليل ، وإنه وإن تعمق فى جزئيات المعانى تعمقاً عقليا يستوحيه من التلاعب اللفظى ، ومن منافسة غيره من الشعراء فليس على شىء من العمق فى تأمل الحياة ، والتدبر فى الأحياء ، وقل أن يتجه إلى استبطان نفسه أو مراقبة عواطفه ، (١) واستخلاص العبر مما يمر تحت بصره وسمعه .

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر : ١٤٨ .

الفصل الثالث

الدراسة الفنية لشعر ابن سناء الملك

الألفاظ والأساليب واختلافها بالنسبة لأغراض شعره :

لما كان الشعر تعبيراً عن العاطفة والوجدان كان ضرورياً أن تتضمن ألفاظه وعباراته ما يجيش فى نفس الشاعر من عواطف وانفعالات . والشاعر المفتن هو الذى يستطيع أن يدرك ما فى الألفاظ من قوة وما فى ثناياها من معان ، فلا يفسرها بالعقل وحده ولكن بالقلب والخيال ، لأن لها صدى فى نفسه ، وذكريات تعود إلى خاطره فيذكر كل ذلك عندما يؤثر هذا اللفظ ، ويعيد إلى نفسه من الصور التى يوحى بها ما يمكن أن يؤلف به قصيدة كاملة . والذى يعين ألفاظ الشعر ويجعلها محمودة فيه هو نظرة الشاعر إليها ، وتفسيره لها ، وتخيله لإيحاءاتها ، وما تخلقه فى نفسه ، ثم انتفاعه بذلك كله ومقدرته على أن يضمن اللفظ عواطفه وخياله ووجدانه وشعوره ، فيصل هذا اللفظ إلى القارئ أو السامع محملا بكثير مما أراده الشاعر ، ويثير فى نفس القارئ معانى وانفعالات أكثر مما له عند عامة الناس . (١)

وقد عنى علماء البلاغة العربية بالحديث عن ألفاظ الشعر ومعانيه ، والتفرقة بينهما ففرق قدامة المتوفى سنة ٣٣٧ هـ فى كتابه نقد الشعر بين المعنى واللفظ ، ورأى أن الشعر صناعة ؛ المعنى فيه هو المادة ، واللفظ والصياغة هما المظهر ، فالشعر عنده : كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فاللفظ والوزن والقافية هى الشكل أو الصورة ، والمعانى هى المادة أو الموضوع . (٢) وعمل الشاعر عنده كعمل الصانع ، ولا يبعد أن يكون هذا الرأى مقتبساًمن أرسطو (٣)ولم يخالف ذلك النقاد الآخرون الذين جاءوا بعده حتى عصر ابن خلدون(٤) وإن أوضح أبو هلال العسكرى : أن القيمة كلها للفظ أو للصياغة لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى ، والقروى والبدوى ، وإنما الشأن كله فى جودة اللفظ وصفائه .

وقد عرض الدكتور عبد العزيز الأهوانى رأى «كولنجوود» فى كتابه «أصول الفن» ، وخلاصته أنه يرى أن الفن الخالص هو التعبير عن انفعال الشاعر لنفسه لا لغيره أى بحيث لا يقصد إثارة المشاعر أو تحريك

---

(١) فى الأدب المقارن للمرحوم الأستاذ عبد الرزاق حميدة : ١٩٥ .

(٢) نقد الشعر : تحقيق محمد عيسى منون : ١٣ ، ١٤ .

(٣) راجع بلاغة أرسطو بين العرب واليونان للدكتور ابراهيم سلامة : ١٤٦ .

(٤) راجع الصناعتين لأبى هلال العسكرى :٤٢ .

العواطف عند غيره من الناس . (١) وقد ناقش الدكتور الأهوانى رأى «كولنجوود» وبين أن الأخذ به يسقط معظم الشعر العربى بل العالمى ويعتبره دخيلا على الفن .

وبعد فما المقياس الذى سننظر به إلى دراسة الألفاظ والأساليب عند ابن سناء الملك ... الواقع أننا لانستطيع التفرقة بين اللفظ والمعنى ، لأن المعنى إذا نضج فى الذهن واتقد فى الخاطر ، وملأ الإحساس سقط على اللفظ الذى يناسبه فمثله حينئذ كالثمرة على الشجرة إذا نضجت سقطت ، فكذلك المعنى فإذا عبر الشاعر عن معنى قوى وانفعل به ، وملأ عليه قلبه وإحساسه عبر عنه بألفاظ قوية ضخمة لها موسيقى صاخبة عالية تملأ النفس بالقوة ، وتثير المشاعر والأحاسيس بوقعها ، وصخبها .. وإذا عبر عن معنى رقيق كالغزل أو وصف الطبيعة واتته ألفاظ رقيقة ناعمة ، تنبعث منها موسيقى ناعمة هادئة . فإذا مدح صلاح الدين ، وتحدث عن جهاده قال :

يشـن علينـا غـارة بعد غـارة فقد أصبحت من شن غاراته شنا

فالكلمات «يشن – غارة – شن – شنا» من الكلمات القوية بطبعها من ناحية لأن الحروف والمقاطع من الحروف القوية كالشين والنون والغين ، وبالضغط عليها ، وبتكرار ألفاظها من جهة أخرى ، وهذا الضغط والتكرار يعطيان موسيقى قوية ضخمة صاخبة تناسب معنى الحرب والغارة وشدة مقاومة الأعداء والانتصار عليهم ... ولكن هل هذا يكفى فى نجاح الشاعر؟، وهل هذه الألفاظ تحمل شحنة نفسية وعاطفية مماثلة ؟... الواقع أننا نحس بجهد صناعى بذله الشاعر ليصل إلى الجناس بشن الغارة ، وكلمة شنا التى ختم بها البيت إذ أن معنى الكلمة الأخيرة «القربة الخلق الصغيرة» كما ورد فى القاموس وليس ثمة رابطة فكرية بين المقدمة والنتيجة ، فلم تجر العادة أن يقال : «لقد ترك بلاد الأعداء بعد غاراته عليها قربة خلقاً صغيرة ، وإنما يقال : «تركها قاعاً صفصفاً» مثلا أو تركها خاوية على عروشها ... أو نحو هذه المعانى القوية التى وردت فى القرآن .. ثم يقول من نفس القصيدة :

ولما رأوه أدبروا حين عاينوا أعنة خيل لا تعود ولا تثنى
وقد وقفوا لكن لأسر رقابهـم وقطف رءوس منهم آن أن تجنى
ثبتّ لهم والسيف قد كره الطلى وجالدتهـم والقرن قد سئم القرنا
بضرب يذيب الشمس فى الأفق حره ويحرق ما بين القلوب من الشحنا

وهذه الأبيات ينبعث منها موسيقى حربية صاخبة ، فطبول الحرب تدوى ، وحركات الفرار والإقبال ، ووقع حوافر الخيل ، وجز الرءوس بالسيوف ، وصورة المجالدة والسيوف الملطخة بالدم ، والضرب الذى يذيب حره الشمس ، ويحرق ما بين القلوب ... تمثل لوحة معبرة عن اشتداد المعركة ، وقد أجاد الشاعر اختيار الألفاظ إجادة جعلته يقف ندا لند مع المتنبى فى سيفياته ، وإن أحسسنا بالتناقض بين البيت الأول والثانى ؛ ففى البيت الأول أدبروا حين رأوا خيل صلاح الدين لا تعود ولا تثنى ، وفى البيت الثانى وقفوا ... وهو تناقض ظاهرى فقط إذ أن الإدبار يصح أن يكون للمجموع لا للجميع على أن من وقف منهم قد أسر أو قطعت رأسه . والتعبير بكلمة «قطف الرءوس» يجعل الرءوس مشتهاة إذ وضعها مكان الشىء الذى يقطف ويجنى ولو استعمل مكانها كلمة «وجز رءوس» لكان أنسب وأقوى فى الدلالة على المعنى .

(١) ابن سناء ومشكلة العقم : ٥٩ .

غير أن الأبيات فى مجموعها تحمل شحنةعاطفية عالية نجد صداها فى نفوسنا فحين نقرؤها ونرددها ، نتصور جو المعركةالرهيب فالمعنى يلبس اللفظ وينسجم معه ، كما يفيض إحساسات ويتدفق عاطفة ، فإذا ما افتخر كانت ألفاظه وعباراته قوية ضخمة كذلك تحمل المعنى وتفيض بالإحساس :

ولكننى لا أرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا
ولو مدّ نحوى حادث الدهر طرفه لحدثت نفسى أن أمد له يدا
توقد عزمى يترك الماء جمرة وحلية حلمى تترك السيف مبردا

الموسيقى التى تنبعث من الوزن والقافية موسيقى قوية ، زادتها الألفاظ بنحتها واشتقاقها قوةفوق قوة ، كقوله : «لا أرهب — إن سطا — لا أحذر — الموت الزؤام — مد — حادث الدهر — توقد عزمى — جمرة — .. الخ . ولو أن الشاعر عبر بهذه الألفاظ والعبارات عن هذا المعنى نثراً اساعدته على أداء المضمون الذى يقصده ... فهو يبدؤها بالضغط الشديد على «لكننى» وتوالى النونين وتشديد الأولى منهما يجعل الموسيقى عالية موحية بالعزم والثقة الأكيدة بالنفس ثم يتبعها بقوله : «لا أرهب الدهر» وهو تعبير باشتقاقه فى حد ذاته قوى يدل على قوة صاخبة ، وزاده قوة حرفا المد المتتاليين فى لكننى — لا ، فكأنه يسمع الناس جميعاً . ويشهد الملأ بأعلى صوته وكلمة «سطا» من الكلمات ذات الدلالة النفسية القوية ومملوءة بالإيحاء إذ نتصور على أثرها ألوانا مختلفة من السطو . والموت الزؤام : صفة وموصوف قويان فالموت وحده يخشى ويتقى ، فما بالك إذا جعله موتاً زؤاماً فيه التصميم على النيل من صاحبنا ولكنه مع ذلك لا يرهبه .

وفى البيت الثانى ضغط شديد على «لو مد» — وقوة فى «حادث الدهر» من حيث دلالته على الفزع والهلع . وفى البيت الثالث «توقد عزمى» تعبير حىّ موح زاده الضغط قوة ولهيباً ، وقوله : يترك الماء جمرة ، جسّد المعنوى فى صورة المحسوس الملموس . فإذا ما تركنا الألفاظ إلى التراكيب ، والتأليف بينها وجدنا الألفاظ يشد بعضها إلى بعض فى تماسك وإصرار ، لا أرهب الدهر إن سطا فسطوة الدهر لا يرهبها ولا يخشاها . فالدهر يسطو على الناس فيفزعهم ويلحق بهم الشر ، والموت الزؤام يعدو عليهم فيقتلهم ويقضى عليهم وهذا مألوف ومعروف . وقد زاد قوله : «لحدثت نفسى» المعنى مبالغة وغلواً كما يدل على ذلك البيت الأول فمجرد حديثه لنفسه حين يمد الدهر يده إليه بالمقاومة يدل على نهاية عزمه ومنتهى قوته — كما يقصد — وفى البيت الأخير ترابط قوى وإن كان هذا الترابط عقلياً أكثر ، إذ أنه لما جعل عزمه متوقداً أى ناراً مشتعلة متوهجة أوحى إليه بالماء الذى يغلى ، فجعله يصبح جمرة متقدة .

ومع دلالة الألفاظ على القوة والترابط الواضح بين العبارات ، وأخذ بعضها بحجز بعضها الآخر ، إلا أن المبالغة والإسراف فى الغلو جعلنا نتصور ذلك من قبيل طيش الشباب ، وخيال الصبيان ، وباعد بين الواقع النفسى والواقع الخارجى مباعدة كبيرة وإن كان ذلك يعد على رأى «كولنجوود» من الفن الخالص لأن الشاعر عبر فيه عن إحساسه ومشاعره دون التفات إلى إحساس الآخرين ومشاعرهم .

ولنمض إلى غزله ونستمع إلى هذه الأبيات التى انسجم فيها القاضى السعيد ، وأتى فيها بالسهل العذب الرقيق من الألفاظ والعبارات :

دنوت وقد أبدى الكرى منه ما أبدى — فقبلته فى الثغر تسعين أو إحدى
وأبصرت فى خديه ماء وخضرة — فما أملح المرعى وما أعذب الوردا
تلهب ماء الخد أو سال جمرة — فيا ماء ما أذكى ويا جمر ما أندى
يلوم عليه من يهيم بدونه — ومن كان يهوى الصاب لا يعرف الشهدا

فالأبيات تفيض رقة وعذوبة ، وقد اهتدى إلى عبارات وألفاظ أكسبت المعنى جمالا فوق جماله وسحراً فوق سحره ، وقد لجأ إلى تورية قريبة المنزع تدرك فى يسر وسهولة فقوله « أبدى الكرى منه ما أبدى » يقصد أن عيون المحبوب بها فتور وانكسار ، والإيحاء الرائع فى قوله «ما أبدى » فيا لروعة ما أبدى ، ويالجمال ماأظهر ، عيون ناعسة وجفن مسبل ... ولذا لم ينتظر طويلا لأن السحر فى الجفون دفعه أن يقبل الثغر تسعين أوإحدى وتسعين وها هو ذا المحبوب يجرى فى وجهه ماء الحياة ونضارة العز ، وهذا وذاك يدلان على منبت العز « فما أملح المرعى » ، وما أعذب الوردا .

وحين ينظر إلى المحبوب ويمعن فيه النظر يحمر خجلا ، فيتلهب خده ، « والتعبير بتلهب تعبير حى رائع جميل ، لا يسع المفتون الصب إلا أن يقول فى عجب وحيرة فيا ماء ماأذكى وياجمر ماأ ندى . ولايدانيه جمالا إلا قول المتنبى فى شعب بوان .

لها ثمر تشير إليك منه — بأشربة وقفن بلا أوانى (١)

فالمياه قد جرت فى الثمر وبدت ظاهرة للعين ، مجسمة سائلة وقد وقفت دون قشر ولا آنية تمنعها لأن القشر يكاد لا يرى . وفى البيت التالى يتحدث عن اللائمين والعاذلين الذين يلومونه على الإفراط فى الحب لأنهم يولون وجوههم إلى مستوى آخر لا يمكن أن يقاس بهذا المستوى الرائع وكيف يقاس المرّ بالشهد ، ومن كان يهوى الصاب لا يعرف الشهدا .

فالأبيات هذه : معرض لألفاظ تنتهى إليها العذوبة والرشاقة دنوت — أبدى الكرى ما أبدى — قبلته فى الثغر — أبصرت ماء فى خديه — ما أملح المرعى — تلهب ماء الخد — ماأ ذكى الماء — ماأندى الجمر — يهوى الصاب — فالتاء والكاف — والثاء — والخاء — والحاء — والهاء ، من الحروف المهموسة(٢) التى ينبعث منها نغم هادئ ناعم ، وموسيقى رقيقة مسكرة ، والكلمات وحدها لا قيمة لها إذا لم تكن منسجمة بعضها مع بعض ومتماسكة تماسكا قوياً كأنها القالب فى البناء ، وهو ما ندركه حين نردد العبارات .

وعلى الرغم من أنها مقدمة مدح ، وأن العناية فيها بالوصف الحسى ، وأن النسيب فيها مادى يتحدث عن العيون الناعسة ، والقبل المتتالية ، والخد الملتهب ، إلا أن الإحساس الذى يفيض من هذه الأبيات يجعلنا نعجب بها ونراه قد وفق غاية التوفيق فى اختيارها .

---

(١) ديوان المتنبى : ٤٠٥ .

(٢) الصوت المهموس : هو الذى لا يهتز معه الوتران الصوتيان ولا يسمع لهما رنين حين النطق به ، وليس معنى هذا أن ليس للنفس معه ذبذبات مطلقا وإلا لم تدركه الأذن ولكن المراد بهمس الصوت هو سكون الوترين الصوتيين معه والأصوات المهموسة هى اثنا عشر : ت ، ث ، ح ، خ ، س ، ش ، ص ، ط ، ف ، ق ، ك ، ه ، (سطح-هتك — شخص — ثقف) والأصوات المهجورة هى(ب — ج — د — ذ — ر — ز — ض — ظ — ع — غ — ل — م — ن) . (الأصوات اللغوية ص ٢٢ للدكتور ابراهيم أنيس) .

وفى البيت الثالث عشر تجد به التورية التى فتن بها فيقول :

وفى القلب نار للخليل توقــدت   وما ذقت فيها لا سلاما ولا بردا

فقد ورّى بالإشارة إلى الخليل نبى الله إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وأشار إلى قوله تعالى : « قلنا يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم » . وهو تلاعب لفظى وإجهاد عقلى واضح .

ثم استمع إليه من قصيدة أخرى فى مدح والده :

سألتنى ما حال قلبك بعــــدى   ربة البيت أنت بالبيت أخــبر

فيه جمر كجمر خدك لكن   جمر ذا أسود وجمرك أحمــر

كيف ينفك جمر خـــدك منــــه   وهو بالخـــال فوقـــه قد تسمر

وإلى جنب ذلك الخال وشم   قد تخفى بصـــدغها وتخفــــر

فهو حوار لطيف بينه وبين محبوبه ، فقد جعلها ربة البيت وهو يعنى بالبيت قلبه ولما جعلها ربا لقلبه جعلها خبيرة بما فيه فالجواب هنا ضمنى مبهم ، ولكنه صرح فى البيت التالى بأن فى قلبه جمراً ملتهباً كذلك الجمر المتقد فى خدها ، وفرق بين جمر قلبه وجمر خدها ، فهذا أسود ، وذلك أحمر ، وتساءل كيف يتحلل قلبه من الجمر المتقد فيه ، وخدها الملتهب بخاله الأسود قد تسمر فى قلبه ، وإلى جانب هذا الخال هذا الوشم الذى زاد الوجه جمالا فوق جمال ..

فنى الألفاظ خفة ورشاقة ، وحلاوة وطلاوة ، فالسؤال والجواب فى البيت الأول يفيض رقة ، ويجسم معنى الدلال والعشق ، والكلمات فى السؤال موحية معبرة فيها لهفة المحب ، وتعلقه بمجبوبه ، وفى الإجابة وتصديرها بربة البيت تلاعب وغموض جميل يشف عن المعنى .. وقد أصاب المعنى فى البيت التالى وحقق صفتين أولاهما أن قلبه يتلهب حباً وشوقاً ، وثانيهما أن خدها جميل متورد يحرق المحبين والتساؤل الثالث : كيف ينفك .. تأكيد لانشغال قلبه بحبها ، وعدم خلاصه من ذلك الحب أو انفكاك الحب عنه .

غير أن غرامه بالتلاعب اللفظى والألغاز والأحاجى كان شديداً ؛ فمن هذه القصيدة نفسها يقول :

كان أحوى فزيد بالعين راء   حين يرنو فصار أحوى وأحور

فنى هذا البيت رمز فى أوله أو لغز وفى آخره إجابة هذا اللغز وحله ، وأحوى معناها أسمر من شدة الخضرة ، والعين التى زيد عليها الراء هى عين الكلمة وهى الواو . وفيه جناس بين أحوى وأحور ، وقد ضرب بسهم وافر فى التلاعب بالألفاظ ، وكان ابن سناء بصيراً بدراسة الألفاظ واختيارها ، وجرى بينه وبين أستاذه القاضى الفاضل مناقشات ومجادلات حول إيثار لفظ على لفظ أو قبح لفظ فى موقعه وعدم مناسبته . لما كتب ابن سناء قصيدته السينية التى مدح بها صلاح الدين والتى مطلعها :

أمجلس هوى ليس لى منك مجلس   لأوحشت لما غاب لى عنك مؤنس

جاء فيها قوله :

صلينى وهذا الحسن باق فربمـا   يعزل بيت الوجـه منه ويكنس

كتب إليه القاضى الفاضل معترضاً على استعمال كلمة « يعزل ويكنس » فقال » .. وبيت يعزل ويكنس

أردت أن أكنسه من القصيدة فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلا».وبالطبع دافع ابن سناء عن وجهة نظره، والتمس ما يسوغ رأيه فقال: «وعلم المملوك ما نبهه عليه مولانا من البيت الذى أراد أن يكنسه من القصيدة وهو ..« صلينى وهذا الحسن باق .. » وقد كان المملوك مشغوفاً بهذا البيت مستحليا له ،متعجباً منه معتقداً أنه قد ملح فيه ، وأن قافيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه ، وما أوقعه فى الكنس إلا ابن المعتز فى قوله فى قصيدته المشهورة :

وفؤادى مثل القناة من الخط وخدى من لحيتى مكنوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر ... وأجابه القاضى الفاضل بقوله : « ولا حجة للقاضى السعيد فيما احتج به عن الكنس فى بيت ابن المعتز فإنه غير معصوم من الغلط ، ولا يقلد إلا فى الصواب فقط ، وقد علم مما ذكره ابن رشيق فى العمدة من تهافت طبعه وتباين وضعه ، فذكر من محاسنه مالا يعلق معه كتاب ، ومن بارده وغثه ما لا يلبس عليه الثياب ، وقد عقب القاضى السعيد على أبى تمام فنقضه وحطه ، وللبحترى فأعطاه أكثر من حقه وما أنصفهما ، ولو كان هذا موضع العتب لاشتفت قلوب ، ولكن للعتاب مواضع »(١) .

قال ابن حجة : « أما نقد الفاضل على ابن سناء الملك بوضع المكنسة على وجنة معشوقته التى ليس للعذار بوجنتها شعور فنقد صميم » .

أما ابن سناء فقد استعمل هذا اللفظ فى مقام آخر حين قال :

كنست فؤادى من حبـــه ولحيتـــه كانت المكنســـة

وقد اعترض عليه الصفدى بأنه لم يتعظ بنقد الفاضل ولا ارعوى بل غلب عليه الهوى ، وأما ابن حجة فصوب استعمال هذه اللفظة فى هذا المقام لأن وضع مكنسة اللحية على وجنة من طلعت لحيته كان جائزاً على عاشقه ، وسبكها هنا فى قالب الهجو وهو نوع من المرقص والمطرب .

ولا شك أن نقد القاضى الفاضل وجيه ، فلم يوفق ابن سناء فى استعمال المكنسة التى ترتبط فى الذهن عادة بالقمامة ، وإن أحسن استعمالها فى البيت الثانى كما أيد ذلك ابن حجة .

وأما معنى البيت : « صلينى وهذا الحسن باق فربما ... الخ فمأخوذ من قول المتنبى :

زوّدينا من حسن وجهك مادا م فحسن الوجوه حال يحول

وصلينا نصلك فى هذه الدنيـــا فإن المقـــام فيها قليـــل

التـكرار :

وابن سناء كثير التكرار فأحياناً يكرر بيتاً بلفظه ومعناه مع تغيير كلمة منه لتستقيم القافية أو الوزن ففى قصيدته اللامية التى مدح بها القاضى الفاضل قال :

ومليّة بالحسن يسخر وجههـــا بالبـــدر يهزأ ريقهـــا بالسلســـل

وهو نفس البيت الذى قاله فى الفائية التى مدح بها الملك الناصر :

ومليّة بالحسن يســخر وجهها بالبدر يهزأ ريقهـا بالقرقف

(١) فصوص الفصول .

فلم يغير سوى كلمة « بالسلسل » إذ وضع مكانها « بالقرقف » . وهى الخمر .

وفى قصيدته التى مدح بها القاضى الفاضل وهنـأه بعشر ذى الحجة سنة ٥٧٣ ﻫ قال :

يا حاجبية من قوس بحاجبهـا ردت سهامك ما قالتـه أقواسى

وقد نقل هذا البيت إلى قصيدة أخرى فى مدحه أيضاً فقال :

يا حاجبية من قـوس بحاجبهـا ارم القلوب فقد أصبحن أهدافا

فنقل الشطر الأول بعينه ، وضمن الشطر الثانى معنى بقية البيت .

وفى قصيدة اعتذر فيها للقاضى الفاضل جاء قوله :

تغير فتسبى باللحاظ عقولنـا وكم من شجاع قد أغار وما سبى

وهو نفس البيت الذى جاء فى قصيدة أخرى فى الغزل :

تغير فتسبى باللحاظ عقولنـا وكم من شجاع قد اغار ولم يسب

ويأخذ من غيره أحيانا اللفظ والمعنى أوالمعنى فقط كقوله فى رثاء جاريته :

قفا نبك من ذكرى حبيب وقبره وقل للتى فى القبر حلت ألاهبى

فالشطر الأول مأخوذ من قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

والثانى ضمنه معنى قول عمرو بن كلثوم :

ألاهبى بصحنك فاصبحينـا ولا تبقى خمور الأندرينـا

ومن تلاعبه بالألفاظ ما أسماه البلاغيون بالاكتفاء، وهو أن يكتفى الشاعر ببعض الكلمة ، وأحياناً يكتفى بكلمة عن كلام كثير ، والأول أصعب مسلكا لكنه أحلى موقعاً كما قال ابن حجة الحموى : « إنه عزيز الوقوع جداً ولم يوجد فى كتب البديع ومن ذلك قول ابن سناء :

ولقد كففت عنان عينى جاهداً حتى إذا أعييت أطلقت العنا(١)

فالأصل « العنان » فاكتفى ببعض الكلمة عن بعضها الآخر ، ومن النوع الثانى قوله :

يا عاذلين جهلتم فضل الهـوى فعذلتم جهـلا ولكنى أنـا

أى ولكنى أنا أعلم بفضيلتها (٢) ، ومن ذلك قوله :

إن قلت إنك فى غـنى عـنى فمـا أدراك أنى

أى أننى لست فى غنى عنك (٣) .

---

(١) البيت ١٢ ص ٣٩٧ .

(٢) البيت رقم ٢٣ : ٣٩٨ .

(٣) البيت رقم ٣٠ : ٤١٨ .

وكان ابن سناء مولعا بالتلاعب بالألفاظ والاشتقاقات العجيبة، والتراكيب الغريبة ولعل هذه إحدى خصائص المدرسة الفاضلية ، وأصحاب التورية بالقاهرة فى زمن الأيوبية . استمع اليه يقول فى مطلع قصيدة غزلية :

يا ويح نفسى عشـــــقت مصـــــريـــة تدمشـــــقت

وتخونه العبارة والفكرة أحيانا فيتورط فى استخدام الكلمة فلا تقع موقعها المناسب فبعد أن بالغ فى مدح القاضى الفاضل ، وجعل هيبته تملأ القلوب حتى ليخشاها الدهر نفسه بل لو عربد الدهر فان هيبة عبد الرحيم تقيم عليه الحـــــد :

ويمينا لو عربد الدهر سكرا لأقيمت منه عليه الحدود

يضعف هذه المبالغة ويقلل من شأنها حين يقول :

فإذا ما ادعى حيازة مجـــــد فالبرايـــــا بمـــا يقول شهود

فكلمة ادعى توحى بكذبه واختلاقه مهما صدقه الناس فى دعواه .

ويميل إلى الإلغاز فيشير بالحروف ومبادئها إلى كلمات كقوله فى مدح الحافظ السلفى فى المقدمة الغزلية :

فباء عذار فوقه سين طـــرة إلى ميم ثغر فهو أوله بسم

فكلمة « بسم » هى مجموع الباء والسين والميم .

بعد هذه الدراسة يمكن أن نصل إلى الحقائق التالية :

١ — يدرك ابن سناء إدراكا تاما منازل الألفاظ والعبارات التى يستخدمها ، ويلائم بين الألفاظ وبين طبيعة الغرض الذى يقول فيه وهذا هو طبعه الغالب .

٢ — ينعكس عليه تيار التفنن اللفظى الذى طبع به عصره ، فيحاول أن يسبق فى هذا الميدان فيسبق قليلا ويتخلف كثيراً .

٣ — ثقافته اللغوية واسعه ، ومحصوله من كلمات السابقين وافر ، ولذا تسرع إليه الكلمات والعبارات وأحياناً الأبيات فيحسن وضعها حتى يجيد فيها حينا ويخفق فتعد من عيوبه حيناً آخر .

٤ — ولكن تقل ثروته اللغوية وتتضاءل ، وكأن ريقه يجف ، وحلقه يتشقق حين يكرر أبياتاً بلفظها ومعناها ، أو مع تغيير تافه محدود .

٥ — يحسن التأليف بين الصور الشعرية التى يؤكد بها معنى من المعانى ، أو يحقق بها غرضاً من أغراض الشعر .

٦ — يعمد كثيراً إلى إيراد الألفاظ ليحقق الجناس أو الطباق أو التورية مع التكلف والصنعة .

المعانى واختلافها بالنسبة لأغراض شعره :

لقد وضع ابن سناء الملك مقاييس للشعر الجيد ، فربطه بالطبع والموهبة الفطرية وعاب على غيره من الشعراء جريهم وراء التقليد ، وغرامهم بالصنعة والتكلف ، وهم حين يجرون خلفه يتعثرون ومثلهم كمن يمضغ الحصى فيعز عليهم كسرها :

أتانى در الشعر عفوا مطفــلا ... علىّ وهم يجرون خلف المحابر
وقد كسروا أسنانهم حين مضغوا ... حصاة ونبع الطبع صلب المكاسر
ويأتون بالأشعار يبهر حسنهــا ... ولكنها موجودة فى الدفــاتر
على أن فيهم من إذا قال لفظة ... أعاد لنا كانون فى شهر ناجــر
يروع بالأشعار والريح تحتهــا ... فما شعره إلا كأشداق زامر (١)

وضع المنهج شيء وتطبيقه شيء آخر :

ولا يسعنا إلا أن نتساءل : هل أدرك ابن سناء إدراكاً واعياً معنى « نبع الطبع » الذى أشار إليه ؟ وهل كان شعره نابعاً حقيقة من طبعه ، ونفسه وعمق إحساسه ؟ وما مقياس المعنى الجيد عنده ؟

إن ما جرى بين القاضى الفاضل وبين ابن سناء سوف يكشف لنا الستار عن هذا التساؤل ، وينير لنا معالم الطريق لدراسة المعانى التى كان ينهل منها ابن سناء ، ومذهبه التطبيقى لنظرية « نبع الطبع » التى أشار إليها :

طلب القاضى الفاضل من ابن سناء أن يختار عيونا من شعر ابن رشيق القيروانى ، وأن ينتقى من ديوانه مجموعة من القصائد ، فأنجز الشاعر ما أوصى به أستاذه وأرسل إليه ما اختار من الديوان ، وأرفق به رسالة يبدى فيها دهشته من أن ابن رشيق لم يأت بجديد ، وأنه كان يسطو على شعر المتنبى وابن المعتز ، بحيث لو رد مافى ديوانه إلى صاحبيه لم يبق له شيء : « فلو لم يخلق الله ابن المعتز والمتنبى ما كان ابن رشيق يفهم الشعر ، ولم يكن مستودعاً منه ذلك السر فضلا عن نظمه ، ودقائق علمه ، وأنه ينهب شعر هذين الرجلين ، ولا يبالى كيف يذهب وأين ، ومن غاراته عليهما ، ونهبه منهما :

قال ابن المعتز فى فرس :

يمضى بموج ويجيء ببدر .

فقال ابن رشيق :

يذهب موجاً ويجيء بدراً .

قال المتنبى :

سترتك الحجال (٢) عنها ولكن ... بك منها من اللمى تقبيــل

قال ابن رشيق :

وكأنه من حـــوة (٣) ولمى ... قد قبلته الشمس فى فمــــه

وقال المتنبى :

يهز الجيش حولك جانبيــه ... كما نفضت جناحيهــا العقــاب

قال ابن رشيق :

والجيش ينفض حوليــه أسنته ... نفض العقاب جناحيها من البلل

---

(١) من قصيدته فى مدح الملك العادل والتى مطلعها : تنزه طرفى بين زاه وزاهر . راجع الديوان .
(٢) الحجال : جمع حجلة وهى القبة وموضع يزين بالثياب والستور للعروس (محيط — حجل) .
(٣) الحوة : بضم الحاء سواد إلى الخضرة أوحمرة إلى السواد (محيط — حوه) .

وجميع أساليبه على هذا النمط سوى وضعين أوثلاثة ، قد حيرت المملوك استحساناً لها وتعجباً منها ، وأتعبته تفتيشاً وتنقيباً عليها ، ولم يعرف من أين اختطفها ، ولا من أى دوحة اقتطفها ، فهنيئاً له إن كان خاطره افترعها ، والبشرى له إن كان ذهنه اخترعها فمنها قوله :

كأنما الصبح الذى تفـــرى ضم إلى الشرق النجوم الزهـــرا
فاختلطت فيه فصار فجرا

ومنهـــا :

وما ثقلت كبرا وطـــأتى ولكن جررت ورائى السنينــا

وقوله فى الثريا :

كأنهـــا كأس بلـــور منبتـــة أو لرجس فى يد الندمان قد ذبلا

تنبيت الكأس ما سمعنا به . وقوله :

سألت الأرض لم كانت مصـــلى ولم جعلت لنا طهراً وطيبـــا
فقالت غير ناطقـــة لأنى حويت الكل إنســان حبيبـــا

فلقد عد ابن سناء الملك ابن رشيق سارقاً لأنه اعتدى على أفكار المتنبى وابن المعتز ، وعده مجيداً حين أتى بمعنى لم يسبق إليه كتفسيره الصبح بهذه الصورة الجديدة وهى تجمع النجوم واختلاط بعضها ببعض حتى تصير فجراً ، وهى فكرة لم ترد لدى أحد الشعراء السابقين . وكتفسيره ثقل سير العجوز بجر سنين العمر وراءه ، وكتنبيت الكأس تشبيهاً للثريا بها وكتفسير طهارة الأرض باشتمالها على حبيب لكل إنسان .

فالمعنى الجيد عند ابن سناء كامن فى الإتيان بالجديد من فكرة أو صورة أو تشبيه . وهذا المعنى عن الشعر الجيد هو الذى استقر فى نفوس شعراء الأيوبيين ، بل وفى نفس القاضى الفاضل كما يتضح من تعليقه على قصيدة ابن سناء التى مطلعها :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجـــر وحاشاك نم من وجهها ضحك الثغر

فقال : « وما رأيت أغرب من مطلع هذه القصيدة ، ولا أدل منها على شطارة طبع ، ولا من بيت الكأس المكسورة ولا أدل منه على صلابة نبع ... وهو يعنى قوله :

وساحرة صانت سلافـة جفنهـــا بكأس به كسر وهذا هو الســـحر

ولا من بيت الورق الخضر ، ولا أطل منه على رقة طبع وشدة نزع .. وهو يعنى قوله :

فلا تنكروا منها الخضاب فإنمـــا هى الغصن فى أطرافه الورق الخضر

ويمضى القاضى الفاضل فيعيب ابن المعتز بأنه اتكأ واتكل على ذى الرمة ، فما ترك له تشبيها إلا نقله وصقله.. أما ابن سناء فصحبته الديم ، وصحبته النعم ، وسبح بحمده القلم ، وكبر له وهلل فيما رقم ، أوفيما نثر بمدحه ونظم ، ما استأنس إلا بنفسه ، ولا رأى مثلها ولا يرى ولا نرى ، ولا أخرج إلا من كيس فكره النقود التى تباع بها القلوب وتشترى .. » (١) .

---

(١) فصوص الفصول : ٦

فالقاضى الفاضل يرى أن ابن سناء أعظم من ابن المعتز لأن الأخير كان يعتمد على ذى الرمة أما ابن سناء فكان يبتكر المعانى ويخترعها .

تناقض :

ولعود من جديد لندرك معنى «نبع الطبع» عند ابن سناء .لقد فسرها تفسيراً علمياً بمختاراته لابن رشيق وتعليقه على ما اختار ، فأوضح أنه يعنى بها« المعنى الجديد أو الصورة الجديدة أو المعنى والصورة » وهو نفس الفهم عند أستاذه القاضى الفاضل ، دون نظر إلى مطابقة هذا المعنى للإحساس والمشاعر أولا؟ ومع ذلك فهل كانت معانى ابن سناء كلها نبع طبعه ولم يتكىء فيها على من سبقه ؟ إن نظرة إلى قصائده تمدنا بكثير من الأدلة التى تنفى ذلك ، ونعرض على سبيل المثال :

قال ابن سناء فى رثاء أمه :

فهو فى الميتين يحسب حقـاً   ومجازاً يعـد فى الأحياء

وهذا المعنى مأخوذ من قول البحترى :

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحيـاء

قال ابن سناء بمدح القاضى الفاضل :

يغضى حياء ويغضى من مهابته   فما يكلم إجلالا إذا ابتسما

وهو مأخوذ من قول الفرزدق فى مدح على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب (١) .

يغضى حيـاء ويغضى من مهابته   فما يكلم إلا حين يبتسم

قال ابن سناء فى مدح صلاح الدين :

فما يبرم المقدار ما أنت ناقض   ولا ينقض المقدار ما أنت مـبرم

وهو من قول ابن هانئ الأندلسى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهـار

ويطول بنا الحديث إذا تتبعنا ما ورد فى شعره مأخوذا من شعر غيره . ولن يغنى عنه شيئاً ما قاله أستاذه القاضى الفاضل مقرظاً له بأنه : « ما استأنس إلا بنفسه ولا رأى مثلها ولايرى ولانرى ، ولاأخرج إلا من كيس فكره النقود التى تباع بها القلوب وتشترى .. » .

ابتكار وتجديد :

ولكن هل كل شعر ابن سناء الملك على النحو الذى قدمنا ، والذى تطفل فيه على موائد الآخرين ؟

الواقع أن ابن سناء له كثير من المعانى الجديدة ، به إنه أولع بالإتيان بالجديد الذى ينزع فى أكثره إلى العقل والفكر ، وفى أقله إلى العاطفة والشعور ، وإليك مصداق مانقول : قال من قصيدة فى مدح القاضى الفاضل :

ولعمرى فإن عمـرى كفـودى   فيه بيض من الليالى وسـود

فقد شبه الأيام والليالى التى تمر على الإنسان بما تجمع من فرح وسرور ، ونعيم وبؤس ولذة وألم بفود الرأس الذى يختلط فيه بياض الشعر بسواده ، ويعيشان جنباً لجنب وهو تشبيه لا يخلو من طرافة وابتكار.

---

(١) نسبت هذه القصيدة التى منها هذا البيت إلى «الحزين الكنانى عمرو بن عبيد بن وهب» مرة، كما نسبت الى داود ابن سلم فى مدح قثم بن عبد الله بن عباس أو إلى اللعين المنقرى (زهر الآداب ج ١ : ٦٥) والأغانى ١٩ – ٤٠ .

ويقـــول :

يشكو النهار خيولهم من نقعها والليل يشكو من وجوههم السنا

فخيولهم تثير من النقع ما يحجب ضوء النهار حتى ليشكو النهار أولئك الخيل ، والليل الذى من أخص صفاته الظلمة تتهتك ستائره المظلمة فلا يسعه هو الآخر إلا أن يشكو من ذلك الضوء الذى ينبعث من وجوه من يحب .

ويقـــول :

يا جور هذا الحب فى أحكامه خـد يحد ولحظ طرف قد زنا

فلقد جمح به خياله وانتزع من ثقافته الدينية هذه الفكرة الجديدة ، فرأى أن القبلة للخد بمثابة الحد والعقوبة التى تقع عليه ، بينما الذى ارتكب جريمة الزنا هو الطرف. وهى من غير شك على جدتها غير مقبولة لوضوح التكلف والتعنت فى انتزاعها . وأحياناً يأخذ الفكرة من شاعر سابق ولكنه يعكسها فتأتى على غير ما نترقب ، لقد تعود الشعراء أن يدعوا لقبر الميت بأن يسقيه الغيث ، أما هو فيرى أن بقاء عينه بما تسكبه من دموع يريح ثرى جاريته من منة السحب . فيقول :

ولم أبق منى العين إلا لأنهـــا تريح ثراك الحر من منة السحب

بينما يقول ابن نباته :

سقى الغيث عنا تربة الملك الذى عهدنا سجاياه أبر وأكرمـــا

وردد هذا المعنى شعراء آخرون سبقوا ابن سناء الملك .

ويهب شعره قوة ، ومعانيه إيحاء حين يستخدم الإشارات الأدبية ، فيشير بكلمة أو جملة إلى معنى طرقه شاعر آخر فيوقظ فى الذهن المقارنة السريعة ، كقوله :

طويلة خطو وهى أىّ قصيرة فقد كذبت بالفعل قول كثير

وهو يشير بهذا إلى قول كثير عزة :

وأنت التى حببت كل قصيرة إلىّ وما يدرى بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا شر النساء البحاتر

والقصيرة هنا بمعنى مقصورة أى مقصورة فى البيت لا تترك أن تخرج .

ومن المعانى التى ابتكرها وخلص بها من الغزل إلى المدح قوله :

إنى رأيت الشمس ثم رأيتهـــا ماذا علىّ إذا عشقت الأحسنا
وسألت من أى المعادن ثغــرها فوجدت من عبد الرحيم المعدنا

حاول أن يخلص من الغزل إلى المدح فخانه طبعه بهذا البيت الثانى إذ جعل عبد الرحيم مصدر تلك المعادن التى صيغ منها ثغر محبوبته ، ولا شك فى أن هذا إساءة لممدوحه .

ويكثر التضمين فى شعره ، فيعزّ به المعنى ويقوى كقوله فى مدح القاضى الفاضل :

خذ حديثى فإن أعظم ما بى شجن منك والحديث شجون

فقد ضمنه المثل الذى قاله « ضبة بن أد » « الحديث ذو شجون » ، وذلك أنه أرسل ابنه سعيداً فى طلب إبل نفرت تحت الليل فكان سعيد ماضياً فى طلبه حين لقيه الحارث بن كعب وكان على الغلام بردان فسأله إياهما

فأبى عليه فقتله وأخذهما ثم إن ضبة حج فوافى عكاظا فلقى بها الحارث ورأى عليه بردى ابنه سعيد فعرفهما فقال له ما أحسن هذين البردين فمن أين أخذتهما؟ فقال لقيت غلاماً فقتلته وأخذتهما فقال : أبسيفك هذا ؟قال نعم فقال : أرنى إياه فإنى أظنه صارماً فلما أخذه من يده هزه وقال : « إن الحديث ذو شجون » ثم ضربه فقتله . فهذه العبارة فى البيت توحى إلينا بقصة هذا الحديث.

ومن أبياته التى امتدحها القاضى الفاضل قوله فى مطلع قصيدة :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجر وحاشاك نم من وجهها ضحك الثغر

فابتسامة الحبيبة ملأت الدنيا نورا حتى خيلت لصاحبها أن الفجر قد طلع من أفق الدنيا ثم طابق بين قوله : « انتبه » وقوله : « نم » والطباق لون من ألوان الإجادة والتفنن عند ابن سناء الملك ، كما أن التعبير بـ « وحاشاك » كان له وقع فى نفس القاضى الفاضل لأنه أكد المبالغة ، وأنه لا يجوز بحال أن يلتبس نور الثغر بنور الفجر ، إذ أن الأخير لا يمكن أن يدانى الأول ظهوراً وتألقاً وسطوعاً ، وفضلا عن ذلك فإن لفظة « انتبه » تذكر القارئ بأبيات كثيرة من الشعر القديم تحدثت عن ذعر العاشق وخوفه من مفاجأة الصباح له ، واستيقاظ أهل الحى ، وجزع المحبوبة من أن يفتضح سرها وإشفاقها على عاشقها أن يفتك به أهلها .

وبعد : فهل كان شعر ابن سناء « نبع الطبع » كما ادعى ؟ إذا كان المقصود أن يأتى بالمبتكر الغريب من المعانى التى لم يسبق إليها فلاشك أنه قد سار على المنهج الذى وضعه فى الغالب الأعم من شعره . أما إذا فهمنا من « نبع الطبع » ما يقرره النقاد المحدثون ويعبرون عنه « بالأصالة » فى الفن ونعنى بها أن يكون المعنى مستمداً من إحساس الشاعر به وامتزاجه بنفسه من جهة ، ثم تعبيره عنه تعبيراً مختلفاً عن أساليب غيره من جهة أخرى فقد ابتعد ابن سناء عن المنهج وخالفه كما خالفه شعراء كثيرون فى العصر الأيوبى راودهم الشعور بأن التجديد، والابتكار هو أن يبتعد الشاعر عما ألفه الناس رغبة فى الشغف بالغرابة ، والشذوذ عن الجماعة ، والحرص على أن يلفت إليه الأنظار ، ويثير حول فنه القيل والقال ، فكان ذلك عجزاً عن بلوغ العمق ، وفقراً فى الموهبة ونقصاً فى الأصالة (١) .

بقى أن نشير إلى أنه كان ماهراً فى توزيع معانيه على أغراضه فمعانيه فى المدح أو فى الفخر قوية ، ومعانيه فى الغزل والاستعطاف والشكوى رقيقة ومعانيه فى الزهد والحكمة حقائق مستمدة من التجارب والأحداث أو الثقافة والاطلاع . وهو فى الهجاء لاذع ، وفى المجون مستهتر ، وفى الرثاء مفجوع أو محزون أوباك . بقى أن نعرض فى هذا الفصل لدور الخيال والعاطفة فى شعره تفصيلا بعد أن تحدثنا عنهما إجمالا .

أثر العاطفة والخيال فى شعره :

أصبح من الضرورى فى دراسة الأدب أن يتتبع الدارس أثر العاطفة فى القطعة الأدبية فيتبين صدقها وحرارتها ، أو زيفها وبرودها ، فهى لا شك من الدوافع النفسية فى إنتاج الأدب ، والعاطفة هى مجموعة منظمة من الانفعالات ارتبطت بشخص أو بشىء أو معنى ، (٢) ولكن الأديب قد يصف لنا عواطف غيره ، أو عواطف وانفعالات مختلفة شعر بها فى أعماق نفسه ، أو يخلع عواطف على أشخاص خياليين فى قصة يؤلفها فلابد لنا من دراسة هذه

(١) راجع ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار : ص ٧٧ .

(٢) دراسات فى علم النفس الأدبى : حامد عبد القادر ص ٥٤ نشر لجنة البيان العربى طبع المطبعة النموذجية .

العواطف لبيان قيمتها ومعرفة مدى صدقها وشمولها ونوعها هل هى إنسانية ؟ أوقومية ؟ أوإقليمية ؟ أو شخصية ؟ وهل هى فردية ؟ أوغيرية ؟ ثم هل هى عميقة أوسطحية ؟ وهل هى ضعيفة أوقوية ؟ وهل هى ثائرة أو هادئة ؟ إلى غير ذلك إذ أن العاطفة هى النافذة أو المصفاة التى تمر فيها الأفكار فتحيلها إلى مادة صالحة للاستمتاع الفنى بالأدب (١) .

التفكير العاطفى يسير عفواً بل أحياناً قسراً ، لا يملك الشاعر دفعه أورده فإذا رأى منظراً طبيعياً ملك عليه حسه ومشاعره تفيض عاطفته دون إدراك منها بوصفه وعندها يشف الحاجز بين الشعور واللاشعور ويصبح الشاعر أو المفكر فى شبه غيبوبة حتى تختلط المنطقتان فيصدر عن بقية المنظورات أو بقية المسموعات التى اختزنت فى اللاشعور. وهذا هو السر فى أن الشعراء يشغفون بذكر ديار الأحباب والتغنى بآثارهم التى يخلفونها من ورائهم :

أمر على الديار ديـار ليـلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلـبى ولكن حب من سكن الديـارا

فحين ثارت عاطفة الحب عند الشاعر أقبل على ديار محبوبته يقبل الجدران، فقد أصبحت جدران ديار ليلى وحدة متماسكة الأجزاء مع ليلى ، فإذا كانت ليلى قد رحلت فإن الجزء الآخر قد حل محله (٢) .

بعد هذه المقدمة هل كان ابن سناء عاطفيا على هذا النحو ؟ هل كان ينفعل بالمعنى فيولد المعنى فى تلك القوالب الشعرية قسراً عنه وعفو الخاطر ؟ أو كان يفكر فى المعنى ويقول عن وعى وإدراك لما يقول بعد أن يرهف نفسه ويقوى مشاعره .

الواقع أن ابن سناء كان يعنى بشعره وكان يفكر فيه ، وكانت تأتى معانيه بعد تمحيص وتدقيق وكانت ألفاظه وعباراته موضوعة بدقة وعناية ، فى نظام خاص .. فهو إذن يصدر عن عقله فى معظم شعره لا عن عاطفته .

إن شعره كله من قبيل الشعر الذاتى أو الشعر الغنائى فهو مدح أو فخر أو هجاء أو رثاء أو غزل ، أو فخر أو حكمة وهذه كلها من الأغراض التى تنعكس فيها ذاتية الشاعر ، وتظهر فيها انفعالاته الشخصية .

اختلاف انفعالاته باختلاف الأغراض التى قال فيها :

وحين نواجه أغراضه العديدة ندرك أن فى كل منها انفعالات خاصة متميزة ، أثارها وجدانه (٣) المدرك الواعى ، فهو إزاء شخصية كصلاح الدين يثير فينا عاطفة الاعتزاز به كقائد يحمى حمى الإسلام ، ويدافع بجنوده أعداءه ، ثم يثير عاطفة القومية الإسلامية التى لا تفرق بين أبناء هذا الدين حتى اعتز بالأتراك فى دفاعهم عن حماه :

بدولة الترك عزت ملـة العرب وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب

---

(١) أحمد عزت راجح : أصول علم النفس ص ١٢٦ ، الدواسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص: عبد الكريم العثمانى ، نشر مكتبة وهبة ص ٢٤٦ ، علم النفس : أسسه وتطبيقاته التربوية ٢٠١ الدكتور القوصى .

(٢) دراسات فى علم النفس الأدبى ص ٥٦ /الأستاذ حامد عبد القادر .

(٣) الوجدان : أمر عام يشمل الانفعال والعاطفة وغيرهما ، وهو ما يصحب السلوك الإنسانى من حالة الارتياح أو عدم الارتياح أو من اللذة والألم (ص ٢٣٢ الدراسات النفسية عند المسلمين ، دراسات فى علم النفس الأدبى: حامد عبد القادر ص ٥٢) .

ثم يثير عاطفة الرهبة واشتداد المعركة وهولها حين يتحدث عن اللقاء فى أتون المعركة ، كما يثير عاطفة الإعجاب بحسن مضاربة القائد والمسلمين بالسيوف ومتانة سيوفهم ورماحهم ، ويحمل القارىء على أن يشاركه إعجابه بالقائد البطل حين يصوره رابط الجأش ، قوى العزيمة لا يزعزعه الموت المنتشر حوله فى كل مكان بل هو يأسر ويقطف رءوس الأعداء .

وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم   وقطف رءوس منهم آن أن تجنى
ثبتّ لهم والسيف قد كره الطلى   وجالدتهم والقرن قد سئم القرنا

فإذا ما انتقل إلى القاضى الفاضل ، وهو لا يجيد المبارزة ، ولا يحمل السيف ، ولا يقود الجيش وإنما هو بارع فى التحبير والتسطير يفعل بالقلم ما يعجز عنه السيف ، أثار فينا عاطفة الإكبار لأستاذه ، والتقدير لشخصه ، وبالغ فى إغداق الفضائل عليه وإلباسه ثوب المجد ، وهبته المال لأعدائه حتى ليتمنى أن يكون منهم لينال ما ينالون

تعطى أعاديك حتى كدت من حنق   أقول هب لى وهبنى من أعاديكا

ويتزلفه ، ويتدلى فيثير فى نفوسنا عاطفة احتقاره حين يقول :

فما بقائى إلا منك مكتسب   ولا حياتى إلا من أياديكا

وإذا ما افتخر بدت نواجذه من ثنايا قريضه ، وأسفر عن انفعال شاب طائش مغرور لا يرهب الدهر ، ولا يخشى سطوة الموت الزؤام ، ثم أثار فى نفوسنا ثقته بنفسه حين يجعل عزيمته تحيل الماء جمراً ، وتترك السيف مبردا :

توقد عزمى يترك الماء جمرة   وحيلة حلمى تترك السيف مبردا

كما يفصح عن نفس متعالية حين يبدى احتقاره الأنام :

وفرط احتقارى للأنام لأننى   أرى كل عار من حلى سؤددى سدى

ويبدى منتهى الإباء حتى ليفضل الظمأ إذا امتن عليه الماء .

وأظمأ إن أبدى لى الماء منة   ولو كان لى نهر المجرة موردا

ويثير فى نفوسنا عاطفة الألم والحسرة إذا رثى أحداً من أهله ، كما يهول من الخطب والمصاب إذا رثى أحداً آخر ، ويجنح إلى الحكمة والعظة فيثير فى نفوسنا خوف الآخرة وعدم الغرور بالدنيا إذا عزى وسلى .

فإذا ما تغزل كانت الصنعة ذات أثر واضح فى غزله ولذا نحس بانفعالاته ضعيفة واهنةلا ثائرة مضطربة كعواطف المحبين الآخرين . ثم هو يخاطب الجسد ويثير الرغبة فى الضم واللثم والتقبيل .

فإذا ما وصف – على ندرة وصفه – أثار الرغبة فى الطبيعة والافتنان بها كما فى وصف البستان والمنظرة ، وحاول أن يحسن القبيح ، إلى غير ذلك مما لا داعى للإفاضة فيه .

وعلى الجملة نجد أن انفعالاته تتعدد بتعدد موضوعاته وأغراضه .

خياله : (١)

هل هو من النوع الابتكارى الذى يستحضر فيه الأديب صور أشياء لم يسبق له إدراكها فى جملتها إدراكاً

(١) الخيال هو بالمعنى الخاص: استحضار صور لم يسبق إدراكها فى جملتها إدراكا حسيا فالصور المستحضره على هذا المعنى لابد أن تكون جديدة ونعنى بذلك آن يكون التركيب والتأليف بين العناصر المألوفة لاستخراج صورة غير مألوفة ومن هذا النوع إسناد الكلم إلى الحيوان والشعور إلى الجماد . أما التخيل بمعناه العام : فينقسم قسمين الأول التخيل الاستحضار

سياً ؟ ، ... وإذا كان كذلك فهل هو من النوع الابتكارى المطلق الذى لا يخضع لإرادة الأديب وليس له غرض مقصود معين ، ولا يتقيد بالماضى ولا بالمستقبل كما يحدث للإنسان حين يخلو إلى نفسه ويطلق لها العنان ، فتتوارد على ذهنه صور غريبة كأن يتصور نفسه صاحب منصب راق أو صاحب أموال وضياع ... إلى غير ذلك مما نسميه بأحلام اليقظة . .

أو هو من النوع الابتكارى المقيد الذى يشعر فيه الأديب بأن له غرضاً مقصوداً يعمل على تحقيقه ، ويرتبط بالمستقبل كما يجول فى نفس الأديب عندما يتهيأ لنظم قصيدة فى موضوع خاص .

أو هو من النوع الابتكارى التقليدى الذى يستحضر فيه الأديب صورة صورها أديب غيره . وذلك كما يفعل الطالب حين يصغى إلى أستاذه وهو يصف له مدينة أو منظراً رآه ، ثم يستعيد تلك الصورة (١)

ثم ما نوع هذه الصورة أمحسة أم معنوية ، وإذا كانت محسة فهل هى بصرية أو لونية ، أو مركبة أو صوتية ، أو جامعة لأكثر من ضرب واحد من هذه الضروب وهل الصور التى يأتى بها مبتذلة ؟ أو جديدة ؟ وهل هى قريبة أو بعيدة عن الإدراك ؟ وما مقدار توفيقه فى جمالها ؟ وهل تتناسب مع المعانى والأفكار العامة التى ترافقها أو تتنافر – وهل وفق بها إلى إثارة العواطف التى يريدها ؟ (٢)

الواقع أن كل هذه الأنواع من الخيال من الممكن أن نجد لها أمثلة واضحة فى شعره ففى قوله :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجـر وحاشاك نم ، من وجهها ضحك الثغر
هو الثغر إلا أنه الصبح طالعاً على أنه الكافور لكنه الدر

اشتمل البيت الأول على صورة خيالية ابتكارية إذ جعل ابتسامة الحبيبة تملأ الدنيا نورا حتى خيلت لصاحبها أنه الفجر قد طلع من أفق الدنيا ، وهى صورة بصرية فيها المبالغة التى كانت سمة من سمات ابن سناء والقاضى الفاضل ، وقد أكد هذه المبالغة المقابلة بين «انتبه» و «نم» وذكر كلمة «وحاشاك» إذ أنها أكدت المبالغة وأنه لا يجوز بحال أن يلتبس نور الثغر بنور الفجر إذ أن الأخير لا يمكن أن يدانى الأول ظهوراً وتألقاً وسطوعاً . وفضلا عن ذلك فإن لفظة «انتبه» تذكر القارئ بأبيات كثيرة من الشعر القديم تحدثت عن ذعر العاشق وخوفه من مفاجأة الصباح له واستيقاظ أهل الحى ، وجزع المحبوبة من أن يفتضح سرها ، واشفاقها على عاشقها أن يفتك به أهلها . (٣)

وفى البيت الثانى يرسم صورة خيالية لثغرها الضاحك فحين انفرج هذا الثغر أشرق منه الصبح مضيئاً مشرقاً ، تفوح منه رائحة طيبة كالكافور ، وهذه الأسنان منتظمة لامعة كأنها الدر فهذا خيال تصويرى جمع بين المرئيات والمشمومات واعتمد على الحسيات .

ويسمى التخيل التكرارى أو التصويرى ، والقسم الثانى هو التخيل الابتكارى وهو نفسه التخيل بمعناه الخاص وهو ثلاثة أنواع ١ – ابتكارى مطلق ٢ – ابتكارى مقيد – ٣ – ابتكارى مترجم أو تقليدى . فالأول كأحلام اليقظة والثانى علمى كتخيل المهندس وضع تصميم معين لبناء منزل . وفنى كالذى يجرى بنفس الرسام والأديب حين يريد أن ينظم قصيدة فى موضوع خاص وهو يتأثر بمزاج الشخص وعاطفته أما التخيل التقليدى فهو الذى يستحضر فيه الفنان أو الأديب صورة رسمها غيره (دراسات فى علم النفس الأدبى ٣٣ – ٣٨) .

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى ٣٣ – ٣٨ .

(٢) الأدب العربى ونصوصه : نعيم الحمصى وخليل هنداوى : ٧ .

(٣) ابن سناء ومشكلة العقم : ٨٧ .

وقد جاء فى هذه القصيدة قوله :

فلا تنكروا منها الخضاب فإنمـــا هى الغصن فى أطرافه الورق الخضر

فقد رسم الشاعر صورة جميلة لمحبوبته فجعل قدها كالغصن ، ولما كان الغصن يوحى بالورق الأخضر فقدهيأ له ذلك أن يلتمس تعليلا حسنا للخضاب الأخضر فى كفيها ، فالغصن تنتهى أطرافه بالورق الأخضر ولذا لا مجال لإنكار الخضاب فى يديها لأنها كالغصن الذى ينتهى بالورق الأخضر وهو كما ترى خيال ابتكارى مقيد . وقد ضرب الشاعر فى حسن التعليل بسهم وافر كما نلمس ذلك فى كثير من قصائده ، وأنصت إليه إذ يقول فى مدح الملك الناصر :

أرى كل شىء فى البسيطة قد نمـــا بعدلك حتى قد نمت أنجم السما

تخالفت الأقوال فيه وجمجمـــت ولم نر قولا فى معاليك جمجمـــا

نراك نقلت الرمح فى الأفق راكضا فأبقيت زجا ثم ألقيت لهذمـــــا

فقد نظر الشاعر إلى النجم ذى الذؤابة فى السماء فلم يدرك أن هذا ظاهرة طبيعية فلكية وإنما التمس لها تعليلا خياليا ذلك هو أن هذه الاستطالة وذلك النمو من عدل الملك الناصر ، ثم التمس تعليلا آخر وهو أن البطل صلاح الدين قد رمى برمحه فى الأفق فطار الرمح مسرعاً وانفصل منه الزج وهو طرف الرمح ليكون فى ذيل النجم واللهذم القاطع من الأسنة ، فهذه الذؤابة فى النجم الذى ظهر ليست إلا من أثر الرمح الذى ألقاه الملك الناصر فهو كالصاروخ وهو تعليل خيالى ابتكارى مطلق .ويبدو أن هذا التعليل لم يكفه ولم يرقه فالتمس تعليلا آخر حيث قال :

وذا غلط من فكرتى إذ تخيلت وذا خطأ من خاطرى إذ توهمــــــا

أبوك هو النجم الذى من محله تطلع مشتاقاً إليك مسلمــــــــا

فذؤابة النجم هى يد والده التى مدها إليه من السماء ليسلم عليه ، وهى صورة خيالية أخرى من النوع السابق ، ونلاحظ من هذه العلل التى التمسها ابن سناء ميله إلى الغرابة واختراع المبتكر الفريد .

وكثيراً ما يتسلط عليه خياله الاستدعائى فيشير بكلمة أو جملة إلى قصة تاريخية أوحادثة أدبية أو آية قرآنية . ولعل لثقافته الدينية أثراً كبيراً فى ذلك فيقول فى مدح الصاحب صفى الدين :

وجنـــة مثـــل جنة الخلـــد فى الحســـن ولكـــن بهـــــا الأحبـــة تصـــلى

فالتشبيه فى الأول عادى لا غلو فيه ولا مبالغة ، وهو مألوف لدى السابقين ، ولكنه أشار بقوله بها الأحبة تصلى ، إلى قوله تعالى تصلى ناراً حامية ، وكقوله فى مدح العزيز :

قميصـــك المـــوروث عن يوسف ما جاء إلا صادقاً فى الــــدم

فهو يشير إلى قصة يوسف وتلطيخ إخوته قميصه بدم كذب . وفى نفس القصيدة يشير إلى غزوة بدر فيقول :

هى التى فى يوم بدر جرت لمـــا رمى الله بها من رمـــى

وفيها تضمين لمعنى قوله تعالى : «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» وقوله فى الغزل :

يدافعـــنى عـــن وصـــله بتجهم فياليتـــه لو كان يدفع بالتى

وهو تضمين حسن لأنه أقرب إلى الفهم ويشير إلى مقصده باللطافة والرقة التى لا تخفى على الفطن وقد ضمنه معنى قوله تعالى : «ادفع بالتى هى أحسن» .

وقوله فى رثاء جارية له :

وزارتك غبا كى يحسب مزارها ويا جهلها بالموت فى ذلك الغب

وقد ضمنه معنى المثل السائر : «زر غبا تزدد حبا» .

وكقوله فى مدح القاضى الفاضل :

بل كنت تنقل عزة لكثير فى الحب أو ميا إلى غيلان

وغيلان هو ابن عقبة الثقفى المشهور بذى الرمة ، وقد كان يهوى مية بنت طلبة بن قيس المنقرى .

ويقول أيضا : —

وقالوا اقد آنست ناراً بخده فقلت وإنى قد وجدت بها هدى

فقد اقتبس من القرآن الكريم فى قوله تعالى : «إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى»(١)

ويقول أيضاً : —

فجاءنا المسيح منه بيد الكليم

ففى هذا البيت إشارة إلى قصة موسى وعيسى عليهما السلام وما جرى على أيديهما من معجزات .

خلاصة :

— يميل ابن سناء إلى التجديد والابتكار فى المعانى والصور فيستعين بخياله على الإتيان بصورة مفردة أو مركبة يوضح بها فكرته أحيانا ، ويدل بها على الشعراء الآخرين أحيانا أخرى .

— ينحو بخياله أحيانا إلى ما تركه السابقون من ميراث خيالى فيستمد منه مع إلباسه ثوباً جديداً تارة ، أو اقتباسه كما هو تارة أخرى .

— تشده ثقافته الدينية والنحوية فيغترف خياله منها الفيض الغزير .

— يتخذ من المبالغة والإفراط فى التورية وحسن التعليل وسائل ومواد لخياله .

— لم ينفرد ابن سناء بهذا المسلك فهو من مدرسة الكتاب التى دعا إليها القاضى الفاضل ، والتى جعلت من الغرابة والمبالغة ، والتلاعب اللفظى دعامتها .

أثر الفارسية فى شعره :

كان لاختلاط العرب بالفرس فى صدر الاسلام ، وزيادة هذا الاختلاط وتعمقه وامتداده . (٢) فى العصر العباسى ، والتفاف القادة والوزراء والأدباء من الفرس حول الخلافة العباسية ، ونبوغ العلماء والكتاب من أبنائهم فى علوم الدين واللغة — كان لذلك كله أثر واضح فى الحضارة الاسلامية (٣) والفكر العربى والأدب، شعره ونثره ، من حيث أفكاره وخياله وتعبيره ، ومن حيث ظهور أغراض جديدة كالشعر العربى ، والغزل

---

(١) سورة طه آية : ٢٠ .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية . ف بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر طبع المعارف ص ٩٤ — ١١٤ .

(٣) تاريخ الفلسفة العربية . حنا الفاخورى وخليل الجر : طبع دار المعارف بيروت ص ٢٣ .

بالمذكر والتفنن فى الوصف ، وقد ساعد على هذا التأثير أن نفوذ الفرس السياسى بقى فترة طويلة ، فكانوا هم الحكام الحقيقيين ، وقد دفع التعصب لكل ما هو فارسى الشعراء العرب الذين يرجعون إلى أصل فارسى — إلى الافتخار بأصلهم وبمعتقداتهم حتى جعل ذلك شاعراً (١) كأبى نواس يقلل من شأن العرب فيقول : —

يبكى على طلل الماضين من أسد   لادرّ درك قل لى من بنو أسد

ومن تميم ومن قيس ولفهما   ليس الأعاريب عند الله من أحد

وبشار بن برد تجاهر بزندقته وبانتمائه إلى المجوسية وبانتمائه إلى إبليس ، ويتهكم على العرب فيقول :

إبليس أفضل من أبيكم آدم   فتبينوا يا معشر الأشرار

النار عنصره وآدم طينة   والطين لا يسمو سمو النار (٢)

وقد ظل الفكر الفارسى يترجم إلى العربية ، ويتأثر به الشعراء والأدباء حتى دفع هذا التزاوج عدداً من الأدباء العرب إلى تعلم اللغة الفارسية حباً فى الاطلاع على أناقة اللفظ وجمال التعبير فى لغتهما الأصلية من جهة ، ومجاراة لذوى النفوذ من جهة أخرى نعم إن الدوافع التى دفعت إلى تعلم اللغة العربية والحروف العربية وأوزان الشعر العربية (٣) كانت أقوى لأنها لغة الفتح ، ولغة القرآن ، ولأنها الطريق إلى رضا الخلفاء والأمراء ، ولكن الأدباء العرب أيضا بعد أن اختلطوا بالفرس واتصلوا بالحضارة الفارسية انعكس أثر ذلك على حياتهم ، وشاعت الفارسية بينهم شيوعاً ترك أثره فى تفكيرهم . وتسلل هذا عبر العصور والأزمنة حتى وصل إلى عصر ابن سناء الملك (٤) .

وكان ابن سناء الملك واحداً ممن أتقنوا الفارسية بجانب إتقانهم اللغة العربية حتى استطاع أن يضع خرجات موشحه بلغة فارسية ، وكان المصريون يقلدون الأندلسيين أو يضعون خرجات مغربية ، فلم يتقيد ابن سناء بما تقيد به هؤلاء وقد قال فى كتابه «فصوص الفصول» : «وكنت لما أولعت بعمل الموشحات قد نكبت عما يعمله المصريون من استعارتهم لخرجات موشحاتهم خرجات مغربية، فكنت إذا عملت موشحا لا أستعير خرجة غيرى بل أبتكرها ، وأخترعها ولاأرضى باستعارتها ، وقد كنت نحوت فيها نحو المغاربة وقصدت ما قصدوه ، واخترعت أوزانا وقعوا عليها ، ولم يبق شىء عملوه إلا عملته إلا الخرجات الأعجمية فإنها كانت بربرية ، فلما اتفق لى أن تعلمت اللغة الفارسية عملت هذا الموشح وغيره ، وجعلت خرجته فارسية بدلا من الخرجة البربرية» (٥) فهو يقول فى موشحه الذى مطلعه : —

فى خديك من صبر اللا   ذ ثياب الياسمين

ودع ذا فيا حيرة الواشى   من ذا السحر المبين

---

(١) الشرق الأوسط فى موكب الحضارة ج ٣ ص ١١٢ : محمد منصور أحمد .

(٢) ظهر الإسلام : أحمد أمين : ٤٩ — ٥٧ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية : ص ٩٩ .

(٤) التيارات المذهبية بين العرب والفرس ص ١٤٥ للدكتور أحمد الحوفى طبع الدار القومية للطباعة والنشر .

(٥) راجع فصوص الفصول وعقود العقول ، ١٨٣ العقم والابتكار فى شعر ابن سناء .

حتى يصل إلى الخرجة بعد أن يمهد لها فيقول :—

وخــود كــما شــبت طفــلة كغــصــن مايــس
أرادت أن تكــون خلــة لظــبى كانــس
فلمــا جنــت منــه قبــلة شــدت بالفــارس
دانســتى كى بوســه بمن داد دهــا أنكســتربــن
أواركــواى دســت من باش ببــوســته شــبين

وهذه الخرجة الفارسية بمعنى : «هل تعرف متى قبلنى ؟ إن فمها ... كان شاهدى على هذه القبلة التى منحتنى إياها» . وابن سناء بهذا هو أول من جعل خرجة الموشحة فارسية ، وأول من ألف كتابا فى هذا الفن .

ومن تتبعنا ديوانه وجدنا كثيراً من الكلمات الفارسية والأخيلة الفارسية قد انبثت فى تضاعيف شعره دون تكلف ولا تعمد مما يدل على تمكنه من الفارسية وتعمقه فيها ، وإليك بعض الأمثلة التى تؤيد ما ذهبنا إليه :

قال يمدح القاضى الفاضل :

كيف طاف اللحاظ بستان خد وعليه من صدغه زرفين

فكلمة «زرفين» كلمة فارسية بمعنى حلقة الباب أو كل حلقة ، وقد جعل للخد بستانا ، له باب هو الصدغ وعليه حلقة هى الزرفين وهذا خيال شاع فى الأدب الفارسى .

وكلمة «سبج» معناها فى الفارسية الخرز الأسود . وقد شبه بها العنبر فقال من قصيدة غزلية مطلعها :

بحقاك حدث عن هواى ولا حرج هوى دخل القلب المعنى وما خرج

قال :

نه سبج من عنبر فوق خده وتصحيفها فى عارضى وجهه سبج

وكلمة «عجة» كلمة فارسية معربة ومعناها الطعام المصنوع من البيض ، وقد استعمل هذه الكلمة حين هجا الرضى فقال :—

رأيت الرضى ومــا نــاه وما سلب الدهــر من بهجته
فأشبعنا الله من هجــوه وجــوعنا الله مــن عجــته

وفى مقطوعته التى وصف فيها المنظرة يقول :—

وفى الصدر شاذروانها جفن ملعب لعفرية آثار طــيف وأبطــل

فالشاذروان بمعنى «الفواره» أو «النافوره» وهى كلمة فارسية . وكلمة «مواخير» كلمة فارسية معربة جمع ماخورة وهى حانة الخمر وبيت القمار فقال :—

أقــامــوا بالمــواخــير مطــايبعــا مســـاخــير

وكلمة «نوروز» كلمة فارسية معناها يوم جديد . «ومهرجان» عيد الفرس وهو اليوم السادس عشر من «مهرماه» وذلك عند نزول الشمس من أول الميزان . فيقول من قصيدة مدح بها الملك العادل أبا بكر بن أيوب :

وشب لهيب القلب إذ فاض مدمعى　　　فورز طرفى إذ رأى القلب مهرجا

وهو يريد باليوم الجديد هنا أنه يوم حظ وتنزه .. «ونورز» الرجل استخفى من فزع .

وكلمة «دسكرة» بمعنى الصومعة وبيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهى . وقد جاءت فى قوله :

وهى للحسن جامع　　　وهى للسكر دسكره

وكلمة «رستاق» كلمة فارسية بمعنى السواد والقرى ، «فرسته» معناها الطريق ، وهو يقول : —

خيم فيه ملك　　　له الجسوم رستاق

و «الفرصاد» هو شجر التوت الأحمر ، وقد شبه به حمرة خد الحبيب فقال :

قل لخد الحبيب عنى إنى　　　غير صاد لحمرة الفرصاد

و كان شعراء الفرس يظنون أن الكتان يبلى فى الليالى المقمرة ، فأخذ ابن سناء منهم هذا المعنى وأتى به فى قوله :

أبليت جسمك يا مليح ضنى　　　فالجسم كتان وأنت قمر

ومن صوره الخيالية التى رجع فيها إلى ثقافته الفارسية قوله : —

لم أنس إذ خدى على خده　　　فجاء من دمعى فوجات

فقال كف الدمع عن وجنة　　　فيها من الزخرف آيات

قلت ولم يا قاتلى قال لى　　　لا يدخل الجنة قتات

فالمعنى : لما كان خدى على خده ، وأحس ببلل دمعى على خده قال لى : اكفف الدمع عن وجنتى لئلا يمحو الآيات المزخرفة والموشحة عليها ، ولما سألت سبب هذه الممانعة أجاب : إن خدى كمثل الجنة ودمعك المنسجم بمنزلة القتات والنمام الذى ينم عن العشق ؛ وقد ثبت فى الحديث الشريف «لايدخل الجنة نمام» فعليك أن تكشف دمعك بالوصول إلى وجنتى . فهذه الصورة الشعرية غير مألوفة فى الشعر العربى بينما ترددت كثيرا فى الشعر الفارسى وقد تأثر بها الشاعر على هذا النحو (١)

---

(١) ١٢٠ الديوان المطبوع تحقيق: محمد عبد الحق طبع الهند.

« الموشحات وأثره فيها »

يروى تاريخ الأدب أن بلاد الأندلس هى المنبت الأول لفن الموشحات وأن غيرهم من أبناء العرب قد تعلموا هذا الفن على أيديهم، وكان لحياة الترف والنعيم ، والاستمتاع بمباهج الحياة وزينتها ، والشغف بالطرب والغناء ، وتشجيع الملوك والأمراء كان لهذا كله أثر كبير فى نشأة هذا الفن ، فظهر فى أواخر القرن الثالث الهجرى واكتملت معالمه فى القرن الرابع الهجرى ، وعرفه الشرق بعد ذلك ، ونبغ فيه ابن سناء الملك فى القرن السادس .

يختلف نظام الموشحة عن نظام القصيدة اختلافا كبيراً ، فالقصيدة تتفق فيها الأبيات فى وزنها وقافيتها ، ويتكون كل بيت فيها من شطرين ، وهى تؤدى نغماً موسيقيا مؤتلفا موحداً من أولها إلى آخرها .

أما الموشحة فتتألف من مقطوعات تنقسم بدورها إلى قسمين : أقفال وأبيات والموشحة التامة هى التى تبدأ بالأقفال ، وهى أجزاء مؤلفة من مقطعين أو ثلاثة ، وتتكرر ست مرات ، يفصل بين كل قفل منها بيت ، ويشترط أن تتفق الأقفال المتكررة فى الوزن والقافية . وتتكرر الأبيات فى الموشحة خمس مرات ، ويشترط أن يتحد بعضها مع بعض فى الوزن ، وعدد الأجزاء ، ويستحسن أن تختلف فى قوافيها .

وإذا بدئت الموشحة بالبيت سميت «قرعاء» . وسوف أوضح ذلك بموشحة الأعمى التطيلى الأندلسى من وشاحى القرن السادس الهجرى وهى من الموشح التام قال (١) :

ضاحك عن جمان ، سافر عن بدر ، ضاق عنه الزمان ، وحواه صدرى (١) (قفل)

آه مما أجد — شفنى ما أجد
قام بى وقعد — باطش متئد (١) (بيت)
كلما قلت قد — قال لى أين قد

وانثنى خوط بان ، ذا مهز نضر — عابثته يدان ، للصبا والقطر (٢) (قفل)

ليس لى منك بد — خذ فؤادى عن يد
لم تدع لى جلد (٢) — غير أنى أجهد (٢) (بيت)
مكرع من شهد — واشتياقى يشهد

ما لبنت الدنان ، ولذاك الثغر — أين محيا الزمان ، من حميا الخمر (٣) (قفل)

بى هوى مضمر — ليت جهدى وفقه .
كلما يظهر — ففؤادى أفقه (٣) (بيت)
ذلك المنظر — لا يداوى عشقه

بأبى كيف كان ، فلكى درى — راق حتى استبان ، عذره وعذرى (٤) (قفل)

---

(١) راجع ٢٧ دار الطراز : ١٧٦ ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار .

(٢) هكذا فى الأصل والتحقيق فى دار الطراز ، وكان النصب واجباً (جلداً) .

هل إليك سبيل ... أو إلى أن أيئسا
ذبت إلا قليل ... عبرة أو نفسا (٤) (بيت)
ما عسى أن أقول ... ساء ظني بعسى
وانقضى كل شان ، وأنا أستشرى ... خالعا من عنان ، جزعى وصبرى (٥) (قفل)
ما على من يلوم ... لو تناهى عنى
هل سوى حب ريم ... دينه التجنى (٥) (بيت)
أنا فيه أهيم ... وهو بى يغنى
قد رأيتك عيان ، ليس عليك ساتدرى ... سايطول الزمان ، وستنسى ذكرى (٦)
(قفل أخير ويسمى خرجة)

ولقد انتهت هذه الموشحة بالقفل الأخير ويسمى «خرجة» وقد رأيت أن الوشاح لم يستعمل فى الخرجة اللغة العربية الفصحى ، لأنهم كانوا يفضلون استعمال العامية ، أو الأمثلة الشعبية ، وأحيانا يستعملون الكلام المرذول أو السخيف ، ولا يستحبون استعمال العربية الفصحى فى الخرجة إلا إذا كان موشح مدح .

وقد اشترطوا كذلك التمهيد للخرجة فى البيت السابق لها بحيث يجعل الخروج إليها وثبا ، واستطراداً، وقولا مستعاراً على بعض الألسنة ، كما لابد أن يشتمل البيت الأخير على كلمة قال أو قلت ، أو غنى أو غنيت ، أو غنت .

وقد وجد ابن سناء فى الموشحات تزكية لنفسه وتفتيقاً لذهنه ، فهام بها عشقا ، وشغف بها حبا ، ومال إليها منذ نشأته الأدبية حيث أخبرنا بذلك فقال : «كنت فى طليعة العمر ، وفى رعيل السن ، قد همت بها عشقا ، وشغفت بها حبا ، وصاحبتها سماعا ، وعاشرتها حفظا ، وأحطت بها علما ، واستخرجت خبياها ، واستطلعت خفاياها ، وقلبت ظهورها وبطونها ، وعانقت أبكارها وعونها ، وغصت على جواهرها المكنونة ، وتخطيت من أخبارها المعلومة إلى أسرارها المكتومة ، ولبثت فيها من عمرى سنين إلى أن عرفت أن معرفتها تزكية للعقل ، وتعديل للفهم ، وجهلها تجريح للطبع ، وتفسيق للذهن» . فكان ابن سناء يهيم بكل جديد ، ويغرم بكل مبتكر فريد ، ويلذ له أن يخترع عليه ويزيد . ولذلك لم يكفه أن علمها ، وعرف قواعدها وأصولها ، وجيدها ورديئها وإنما وضع فيها كتاباً اتخذ له اسما يناسبها ، ويليق بها ، وينسجم معناه مع طبيعتها ، فأسماه «دار الطراز» .

منزلة ابن سناء بين الوشاحين :

لقد حدثنا ابن سناء نفسه فى دار الطراز عن مدى ما وصل إليه فى هذا الفن ، وأنه قد نسج فيه على منوال المغاربة ، فسار سيرهم وحذا حذوهم ، بل إنه كان متواضعا حين بين أن موشحاتهم هى الأصل وموشحاته هو كظلها فقال : «وكيفما كان فموشحاتى تكون لتلك الموشحات كظلها وخيالها ، وأشهد أنها ناقصة عن قدر كمالها ، وها أنت تراها فى الورق من الغرق متعلقة بأذيالها ، وما ذكرتها إلا لأن دار الطراز كما تقدم يكون فيها الحريرى والمذهب ، والساذج والمعلم ، فذكرت من موشحاتى الحريرى بل الساذج ، وإن لم يكن معلما فدحرج واعبر ولا تعرج» . وقد طلب أن نلتمس له العذر لأنه نشأ فى بيئة غير بلاد الأندلس تلك التى نشأت

فيها الموشحات : «واعذر أخاك فإنه لم يولد بالأندلس ، ولا نشأ بالمغرب ، ولا سكن أشبيليه ، ولا أرمى على مرسيه ، ولا عبر على مكناسه ، ولا سمع الأرغن ، ولا لحق دولة المعتمد وابن صمادح ، ولا لقى الأعمى ، وابن بقى ، ولا عبادة والحصرى ، ولا وجد شيخا أخذ عنه هذا العلم ، ولا مصنفا تعلم منه هذا الفن ، فإن رأيته قد نهض به طبعه ، وأخذ بيده ذهنه ، وأضاء له خاطره ، وهدته قريحته إلى الطريق ، ومشى فيها بلا دليل ، واستأنس بلا رفيق ، وجد إلى أن وجد ، وطلب إلى أن غلب ، فلا تجحد حقه ، واعرف له وزن فهمه ، ولطف ذهنه ، وحسن ذوقه ، وحسن غوصه ، وبعد غوره ، وقدر همته ، وإن رأيت تعليمه لك نعمة فاعرف له قدر نعمته ، وإن رأيت خطأ فكن له ساترا ، ولصاحبه عاذراً ، أو رأيت صوابا فكن له شاهراً ، ولفاعله شاكراً (١) .

فابن سناء وإن كان قد اعترف بادئ ذى بدء بأنه نسج على منوال المغاربة والأندلسيين إلاأنه يرى أنه بذّهم وفاقهم بعد أن عرف ذلك وتعلمه منهم ، ولا ينبغى أن نغمطه حقه ، أو ننكر عليه سبقه .

ونحن نتساءل هل أجاد ابن سناء فى الموشحات حقاً ؟ وهل بز المغاربة والأندلسيين وفاقهم ؟ فلنستمع أولا لرأى أستاذه القاضى الفاضل فى موشحاته : —

رأى القاضى الفاضل :

كتب ابن سناء بعض الموشحات فى مدح القاضى الفاضل ، واطلع القاضى الفاضل على تلك الموشحات وموشحات غيرها ، وأبدى رأيه كعادته فيها ، وقد حوى دار الطراز بعض هذه الآراء .. لقد كتب ابن سناء إحدى الموشحات المسماه بالموشح الجلنارى ، وقفله يتألف من ست فقرات ، كل اثنتين منها على قافية واحدة فكان أشبه بالمزدوج منه بقفل الموشح ومطلعه وهو القفل الأول : —

صرف كأسى جلنـــاره (٢) . وهى بالمزج بهاره
فأدرهـــا واسقنيها ، فى هـــوى من ريـــق فيـــها؛
ن شـــراب الكـــأس أحـــلى ، ولهـــــذا صـــار أغـــلى

وقد كتب فى ذلك القاضى الفاضل فقال : «ووقفت فيه على موشح الجلناره ، فكان أحسن من الموشح الجلنارى ، الذى وقع زينة أعياد الخلفاء سابقا ، وأفضل فى نفاسة الجملة وفضيلة البقاء ، وما ينفك القاضى يغايظنا بهذه الملح ، وتومض عنه بروق تلك اللمح ، وكم سألناه إباحة معاقلها ، وجلاء عقائلها ، فيمتنع بها عن مواضع الفضل ، وإنما يمتنع من يخاف التبذل من البذل ، ومحاسنه لا يخاف عليها الملال ، ولا يتطرق إليها الابتذال ، ولا يختلط بزها ببز ، ولا يوقع على مفصلها بجز » (٣) .

وكتب ابن سناء الملك موشحاً آخر فى مدح القاضى الفاضل مطلعه :

« دانت لى الدنيا وواصل الوصلا »

ولما وصل القاضى الفاضل قال فيه : « وصل التوشيح الذى مدحنى به القاضى السعيد ، فحلانى منه

(١) راجع دار الطراز : ٤٠ .
(٢) زهر الرمان .
(٣) فصوص الفصول : ١٧ .

بالعقد الموشح ، وجعلنى به الراجح لا المرجح ، وما اكتفى بأن أخمل العرب حتى أخمل البربر ، ولا أن شاركهم فى لغتهم حتى جعل نصيبهم الأصغر ونصيبه الأكبر . فبخ بخ للبيت الذى شدت به دعائمه ، وقامت بمحاسنه إلى يوم القيامة قوائمه ، فو الله لقد أبقى لكم يا سلفه بذكره ذكراً فى الغابرين ، ولسان صدق فى الآخرين ، ومن ولده فما يموت ، وسيبقى بأقواله بيته إذا خربت البيوت ، وكل بيت لا يلد مثله فهو أوهى وأوهن من بيت العنكبوت (١) فالقاضى الفاضل يرى أن ابن سناء قد فاق فى هذا الموشح العرب والبربر ، بل والأندلسيين .وأمام هذا الرأى سنقف لنوضح رأينا فى نهاية هذا المطاف .

الموشحات والغناء :

ويقول ابن سناء إن موشحاته كانت تغنى ، وكان يعرفها الرجال والنسوان ، وتترنم بها الشيوخ والشبان ، فكتب إلى القاضى الفاضل يقول له عن موشحه : « إن أقدامه لو لم تسيره إلى موضع مولاه سار اليه بأفواه الأنام ، وما ترنمت به ألسنة الأيام ، لأن كل موشح عمله المملوك فى مولاه قد طار ، وطبق الأقطار ، وسرى وسار ، وعاد سلك در المسار ، وأديرت عليه الأكواب ، وخرقت فيه الثياب ، وشدا به الرجال والنسوان ، وترنم به الشيوخ والشبان ، وصار تحفة الجليس وتحية الندمان :

وسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرداً

وكم من عروس غنى به فلها عن عرسه ، ومجلس شدا فيه فألهى النديم عن كأسه وأنسه . وكم صوفى سمعه فقام إلى لهوه من قعوده ، وعواد غنى به فرأى فى النطوق غاية سعوده من عوده ، وما سارت هذه الموشحات لحسنها ولا سيرت ، ولكن لإحسان من توشحت بذكره وتصورت ، ولا عبق نشرها لطيبها وإنما لفضل من تمسكت بحديثه وتعطرت ، وما عظّم الناس قائلها إلا لعظم من قالها فيه ، ولا أطرب حديثها الأسماع إلا لأن مدح مولانا من قوافيه :

وإذا الفتى المدوح أنجح سعيه فى نفسه ونداه أنجح شاعر

ولكن هل كانت تغنى موشحاته حقاً ؟ وهل ظفرت موشحاته فى حياته بتلك المنزلة التى حدثنا عنها لقد حدثنا « صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى » فى كتابه « توشيع التوشيح (٢) » عمن اشتهر بفن التوشيح من أهل البلاد فقال ومن أهل الديار المصرية القاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك ، وهو حامل راية هذه الصناعة ، والناس عليه فيها عيال » ، وذكر غيره من الشعراء الذين عرفوا هذا الفن مثل : نصر الدين بن قلاقس الاسكندرى ، والأسعد ابن مماتى ، وابن وزير ، وابن المنجم ، والسراج الوراق ، وابن سعيد بن المغربى ، ومظفر الأعمى وغيرهم من شعراء الشام ، ولكنه لم ينعت أحداً منهم بما نعت به ابن سناء .

وكذلك قال أبو الحسن على بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥هـ فى كتابه « المقتطف من أزاهر الطرف » فقد أثنى على ابن سناء الملك ولم يثن على أحد غيره من المشارقة ، فقال : « وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات ، فأحسن ماوقع لهم من ذلك موشحة ابن سناء الملك المصرى وقد اشتهرت فى الشرق الغرب . ومطلعها :

---

(١) راجع فصوص الفصول ورقة ١٤ .

(٢) راجع : ١٩٢ : ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار نقلا عن مخطوط الاسكوريال رقم ٤٣٨ .

حبيبي ارفع حجاب النور ، عن العذار
يقطر بمسك على كافور ، فى جلنار

ولكنه لم يثن على غير هذا الموشح من موشحاته .

وبعد : فإننا حتى الآن لم نشف غلة القارىء ولم نصل إلى حكم صحيح بالنسبة لموشحات ابن سناء ، وهل كان كما قال هو عن نفسه أوكما قال القاضى الفاضل فيه ، أ وكما نعته الصفدى وابن سعيد ؟

للإجابة عن هذه التساؤلات يجب أن نعرض بعض النماذج له ولوشاحى الأندلس الذين حذا حذوهم ثم بعد ذلك نصل إلى الحكم الصحيح :

قال الأعمى التطيلى وهو من الأندلس :

عاش فى مبدأ القرن السادس الهجرى

ضاحك عن جمان ، سافر عن بدر ، ضاق عنه الزمان ، وحواه صدرى

آه مما أجـــد   شفنى ما أجـــد

وقد سبق أن ذكرنا هذه الموشحة كلها ، وهى من الموشح التام وقد نسج ابن سناء على منوالها فقال : « وهو من الموشح التام »

من أين يا بدوى الترك ، أتيت من أين ، — أراه يا هند أحلى منك ، فى القلب والعين
أين لهذا القوام المايـل — وأين ذاك العذار السايل
قد نقصت وهو بدر كامل — ووردة ناضر فى ذابـــل
والعقد فى فيه مثل السلك ، وقده لين — وخصره بالضنا والضنك ، ينقد نصفين
معذبى طيب التعـــذيب — كنه الملاحة معنى الطيب
يشب فى وصفه تشبيبى — سوى الغرام به يغرى بى
فلا تكن فى الهوى فى شك ، إن الهوى شين — إلا هواه عدو النسك ، فإنه زين
يأيها البـدر فى إشراقـــه — ومطلع الشمس فى أطواقه
يأيها الغصن فى أوراقـــه — يا من تجنى على عشاقه
رميت أستارهم بالهتك ، فى موقف البين — بالسفح أدمعهم والسفك ، والعين كالعين
إن الذى منك أحيا قتلى — نصل بعينيك لا كالنصل
يسل من كحل لا كحل — والسحر فيه مكان الصـقل
ترجى الحياة به بالفتك ، والعيش بالحين — ملكت منه سرير الملك ، بالحق لا المين
هيهات مالى عنه مهرب — صادف منه غليلى مشرب
فاسمع لما قد جرى واطرب — وإن شربت عليه فاشرب
دفع لى بوسه فميم المسك ، فبستوثنتين — لولا تخاف أنه ، منى يبكى لبستوميتين

فقد سار ابن سناء على منهج الأعمى التطيلى فى هذا الموشح فبدأ بالقفل ، وانتهى به ، وكرر البيت خمس مرات وهذا هو الموشح التام . وقد عنى بإبراز الصفات المادية لبدوى الترك الذى هام به فغلب على غزله الطابع المادى الذى أبرز فيه قوامه المايل ، وعذاره السايل ، وبدره الكامل وورده الناضر ، وقده اللين ، وخصره الناحل :. وختم الأبيات بالكلمات العامية .. وقد زاد عن الأعمى التطيلى فى إبراز تلك الصفات المادية ، بينما أبدى التطيلى لهفته العارمة ، وهواه المضمر ، وتعلقه به ، ورغبته فى لقائه ، وأمانيه الشديدة فى الوصول إليه ، وسوء ظنه فى الرجاءات المستمرة .. وهذا هو الفارق الأساسى بينهما .. أما الشكل والطابع العامين فواحد فيهما .

وقال عبادة بن ماء السماء ، وهو شاعر أندلسى لمع نجمه أثناء حكم العامريين توفى سنة ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م(١)

بأبى علـــق بالنفس عليــق

هويت هلالا ، فى الحسن فريداً أعار الغزالا ، ألحاظا وجيـدا

وتاه جمالا ، لم يبغ مزيـدا بدر يتلألأ ، فى حسن اعتدال

زانـه رشق والقـد رشيق

بدر يتغلب ، بالسحر المبـين عذار معقرب ، على ياسمين

سوسان مكتب ، بورد مصون لما لاح يسحب ، ذيول الجمال

عن لى خلق بالعشق خليـق

جفانى يعيش ، لوقفى عليــه لو بالنفس ريش ، لطرت إليـه

للحسن جيوش ، على مقلتيـه واللحظ المريش ، بالسحر الحلال

فلـه مشـــق والقلب مشـوق

تعمد هجرى ، مذ دنت بوده وبددت صبرى ، على طول صده

ماء الحسن يجرى ، بصفحة خـده ثناياه تزرى ، بنظم اللآلى

فمـه حـق يا لاثم حقيـق

لما أن تسربل ، ثوب الحسن زياً أردت أقبل ، لماه الشهيـا

فقال تمثل ، بالشـعر أبيـــا ومال تدلل ، بأحلى مقــال

أنا قول قوقــو ليس بالله تذوقوا

وهذه موشحة شاذة فى نسجها لأن أقفالها قد اختلفت فى وزنها ، فالقفل الثانى والثالث قد اتحدا فى الوزن ولكنهما خالفا الأول والرابع ، ولهذا عدها ابن سناء من الموشحات الشاذة .

والواقع أنه خالف فى ذلك نفسه إذ يمكن وضعها تحت القسم الثانى الذى لا مدخل لشىء منه فى شىء من أوزان العرب (٢) ، وحينئذ لا يكون ثمة معنى لوصفها بالشذوذ . وقد أورد ابن سناء موشحا مبدوءا ببيت من الشعر (٣) ، ونسج على منواله فى البدء ببيت من الشعر وسنورد كلا منهما .

(١) راجع المقريزى ج ١ ص ١٨٧ ، الذخيرة لابن بسام ج ٢ ص ١ – ٣ ، ودار الطراز : ١٥٢ .

(٢) دار الطراز ص ٣٥ .

(٣) نسب بعض مؤرخى الأدب هذه الموشحة لابن المعتز ولكن ابن سناء أوردها على أنها موشحة أندلسية ولم ينسبها لقائلهـا .

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت فى غرته
وشربت الراح من راحته
كلما استيقظ من سـرته
جذب الزق إليه واتكى(١) وسقانى أربعاً فى أربع
ما لعينى عشيت بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبرى
عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعض معى
غصن بان مال من حيث التوى
مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الأحشاء موهون القوى
كلما فكرنى البين بكى ويحه يبكى لما لم يقع
ليس لى صبر ولالى جلد
يا لقومى ، عذلوا واجتهدوا
أنكروا شكواى مما أجد
مثل حالى حقه أن يشتكى كمد اليأس وذل الطمع
كبد مرى ودمع يكف
يعرف الذنب ولا يعترف (٢)
أيها المعرض عما أصف
قد نما حبك عندى وزكا(٣) لا تقل فى الحب إنى مدعى(٤)

وقد نسج ابن سناء موشحاً شعرياً أيضاً جعل قفله بيتا من الشعر فقال :

يريك إذا تلفت طرف شادن سقيما وعما عنه تبتسم المعادن نظيما
براه الله من حسن وطيب حبيب كل ما فيه حبيب
أعاد شبيبتى بعد المشيب وأمسى مسقمى وغدا طبيبى
وخيم فى ضمير القلب ساكن مقيما ولم تزل القلوب له مواطن قديما
جفتنى كل لائمة ولائم عليه لأن عذرى فيه قائم

---

(١) وفى العروض العملى لنهاد التكريتى : « الكأس» ص ٩٢ .

(٢) وفى العروض العملى لنهاد التكريتى : « يذرف الدمع ولا ينذرف » ص ٩٣ .

(٣) وفى المصدر السابق : « قد نما حبى بقلبى وزكا .. » ص ٩٣ .

(٤) دار الطراز ٣٣ – ٧٣

وريم مايس العطفين ناعم نعمت به وأنف الدهر راغم
بغصن أجتنى منــه ولكن نعيما يحييني بهاتيـك المحاســن نديما

يذكرنى المدام فأشتهيــها وأشربها فتسكرنى يديهــا
كأن حبيب قلبي كان فيها وتجعلنى رشيداً لاسفيهـــا
تحرك من شمايلى السواكن كريما وتحيي من مسراتى الدفاين رميما

يطوف بها على أغن أحوى يراه الصب عطشان فيروى
ومن جحد الهوى كبرا وزهوا فإني والهوى قسما لأهــوى
غزالا فاتر الأجفان فاتن وسيما عليه رونق للحسن باين وسيما

يجرد طرفه وهو المشيح سكاكينا تبيح وتستبيح
لها فى كل جارحة جروح فكم جرحت وأنشدت الجريح
أيا من لم تدع منه السكاكين سليما متى تغدو بعشاق مساكن رحيما (١)

وقد لوحظ أن الأبيات من وزن واحد هو الوافر « مفاعلتن مفاعلتن فعول » أما الأقفال فقد زاد فيها على الوافر تفعيلة فى آخر كل شطر منها فأصبحت أجزاؤه ثمانية بدلا من ستة مع ارتكاب مخالفات فى الوسط كالتسكين والحذف مما أخرجه عن الوزن ، وأفقده النغم الموسيقى المألوف .

وقد مدح ابن سناء القاضى الفاضل ببعض الموشحات . ووضعها تحت عنوان « مخترع الأوزان » ، بمعنى أنه اخترع أوزانا لم يسبق إليها من الأندلسيين فقال يمدح القاضى الفاضل :

أرى نفسى لقلبي واهبه ، ولم تحفل بحسن العاقبة ، فأحداق المها
أشارت بالغــرام ، وعصــيان المــلام
فقالت مهجتى ، نعم يا منيتى ، نعم أنت التى
بها دار الهدى دار النعيم ، ومن أسقامها برء السقيم

أتانى اللوم فيهم ثم زال ، وصاد جوانحى منهم وصال
غزال منه يغتاظ الغزال ، ومنه ناله ذاك الهزال
وشمس الأفق منه شاحبة ، وقد يغنيك عنها غايبه ، وينسيك اسمها
كذا بدر التمام ، تراه بالسقــام ،
كئيب الوجنة ، كثير الكلفة ، قليــل البهجة
وتحسب أن عرجونا قديم ، كغصن فى غلايله قويم

سقانى من أنامله بكاس ، وحيا من عذاريه بآس
وماس فغاب عن كل باس ، وبى ما غاب عنه أبو نواس

---

(١) دار الطراز : ١١٠

فخذها منه شمساً ذايبه ، وقبلها شمولا شايبه ، ودع من ذمهـــا

فما يحيي سوى شرب المدام ، ودر القهوة ،
وأصـــل النشأة ، ببعض النشوة ،
فلا تشرب سوى كأس النديم ، ولا تمدح سوى عبد الرحيم
وزير ما عليه من وزير ، كبير فضله فضل كبير
يسر الدست منه والسرير ، وسلني قد وقعت على الخبير

له نعم تراها راتبه ، تطوقها الخلايق قاطبه ، ويبقى وسمها

بأعنـــاق الأنام ، كأطواق الحمـــــام
وكم جود فتى ، يجي في العسرة ، ويأتي كالآتي
بأمره يقيم ولا يريم ، فيشهد أن صاحبه كريم
أتى منى الموشح لا القصيد ، يهنيه بذا العام الجديد
فدام له به الظل المديد ، وجد الأولياء به سعيد

وآمال الأعادى خايبه ، تسير جحيم غيظ لاهبة ، وتبدى همها

وعمر ألف عام ، بعز لا يرام ، رفيع الذروة
عزيز القـــدره ، قـــدير العـــــزه
تبلغه السعادة ما يروم ، وتجرى بالذى يهوى النجوم
ومشغوف يعض بنانتيه ، بغانية معشـــقة إليـــه
رماها الدهر يوما فى يديه ، فغناها بما رقصت عليه

يا نانا المليحه غالبه ، يا نانا لقلبى سالبه ، شـــكتنى لمـــها

وقالت ذا الغلام ، لقينى فى الظلام
فقطع شفتى ، وخرق حلتى ، وخزق حزتى
وما أصبح فى ما نقدر نقوم ، فنستعدى على هذا المشوم (١)

بعد هذا الاستعراض ينبغى أن نجيب على ما قدمنا من أسئلة ، ونقف على نواحى التجديد التى أتى بها ابن سناء الملك فى موشحاته .

أما ماذكره من أن موشحاته كانت تغنى فلا نستطيع أن ننقض هذا القول لأننا إذا تتبعنا الخيال الشعرى فى هذه الموشحات ، وتقسيمها إلى فقرات قصيرة ، وتنوع الأوزان والقوافى فيها أدركنا أنه كان صادقا فيما ادعاه ففيها جهد فنى وصنعة ونحو ذلك مما كان يتنافس فيه شعراء ذلك العصر وكتابه و قد شهد له بهذا السبق عدد من المؤلفين كما ذكرنا سابقا . فموشحته التامة التى يتغزل فيها ببدوى الترك ، وتدفعه اللهفة أن يسأل من أين أتى ، ويجده أحلى

---

(١) راجع دار الطراز ١٢٠ :

من هند فى القلب والعين ويتغزل فى قوامه المايل ، وعذاره السايل، ووردة الناضر ، وقده اللين ، وخصره الناحل ، ويذكر تعذيبه الجميل له ... ثم ينتهى إلى مناجاته بأنه البدر فى إشراقه والشمس تطلع من أطواقه، وكأنه الغصن اللين فىأوراقه ، وأنه تجنى على عشاقه وهتك أستارهم،ساعة الفراق،فسمحوا دموعهم ، وكانت عيونهم كالعين الجارية وجعل عيونه ينفذ منهاالسهام القاتلة كالنصل ،والكحل فيه قائم مقام الكحل ، والسحر فيه مكان الصقل .

وانتهى إلى خرجة جميلة فقد دفع له بوسه فباسه بوستين ولولا الملامه وخوف بكاه لباسه ميتين .

فلا شك أن هذه المعانى مماتحسن فى الأغانى والأناشيد ، وتجمل بها التغريد والترديد ، وهى صالحة اليوم فى وسط الزحام من الشعر العاطفى الذى يغنى اليوم ويردد لأن تغنى وتجد المعجبين والمصفقين. والملاحظ أنه جرى فى هذه الموشحة على نمط الوشاحين الأندلسيين ، وأن موشحاتهم كماهو معروف كانت تغنى وتردد ، وأن أوزانها والتنويع فى مقاطعها وفى قوافيها كان يساعد على هذا الغناء،ولذا كانت معظم موشحاته – التى جرى فيها على نمط الموشحات الأندلسية – تغنى .

أما موشحاتهالتى اخترعها والاختراع عنده كان شكليا لا أساسيا فهو قاصر على الزيادة فى بعض الفقرات ، والتغيير فى الخرجة . فقد أحصى بعض الموشحات فوجد أن القفل فيها لا يزيد عن ثمانية مقاطع فزاد فيه حتى وصل به إلى عشر مقاطع كالموشحة التى مدح بها القاضى الفاضل فقد بدأها بالقفل التالى وهو مكون من عشر مقاطع :
(١) أرى نفسى لقلبى واهبه . (٢)ولم تحفل بحسن العاقبة . (٣) فأحداق المها . (٤) أشارت بالغرام .
(٥) وعصيان الملام .(٦) فقالت مهجتى .(٧) نعم يا منيتى. (٨) نعم أنت التى . (٩) بها دار الهدى دار النعيم .
(١٠) ومن أسقامها برء السقيم .

وقد كرر هذا القفل ثمان مرات ملتزماالقافية وإن خالف فى عدد كلمات المقطع أحيانا فانظر القفل الثانى :

(١) وشمس الأفق منه شاحبه .(٢) وقد يغنيك عنها غايبه .(٣) وينسيك اسمها .(٤) كذا بدر التمام .
(٥) تراه بالسقام .(٦) كثيب الوجنة . (٧) كثير الكافة.(٨) قليل البهجة .(٩) وتحسب أنعرجونا قديم .
(١٠) كغصن فى غلايله قويم .

فقد تكرر القفل على هذا النحو متحداً فى الفقرات العشر من جهة ، وفى القافية التى ينتهى بها كل مقطع من جهة أخرى ، ولم يقع ابن سناء فى الموشحات التى تركها الأندلسيون على مثل ذلك ، فالتجديد عنده فى الكم . أما من ناحية الوزن فقد جعل أساس هذا الوزن هو بحر الوافر – مفاعلتن – مفاعلتن – فعول . ومنه جاءت الأبيات وكذلك الفقرتان الأوليان والأخيرتان من القفل . وقد سكن كل قوافيه فتصير « فعول » بتسكين اللام ، وإذا لم يوجد المد تصير « فعل » بحركتين وسكون. وهذا الوزن لاشك أنه لا يحول بين الموشحة وغنائها بل إن الفقرات القصيرة وما فيها من تنوع وإن كانت مقاطع القفل كثيرة تساعد على الغناء .

بقى أن نشير إلى خرجة هذه الموشحة وكان ابن سناء يعنى بالخرجة لأنها أهم مافى الموشح وهى كماقال :

« العاقبة وينبغى أن تكون حميدة ، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة ، وقولى السابقة لأنها التى ينبغى أن يسبق الخاطر إليها ، ويعملها من ينظم الموشح فى الأول ، وقبل أن يتقيد بوزن أوقافية، فكيف إذا ما جاءه اللفظ

والوزن خفيفاً على القلب أنيقا عند السمع .. بنى عليه الموشح لأنه قد وجد الأساس ، وأمسك الذنب ونصب عليه الرأس »(١).

وقد وجدنا أن ابن سناء قد مهد للخرجة بهذا البيت :

ومشغوف يعض بنانتيه بغانية معشقة إليه
رماها الدهر يوماً فى يديه فغنّاها بما رقصت عليه

وقد خالف ابن سناء ما شاع عند الأندلسيين من أن المرأة هى التى تغنى فجعل الرجل هو المغنى وجعل المرأة ترقص على هذا الغناء . وقد كانت الخرجة شكاة من الرجل لأمه التى عبر عنها« بنانا » . فشكا لأمه أن محبوبته غالبة ، وأنها سلبت لبه ، ومع ذلك شكته لأمها قائلة لها : إن هذا الغلام ، قابلنى فى الظلام ، فقطع شفتى ومزق حلتى ، وقطع حزتى ، وما اقدرتش أقوم ، وأدفع هذا المشئوم .

وعلى حسب ما وضع ابن سناء للخرجة من شروط ، وأنها تكون بالعامية ، وأنها هى قمة الموشحة فإن هذه الخرجة – على الرغم مما يراه الدكتور الأهوانى من أنها مسروقة – إلا أنها صورة شعبية طريفة ، وأنها تعطى الموشحة جمالا فى التنغيم والترديد ، وأن ماورد مشبها لها على لسان ابن بقى كقوله :

قم فاستمع لحود كعاب
تشكو الذى اقتضى من عتاب
تمزيق شعرها والثياب

ففرق واضح بين هذه وتلك وإن كانت هذه أوحت بالفكرة إلا أن التعبير والاسترسال فى المعنى والتفريع عليه ، واللقاء وتمزيق الثياب ، وخرق الحزة وغير ذلك فهو من المبتكر الجميل .

ولا نستطيع أن نغمط ابن سناء حقه فى عصر وفى ظروف لم يستطع غيره أن يصل فى هذا الفن إلى ماوصل إليه ، وبالطبع لن تكون موشحاته فى قوة الموشحات الأندلسية ولا فى روعتها ولكنها على أى حال ثمرة شهية فى مصر فى ذلك التاريخ ، ويكفى أنه فتح الطريق لمن أتى بعده كنصر الدين بن قلاقس ، والاسكندرى والأسعد بن مماتى ، وابن وزير ، وابن المنجم ، والسراج الوراق ، وابن سعيد المغربى ، والنصير الحمامى ، ومظفر الأعمى .. فكل هؤلاء فيها عيال وهو القوى . كما رأى ذلك صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (٢).

---

(١) دار الطراز ص ٣٢ .

(٢) راجع موضوع الموشحات فى كتاب ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار للدكتور الأهوانى فقد عالج هذا الموضوع علاجا مستفيضا .

تأثر ابن سناء بالشعراء :

بمن تأثر وفيمن أثر :

كان الشعراء الجاهليون يصدرون فى شعرهم عن الحياة ، وما تمليه عليهم من أحداث ، ولم يكن للزاد الثقافى كبير أثر فى شعرهم ، فلما كثر رصيدهم من الشعر ، ويسر تقدم العلم والمعرفة وسائل التسجيل والتدوين ، وأصبح فى العصور الأدبية المتعاقبة زاد كبير ، وفيض عظيم من التراث الأدبى لم يقنع الشعراء بما يستمدونه من أحداث الحياة ووقائعها بل اطلعوا على آثار من سبقهم ، فاتخذوا منه مدداً وعونا ، وتأثروا به تأثيرا متفاوتا ، فابن سناء شاعر من أولئك الذين اغترفوا من الثقافة العربية ولم يدعنا نستنبط ذلك بأنفسنا بل دلنا على بعض من جعله رمزاً للتفوق الأدبى والتمس من أدبهم فى أفكاره ومعانيه وبديعياته ما يعزز اتجاهه الأدبى .. فهو يبدى تعجبه بابن المعتز ، وتأثره العميق به فحين اعترض القاضى الفاضل على استعماله «يعزل بيت الوجه منه ويكنس» فأجاب ابن سناء : «وعلم المملوك ما نبهه عليه مولانا من البيت الذى أراد أن يكنسه من القصيدة وهو : «صليني ...» وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت مستحليا له متعجبا منه ، معتقداً أنه قد ملح فيه ، وأن قافيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه وما أوقعه فى الكنس إلا ابن المعتز فى قوله فى قصيدته المشهورة : —

وفــؤادى مثل القنــاة من الخــط وخــــدى من لحيــتى مكنــوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر ، ولا مال المملوك إلا إلى طريق من مال إليه طبعه ، ولا سار قلبه إلا إلى من دله عليه سمعه (١) »

وكذلك كان صنيعه كثيراً مع أبى الطيب المتنبى ، ويبدو أن شدة إعجابه به ، وتمثله شعره دفعت به إلى الأخذ منه كثيراً فالمتنبى يقول :—

لا تحسبن المجد تمراً أنت آكلـــــه لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فيقول ابن سناء : —

والمجـــــــد مــــر طعمـــــه لا تحســبن المجـــد تمـــــرا

ويقول المتنبى :

فلم يبق إلا من حماها من الظبى لمى شفتيها والثــــدى النـــــواهد

فيقول ابن سناء :

ولم يبق إلا من سبى الجيش منهم وإن كان يسبى الجيش بالحدق النجل

---

(١) فصوص الفصول .

وقد علق على ذلك ابن جبارة قائلا : أين هذا البيت من المسروق منه !! ولكن ابن جبارة يتعنت فى نقده ويبالغ فى الزراية بابن سناء وبيت ابن سناء يشبه أيضا قول أبى دلف العجلى فى المعنى :

إذا رجعنـــا بأسرى من سراتهم ... نالوا التراث بلحظ الأعين النجل (١)

ويقول المتنبى أيضا : —

إذا ضربت فى الحرب بالسيف كفه ... تبينت أن السيف بالكف يضرب

فأخذه ابن سناء وقال : —

فلا تحسبوا بالكف جرد نصله ... ولكنه قد جــرد الكف بالنصل

ومن نافلة القول أن نقرر تأثره بالقاضى الفاضل ، فقد كان القاضى الفاضل له معلما وأستاذاً ينقد شعره ، ويرسم له الطريق ، ويأخذ بيده إليه ، وكان دائم التشجيع والمساعدة له ، وكتاب «فصوص الفصول» يحوى عديد الرسائل بين القاضى الفاضل وبين ابن سناء أو أبيه وجلها فى تقريظ قصيدة ، أو نقد فكرة آمن بها ابن سناء ، أو فى توجيه او إرشاد .. إلى غير ذلك ، فلا غرو أن نجد الأصول الفنية والمعنوية التى رجع إليها ابن سناء حين كان ينظم قصائده أو يكتب رسائله هى الطريقة التى كان يؤثرها القاضى الفاضل ويدعو إليها . ولذا شغف ابن سناء بحسن التعليل ، والمفارقات وبإيراد ما يشبه القضايا المنطقية ، والحجج العقلية ، كما ظهر ولعه بالجناس والطباق ، وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك فى الفصل السابق ، ولم يكن عفواً ما قيل من أن ابن سناء من مدرسة القاضى الفاضل فكل خصائص تلك المدرسة تظهر بجلاء فى فن ابن سناء مع ما حدث من إفراط فى استخدام تلك الخصائص من تلاعب لفظى ، وولع بالزينة البديعية ، وإغراق فى المبالغة .

ولقد تأثر ابن سناء بكثير من الشعراء الذين قرأ قصائدهم ، واطلع على أدبهم ومن هؤلاء امرؤ القيس ، ومهيار الديلمى ، وجرير ، والشريف الرضى والمتنبى وأبو العلاء المعرى ، وأبو العتاهية ١٣٠ هـ — ٧٤٩ م ، كما أعجب بالبحترى ، وعاب أبا تمام ، وقد انعكس ذلك على شعره ، فعندما مدح القاضى الفاضل قال فى مقدمته الغزلية :

سحبت ذيل دموعى إثره وغدا ... سواى يسحب أذيالا على الأثر

ألا تجد أنك أمام تلك الصورة التى أتى بها امرؤ القيس تماما فى قوله :

خرجت بها أمشى تجر وراءنـــا ... على أثرينا ذيل مرط مرحـــل

فالصورة تكاد تكون واحدة وإن اختلفت العبارة .

وقد ظهر تأثره بقصيدة مهيار الديلمى التى يمدح فيها أبا القاسم فى يوم المهرجان والتى مطلعها : —

ما كان سهما غار بل ظبى سنح ... إن لم يكن قتل الفؤاد وما جرح

فعندما مدح ابن سناء القاضى الفاضل وهنأه بالقدوم من السفر قال : —

---

(١) الغيث جـ ٢ : ١٠ .

يا قلب ويحك إن ظبيك قد سنح فتنح جهدك عن مراتعه تنح

وكانت العرب تتفاءل بالطير السانح الذى يتجه صوب اليمين ، وتتشاءم بالبارح الذى يتجه صوب الشمال ، وفى المثل : «من لى بالسانح بعد البارح» . وقد جرى فى هذه القصيدة على نهج قصيدة مهيار .

وقد تأثر بجرير فى غزله فاختار بعض أفكاره التى أعجب بها ، وأخرجها إخراجا جديداً فقوله :—

دع قضب نعمان أو كثبان يبرين ما قلب القلب إلا أعين العين
وقد تعشق قلبى من بنظرته تميتنى وبأخرى منه يحيينى

مأخوذ من قول جرير الذى عده ابن رشيق فى عمدته أغزل بيت قالته العرب :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانـــا
يقتلن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

غير أن ابن سناء قد أخذ المعنى وزاد عليه فجعل نظرات المحبوب تحيي وتميت بينما جعلها جرير تميت فقط .
وقد عارض قصيدة الشريف الرضى التى مطلعها : —

يا ظبية البان ترعى فى خمائلها ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

فقال قصيدته التى مطلعها :

يا منية القلب لولا أن يقال سلا لقلت ما كنت أعصى العذل لولاك

ولم يكتف بالمعارضة فى الوزن والقافية ، ولكنه أخذ كثيراً من معانى القصيدة فقوله : —

رميت من مصر قلبا بالشآم فما أسراك سهما إلى أحشاء أسراك

مأخوذ من قول الشريف :

سهم أصاب وراميه بذى سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك

وقرأ ابن سناء لأبى العلاء المعرى وتأثر ببعض معانيه فقال يذم الشمس

أنت عجوز لم تبرجت لى وقد بدا منك لعاب يســـيل

وقد أخذ هذا المعنى من أبى العلاء فى قوله : —

وفضل الشمس فى الأيـــام باق وإن مدت مـــن الكـــبر اللعـــابا

وإن قلب ابن سناء المعنى وعكسه .

وتأثر بأبى العتاهية فى قوله : —

أتته الخـــلافـــة منقـــادة إليـــه تجـــرر أذيالهـــــا
فلم تك تصـــــلح إلا لـــه ولم يك يصلح إلا لها (١)

---

(١) ديوان أبى العتاهية .

فأخذ ابن سناء هذا المعنى وقال : —

زهت الوزارة باسمه وتوشحت منه بمن لبس الفضائل واتشح
جاءته خاطبة فكان المصطفى وسعى سواه لها فكان المطرح

والحق أن ابن سناء قد أعجب بالأدب العباسي واغترف منه ، ولكنه اصطفى من أدبائه ابن المعتز فعده أستاذاً ومعلما تتلمذ على يديه ، كما ازداد إعجابه بالبحترى . ولا أعنى بذلك أنه لم يتأثر بغيرهم بل اعتمد على الجاهليين أيضا .

فنراه يقتبس منهم تارة ، ويعدو على شعرهم تارة أخرى ، فالنابغة الذبيانى يقول : —

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم كتائب طير تهتدى بكتائب

فيأخذ ابن سناء منه هذه الصورة ويخرجها إخراجاً جديداً فيقول : —

طليعته الوحش الضوارى مشيحة وساقته الطير الجوانح حوما

وأحيانا تروقه الألفاظ فلا يملك إلا أن يأتى بها نفسها كموقفه من زهير ابن أبى سلمى حيث يقول : —

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

فيأخذ ابن سناء تلك الألفاظ ويقول : —

رقى سلما للعز أوصله لها فقد نال أسباب السماء بسلم

ويبدو أن ابن سناء الملك اطلع على شعر المعاصرين له فأعجب ببعضه ، (١) وتأثر به فظهر كثير من الشبه بين شعر ابن سناء وشعر شمس المعالى وأسامة بن منقذ ، ومما نجده من تشابه واضح فى الأصول الفنية بينه وبينهما : قول شمس المعالى حين سمع أن مصر سوف تخضع للخليفة العباسى ، وينتهى فيها حكم الفاطميين :

ليهنك يا مولاى فتحا تتابعت إليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها من الشرك ناس فى لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المقابر عصبة يعاف التقى والدين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة أغر غرير بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو إن دانت ليوسف مصره وكانت إلى عليائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف وخلصها من عصبة الرفض يوسف

يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبى عليه السلام ، وبيوسف الثانى المستنجد بالله الخليفة يومئذ وقاله على

---

(١) هو شمس المعالى أبو الفضائل الحسين بن محمد بن تركان كان صاحب أبى هبيرة .

سبيل الفأل ، ألا تراه قال بعد هذا البيت : —

فشابهتــه خلقــا وخلقــا وعفــة وكل عن الرحمن فى الأرض يخلف (١)

وجرى الفأل فى البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبنى العباس . وجاء ابن سناء الملك فمدح صلاح الدين وتأثر بهذه القصيدة وبهذا المعنى حين قال : —

أعــدت إلى مصر سياســة يوسف وجددت فيها من سميك موسما

وأحييت فيها الدين بعد ممــاته فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما

وحين تقرأ مدائح أسامة بن منقذ (٢) (٤٨٨ — ٥٨٤) تحس كأنك تقرأ فى ديوان ابن سناء ، فالأفكار والمعانى والمبالغات التى طبعت عمود الشعر فى هذه الفترة واحدة عند الاثنين ، فحين يمدح أسامة بن منقذ «طلائع بن رزيك» يجعل له الفضل من دون الناس جميعا ، فهو أكرم من حاتم ، وهو قد تكفل للاسلام بمنع حماه ، وهو هادم ما بناه الكفر ، وعزمه القوى يحمى سرحة الإسلام ، وهو قد أيد الإسلام بعدله ، وببذله ، وبتقواه ، وهذه المعانى شاعت فى مدائح ابن سناء ، فاستمع إلى أسامة يقول : —

لك الفضل من دون الورى والأكارم فمن حاتم ما نال ذا الفخر حاتم

ومنها : —

تكفلت للاسلام أنك مــانع حماه مبيح ما حمى الكفر هادم

فأصبحت ترعى سرحه بصريمة من العزم لم تبلغ مداها العــزائم

وأيدته بالعدل والبذل والتــقى وضرب الطــلا والصالحــات دعائم

رميت العدا بالأسد فى أجم القنــا على الجرد تقتاد الردى وهو راغم

بمثل أتى السيل ضاق به الفضا وضاق على الأعداء منه المخارم

يبارين شهب القذف يحملــن مثلها من الحتف للباغى الرحيم رواجم

سرايا كموج البحر فى ليل عنبر به من عواليهم نجوم نواجم

تسير جيوش الطير فوق جيوشها لها كل يوم من عداه ولائم

فإن خفض الفرسان للطعن فى الوغى رماحهم انقضت عليهــا القشاعم

تعرض منها فوق غزة عارض سحاب المنايا فــوقه متراكــــم

ثم استمع ما قاله ابن سناء فى مدح الملك الناصر صلاح الدين : —

لقد نصر الإسلام منهم بناصر يرى مغنما فى الدين ما كان مغرما

يذب عن البيت المحــرم جنــده فلولاهم ما كان بيتا محــــرما

---

(١) الروضتين: ١٩٧ .
(٢) ديوان أسامة بن منقذ (خط بدار الكتب المصرية) .

ومنها :

إذا ما صلاح الدين سار بجيشه — فليس الحمى إن أمّه الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع واستلت الظبا — بآفاقه حتى أضاء وأظلما
طليعته الوحش الضوارى مشيحة — وساقته الطير الجوانح حوما
يقول الذى يلقاه كم فيه فارسا — فيخبره المهزوم كم فيه ضيغما
وكم فيه من يلقى الكمىّ مقنعا — بفرحة من يلقى الحبيب معمما

فما أشد الشبه بين الاتجاهين .

ويكتفى ابن سناء أحيانا باقتباس المعنى كموقفه من ابن أخى أبى دلف العجلى ، والشريف الرضى حيث قال الأول : —

دعينى أجوب الأرض فى طلب الغنى — فما الكرخ الدنيا ولا الناس قاسم

وأخذه الثانى فقال : —

ما النيل من ماء الحيا — ة ولا جميع الأرض مصرا (١)

وأحيانا يعدو ابن سناء على صورة مشرقة لشاعر سابق أو على معنى من معانيه الطريفة فيضمنه أبياته ، ولكن المدقق وان لحظ وجه شبه الاأنه يستطيع أن يدرك بروز شخصية ابن سناء الملك فى شعره ، فبشار يصف الغبار المتطاير من سنابك الخيل الذى يعقد سحابة دكناء فوق الرءوس فلا يرى فى وسطه الا لمعان السيوف هابطة صاعدة فيقول :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا — وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ويحاول ابن سناء أن يأتى بهذه الصورة فيقرب منها ، ولكنه سرعان ما يبعد عنها فيقول فى مدح العادل :

يجر جيوشا يركد النقع بينها — فلم يلق من بين الأسنة مخرجا
وان أظلمت من نقعه جنباته — فكم صبح سيف بينه قد تبلجا
وما هو جيش مثل ما يزعم العدا — ولكنه بحر الحديد تموجا
وما ذاك لمع للدروع ولا الظبى — ولكنه جمر العزائم أججا

فبشار عدسة خياله لامه ، أحاطت بالصورة كاملة فى إطار ضيق ، وأما ابن سناء الملك فعدسته الخيالية متسعة جعلت لهذه الصورة نطاقا فسيحا فى الأبيات وأتبعها بظلال من قوة الجيش ودروعه الحديدية ، وتموج هذه الدروع ، ولمعان الدروع والظبى ونار العزائم المتأججة .

وبعد فميدان القول يطول إذا تتبعنا ما وقع فى شعر ابن سناء من أوجه الشبه بين شعره وبين شعر من سبقه من الشعراء ، والحقيقة التى يمكن تأكيدها أن شخصية ابن سناء تظهر واضحة جلية فى شعره وتتضح فى أسلوبه حتى ليمكن أن نبرئه إلى حد كبير من تعمد السرقة ، والاصرار على العدو . وإن كان ابن جبارة قد قام بدراسة

---

(١) الغيث جـ١ : ٦٨ — ٧٠ .

نقدية لشعر ابن سناء واتهمه كثيرا بالسرقة وألف كتابا فى نقد شعره أسماه : «نظم الدر فى نقد الشعر» إلا أننا لم نعثر لهذا الكتاب على أثر ، وقد أشار إلى ذلك الصفدى فى تعليقه على «لاميات العجم»

آراء النقاد فى شعره :

لقد حظى أدب ابن سناء بدراسة مستفيضة فى عصره ، فلم يكد يلقى بالقصيدة حتى يجتمع حولها النقاد والأدباء ، فهذا مادح وذاك قادح ، ذلك يعنى باستخراج جيدها ويتغاضى عما فيها من ضعف أو إسفاف بل وربما التمس لهذا الضعف أو ذاك الإسفاف وجهاً من الحسن ، أو ناحية من الجمال ، وذاك همه أن يتصيد مرذولها وقبيحها ، وغايته أن يبرز نواحى الضعف فيها .. وهكذا كان شأن النقاد والدارسين الذين عكفوا على دراسة شعر ابن سناء يدفعهم النقد الذاتى أكثر مما يحركهم الموضوع . ولعل اهتمام الدارسين بأدبه يرجع إلى قربه من القاضى الفاضل من ناحية وإلى منزلته الاجتماعية التى كان يتمتع بها من ناحية أخرى . وقد حظى ابن سناء بتشجيع القاضى الفاضل ، وإذاعة شعره ، كما يحس المتصفح لخزانة الأدب لابن حجة الحموى أنه من الذين يتعصبون لأدبه ويدافعون عنه ، ويرون له منزلة سامية فى الأدب تفوق منزلة كثير من أبناء عصره فلنستمع لآرائهم .

راى القاضى الفاضل :

يرى القاضى الفاضل أن ابن سناء له فى قصائده آيات محكمات ، وفرائد فاقت المعلقات ، وكتاب فصوص الفصول شاهد على ما نقول ، فقد كتب القاضى الفاضل على أثر القصيدة الفائية التى مطلعها : —

نظر الحبيب إلى من طرف خفى فأتى الشفاء لمدنف من مدنف

قوله : «وما يرينا من آية إلا هى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروساً إلا وقد جمع بين حسنها وبختها ، وقلما يجمع الحسن والبخت ، ولهذا قيل : وقد تمنى المليحة بالطلاق» وعقائله المليحة لا تطلق ولا تطلق ، وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أن هذه بالقلوب تعلق ، وبالضلوع تعنق ، فالمعلقات بعدها زادت على عدتها ، وفضلتها هذه بجودتها وجدتها» ثم يقول : «ولو أن البلاغة حلة لكان لابسها ، ولو أن الشعراء حلبة لكان فارسها ، ولقد أنجب الزمان الذى ولده ، وفخر الوالد الذى ما قضى حقه أن أحبه ، وما أنصرف عن بيت أشهد له بالسبق إلا استأنفت بيتاً أشهد بأنه الأحق ، وكل يدلى إلى القلب بحجة ، ويفد إليه بمقتضى لذة ، ومستطرف بهجة . وكان القاضى الفاضل كما ذكرت يذيع قصائده ، وينشر محاسنه وقد حفظ فصوص الفصول رسالة من القاضى الفاضل تنبئ عن ذلك قال : « ...... وقد علم الله ابتهاجى أن أنشأ الزمان مثله ، وتصورى الغاية التى يخرج إليها فضله ، وتهادى الشام وشعراء الوقت هذه القصيدة العينية ، واشتدت إليها الأعين ، وأثنت عليها الألسن ، فاستغربوا الحسن قبل أن ذكرت السن ، فلما ذكرته فمنهم من عرفنى فى لحن القول السعيد ، وأبرع من خطابه ، وأحسن من صوابه فإنه كتاب يغنى الكتب والأقلام أوصافا ، ويشتمل على جواهر حق لخواطرها أن تسمى بحاراً ولقراطيسها أن تسمى أصدافا ، عين الله على ذلك الكمال ، ولله در تلك الأنفاس التى تستخف عقول الرجال بل عقود الجبال ، وقد ألان الله له ما ألان لنبيه عليه السلام من الحديد الذى له بأس شديد ، وأجرى على قلمه ما أجرى على النضار الذى فيه غنى عتيد ، وما وقفت على جديد من قوله إلا انصرف قلبى عن الخليع ، ويفعل بالأعطاف ما يفعل بالغصن الرطيب الريح الحريع ، ولقد أبقى للآباء فى الآثار ذكرا ، وللأبناء فخراً ، وأرسلها مقلدات ، فأرهفها مجردات ، وأثارها

أوابد ، فنظمها قلائد ، فسار بها من لا يسير مشمراً ، وغنى بها من لا يغنى مغرداً (١) .

ولما مدح "ابن سناء" الملك الناصر بقصيدته النونية التى مطلعها :

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنا

وصلت هذه القصيدة القاضى الفاضل وهو فى الشام فكتب إليه ، «وصلنى من القاضى السعيد قصيدة من نظمه ، وما أعرف كفءاً لها بفهمه ، وقد حضر جماعة فرأى منهم ما أهمه وغمه وتحققوا أن البيان قد عصاهم وأطاعه ، وزيادته فيه تنبيه عن الشاعرين القاصرين عن أمده ، ووددت لو سمعاها ليعرف كل منهما أن يومه قد نسخ بعده ، والذى ذكره فى القافية ، وأنها مباعدة غير مساعدة ، وجامحة غير جانحة ، وبارزة غير واقدة ، وصحيح لا يعلمه إلا من ركبها فركلته ،وطالبها فأجلته ، وبالجملة إن محاسنه لا أقيس بها محاسن بليغ لأن البليغ له نادرة لا يلحقها لاحق كما لا يسبقه أبداً سابق ، ومن السعادة أن المثنى عليه بالفضل صادق (٢) » .

ومن هذا العرض لرأى القاضى الفاضل نرى أنه لا يقوم على التحليل والتعليل ، وبيان أوجه الحسن ، وإقامة الدليل ، وإنما يقوم نقده على الذوق ، والمحب لا يرى إلا بعين الحسن ، ويغتفر كل ما هو قبيح ، وإن كان القاضى الفاضل قد وجه ابن سناء أحيانا وقام بينهما جدل وحجاج وقد سبق أن تحدثنا عن عدم استحسانه استعمال الشاعر كلمتى (يعزل ويكنس) فى قوله : —

صلينى وهذا الحسن باق فربما يعـزل بيت الـوجه منه ويكنـس

فقد قال : «وبيت يعزل ويكنس» أردت أن أكنسه من القصيدة فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلا ...» وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

رأى ابن حجة الحموى :

وكثيراً ما يستحسن ابن حجة شعر ابن سناء ، ويرى أن النقاد والشعراء الذين نقدوه ، وحاولوا أن ينالوا منه إما حاسدون وإما متجنون ، وأن ابن سناء سابق وهم لاحقون .

لما قال ابن سناء قصيدته التى مطلعها :

تقنعت لكـن بالحبيـب المعمم وفارقت لكن كل عيش مذمم
وباتت يدى فى طاعة الحب والهوى وشاحـاً لخصر أو سـواراً لمعصم

علق ابن حجة فى خزانته بقوله على البيت الثانى : «هذا هو التشبيب ، ومخلصه من أحسن المخالص ، وقال : لقد أحرز القاضى السعيد قصبات السبق برقة هذه الألفاظ ، وغرابة هذه المعانى ، ولقد خلب القلوب ، وجلا ظلمة الأفهام ، وأظنه من المخترعات (٣)

ولما مدح ابن سناء الملك الناصر بقصيدته التى مطلعها : —

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنا

---

(١) فصوص الفصول تحت عنوان «فصل من كتاب إلى أبى بخط ابن الحصين» .
(٢) فصوص : ٧٤ ، ٧٥ .
(٣) خزانة الأدب : ١٥٥

قال فى مقدمتها الغزلية : —

تغنى عليها حليها طرباً بهـــا وفاحـــت فقلنا هذه الروضـــة الغنا

فقال ابن حجة الحموى فى كتابه خزانة الأدب حين وصف «نوع التهذيب والتأديب» إن هذا النوع ليس له شاهد يخصه لأنه وصف يعم كل كلام منقح محرر ، وهو عبارة عن ترداد النظر فى الكلام بعد عمله والشروع فى تهذيبه وتنقيحه ، ثم قال : «رأيت العلامة زكى الدين بن أبى الأصبع قد استحسن من الشواهد اللائقة بهذا النوع قول القاضى السعيد ابن سناء الملك هذا البيت : «تغنى عليها حليها طربا بها ... الخ» وقال — وقوله الصحيح — لو لم تقدم فى صدر البيت لفظة مشتقة من الغناء ،حصل بها فى البيت من الرونق ما لا يحسن بدونها، وكان البيت خاليا من التهذيب فبوجودها حصل فى بيته تصدير وتجنيس وائتلاف وتهذيب ، وانتفى عنه من العيوب عدم الائتلاف ، وقلق القافية ، وبذلك تقدم التهذيب فإنه لو قال : «زهت بأزاهير الجمال وحسنها» لظهر قلق القافية ، وتمكين تلك الأولى بسبب تصدير البيت بقوله : «تغنى» (١) .

وعلق ابن حجة على قصيدته : —

سواى يخاف الدهر أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يعيش مخلداً

قائلا : وممن افتن فى قصيدة كاملة وتفنن ، وخلص من تفخيم الحماسة والفخر ، إلى رقة الغزل وأحسن ، القاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك رحمه الله فإنه قسم القصيدة شطرين وتلاعب فى ميدان البلاغة بالفنين ، وهذه القصيدة تقف دونها فرسان الحماسة ، ويكبو الجواد من فحولها ، وينثنى من لطائف غزلها من لعبت بلطف شمائله خمر لطف شمولها ... وممن حذا هذا الحذو ، ونسج على هذا المنوال ، ومشى فيه على طريق ماسلكها أحد قبله الصاحب بهاء الدين زهير — ثم ذكر ابن حجة قصيدة زهير — قال وقد اشتهرت قصيدة ابن سناء هذه بين الشعراء والنقاد حتى قال ياقوت الحموى فى كتابه إرشاد الأريب : ومن شعره الذى سارت به الركبان قصيدته الحماسية الغزلية : —

«سواى يهاب الموت أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يعيش مخـــلدا

والقصيدة طويلة ، كل بيت منها فريدة فى عقد ، وشعره كثير وأكثره جيد» .

راى الصفدى :

لما قال ابن سناء مقطوعته التى يتغزل فيها بعمياء وكان الشاعر قد أعدها مع مقطوعة أخرى تحديا ، جاء فى إحداهما قوله :

رأيت منهـــا الخـــد فى جـــؤذر وناظـــرى يعقوب فى يوســـف

فأشار فى الشطر الثانى إلى ذهاب بصر يعقوب فى فراق يوسف ، وشبه العمياء بيوسف وشبه عينيها بناظرى يعقوب ، وقد علق الصفدى قائلا : هذا البيت الثالث ما له فى الحسن وارث ، ولقد تلطف فيما تخيل ، واختلس رقة المعنى وتحيل . وقد ذكر أن الشيخ جمال الدين محمد بن نباته أخذ هذا المعنى عنه . (٢)

وقد علق القاضى الفاضل على أبيات هذه المقطوعة : «بأنها ما سميت بهذا الاسم (مقطوعة) الا لانقطاع

---

(١) خزانة الأدب : لابن حجة الحموى ، بديع القرآن لابن أبى الاصبع : تحقيق حفنى شرف : ١٥٨ .

(٢) الغيث جـ ٢ : ١٨٨ .

الخواطر عن مجاراتها ، والأبيات التى هى أحسن ما استقرت عليه أبيات سلمى وجاراتها ، وقرئت إلى أن حفظت ، وأوثرت إلى أن أثرت ، وعوذت ذلك الخاطر الخطار المستولى على أمد الخطار ، وأنشدت :

كسحق اليمانى قد تقادم عهده ورفعته ما شئت فى العين واليد (١)

رأى ابن الدروى :

لما مدح ابن سناء الملك شمس الدولة تورانشاه أخا السلطان صلاح الدين بقصيدته التى مطلعها :

تقنعت لكـــن بالحبيب المعـــمم وفارقت لكـــن كـــل عيش مذمم

تعصب عليه جماعة من الشعراء ، وعابوا هذا الاستفتاح وهجنوه — كما ذكرت سابقا — فكتب اليه ابن الدروى الشاعر المذكور فى ترجمة سيف الدولة المبارك بن منقذ من (الكامل)

قل للسعيد مقال من هو معجب منه بكل بديعة ما أعجبـــا
لقصيدك الفضـــل المبين وإنمـــا شعراؤنا جهلوا به المستغربـــــا
عابوا التقنع بالحبيب ولو رأى م الطائى ما قد حكته لتعصبا (٢)

رأى العماد الكاتب :

ذكر العماد الكاتب فى كتاب الخريدة قال : «كنت عند القاضى الفاضل فى خيمته بمرج الدلهمية سنة سبعين وخمسمائة هجرية فأطلعنى على قصيدة كتبها إليه من مصر وذكر أن سنه لم يبلغ عشرين سنة فأعجبت بنظمه ، ثم ذكر القصيدة العينية التى أولها

فراق قضى للهم والقلـــب بالجمع وهجـــر تولى صلح عينى مع الدمع

ووصل القاضى السعيد بعد ذلك إلى الشام فى شهر رمضان سنة احدى وسبعين وخمسمائة هجرية فى الخدمة الفاضلية ، فوجدته فى الذكاء آية ، قد أحرز فى صناعة النظم والنثر غاية تلقى عرابة العربية له باليمين راية ، وقد ألحقه الاقبال الفاضل فى الفضل قبولا ، وجعل طين خاطره على الفطانة مجبولا ، وأنا أرجو أن ترقى فى الصناعة رتبته ، وتروى بماء الدربة رويته ، وتستكثر فوائده ، وتؤثر قلائده» (٣)

آراء النقاد والدارسين المحدثين :

ولقد حظى ابن سناء من الأدباء والنقاد ودارسى الأدب الأيوبى فى عصرنا الحديث ببعض العناية ، لكونه أحد الشعراء اللامعين فى العصر الأيوبى ، فمنهم من خصه بنتف سريعة أو رأى مقتضب يميل فيه إلى الاجمال ويترك التفصيل ، ومنهم من خصه بدراسة موشحاته وحدها ، ولم يتناوله بالدراسة العامة سوى الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، وإليك بعض الآراء التى تناولته بالدرس :

---

(١) المصدر السابق .
(٢) وفيات الأعيان جـ ٥ : ١١٥ .
(٣) راجع الخريدة .

راى الدكتور أحمد بدوى :

لقد أفرد الدكتور أحمد بدوى لشاعرنا صفحات محدودة ترجم له فيها بقدر ما استدعاه طبيعة البحث وقال عنه: «لقد بدت مقدرته فى الشعر والنثر منه فى وقت مبكر، وسار على مألوف أهل عصره الذين أغرموا بالمحسنات البديعية، واقتدى بالقاضى الفاضل الذى كان مغرما بالتورية والاستخدام، وظهر ذلك كله فى أوائل ما أنشأه من شعر ونثر كهذه القصيدة التى أرسلها إلى القاضى الفاضل يمدحه بها ولم تكن سنه قد بلغت العشرين ومنها قوله :

فراق قضى للهم والقلب بالجمع   وهجر تولى صلح عينى مع الدمع
ووصل سعى فى قطعه من أحبه   ولا عجبا قد يهلك النجم بالقطع
وربع لذات الخال خال وربمـــا   شغلت بهمى عن مساءلة الربع (١)

راى الدكتور جودة الركابى :

لقد قام الدكتور «جودة الركابى» بتحقيق دار الطراز، جمع موشحاته ومختاراته من الموشحات الأندلسية، وقد تعرض فى الحديث عن ترجمته إلى الحديث عن شعره فقال: «كان ابن سناء واقعا تحت تأثير التأنق اللفظى الذى كان يسيطر على الأدب فى ذلك العصر، يعجب على الأخص بالشعراء الذين كانوا يهتمون بالصنعة وضروب البيان والبديع، ولهذا كان يفضل من بين القدماء أبا تمام والبحترى، ويود لو يستطيع مجاراة ابن المعتز الذى يذكر له بإعجاب هذين البيتين :

وقفت بالربع أبكى فقد مشبهه   حتى بكت بدموعى أعين الزهر
لو لم تعرها دموع العين تسفحه   لرحمتى لاستعارته مــن المطــر

وكان للقاضى الفاضل أثر عظيم فى توجيهه، وتكوين أسلوبه الأدبى الخاضع للمدرسة اللفظية وكنت ترى فى خلال مدائحه «صلاح الدين الأيوبى» نفسا عربية مخلصة تجيش بالاكبار والاعظام والاجلال نحو الرجل الذى صان الديار الاسلامية وطهر بيت المقدس من المغيرين على أرضه، فيترك الشاعر الصنعة والتكلف عفوا ليترك العاطفة تتحدث وترجع نشوى فى أجواء النصر والمجد» . (٢)

راى الدكتور عبد العزيز الأهوانى :

ولقد تعرض الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى كتابه : «ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار فى شعره» إلى دراسة نماذج من قصائده وأخرى من موشحاته وانتهى إلى : «أن الأصول الفنية والمعنوية التى رجع اليها الشاعر حين كان ينظم قصائده هى التى رجع اليها فى نظم موشحاته، «الحرص على الجناس اللفظى، والمقابلة بين المعانى والاعتماد على العقل فى توليد الأفكار وتمثل التراث الشعرى القديم من ناحية التشبيهات والاستعارات،

---

(١) الحياة الأدبية : ١٩٦ .
(٢) ديوان دار الطراز تحقيق جودة الركابى (المقدمة) .

ومحاولة الزيادة فيه ، والاضافة فى الجزئيات إليه ، ومواصلة ما اصطلح عليه الشعراء من الشكوى والعتاب ، ومن جعل المحبوب مثلا أعلى فى الجمال من كل وجه وناحية ، ومن الحديث عن الصد ، وعذل العاذلين ، وعذاب المحب وألمه وسهاده وبكائه ، ودلال الحبيب وسطوته ، ومن الحديث عن الخمر والتغزل فيها ووصف لونها وحببها ، وأثرها فى شاربيها ، وما تنطوى عليه من لذة ومن الإشارة إلى الرياض وإقامة التشبيهات بين مظاهرها ، وبين أعضاء المحبوبة ، وفى موشحات ابن سناء الملك كما فى أشعاره غزل بالغلمان ، وبالأتراك منهم خاصة ، وفيهما تردد الناظم بين حياة البدو وحياة الحضر فى الحديث عن المعشوق .

أما ما شغف به ابن سناء فى ديوانه من حسن التعليل ، ومن المفارقات ومن إيراد ما يشبه القضايا المنطقية ، والحجج العقلية فقد ظل قائما فى الموشحة ولكنه لم يتوسع فيه توسعه فى الشعر لأن جهده فى تلمس القوافى الكثيرة قد شغله واستنفد بعض نشاطه فى الجهد العقلى ولذلك كان تجديده فى المعانى ، وابتكاره فيها أوضح فى شعره منه فى موشحاته (١) .

رأى الأستاذ عمر الدسوقى :

تحدث عنه الأستاذ عمر أثناء عرضه لقصائد الحماسة فى الشعر العربى وهو يرى أن شعره كان أضيق حدوداً من أن يمثل أمجاد صلاح الدين الحربية وبطولاته التى تكسرت عليها سيوف الصليبين وما كان أحوج هذه البطولة لشاعر من طراز المتنبي أو أبى تمام ليتقابل شاعر اللفظ مع شاعر المجد ، ولكن الشعر العربى كان قد تحول عن قوته وروعته القديمة ، وأصبح تكراراً مملا لمعان محفوظة ، ولم يعد همّ الشاعر الكبير مثل ابن سناء الملك إلا أن يخرج هذه المعانى والصور إخراجاً جديداً ، فإذا هو لا يصل إلا إلى ضروب من التكلف الواضح على نحو ما تراه فى الأبيات الآتية إذ يقف ليصور لنا جمال صلاح الدين وأنه كيوسف النبى حسنا وبهاء .

لم تقف قط فى المعارك إلا	كنت يا يوسف كيوسف حسنا
قمت فى ظلمة الكريهة كالبـد	رسناء والنور يسطع وهنـــا

وحين قال : « إن الدماء جرت منهم أنهاراً أبى إلا أن يستكمل الصورة فجعل جثث القتلى سفنا ، وهى صورة باد عليها التكلف الشديد ، ومثلها » ولمة الوحش التى رقص فيها المشرفى وغنى :

وجرت منهم الدمـــاء بحـــاراً	فجرت فوقهـــا الجزائر ســـفنا
صنعت منهم ولمـــة عرس	رقص المشرفى فيها وغـــنى (٢)

رأى الدكتور محمد زغلول سلام :

لقد أطلق الدكتور محمد زغلول سلام على شاعرنا لقب « الشاعر الرقيق المفتّن » وقد قال عنه : « إن شعره رقيق تغلب عليه الصنعة ، ولكنها صنعة قد تروق أحياناً ، فتكون خفيفة مقبولة حسنة الوقع فى النفس ، وقد تثقل بعض الأحيان فتبدو سمجة متكلفة ، وأكثر ما يجيد ابن سناء فى الغزل والوصف »(٣).

---

(١) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار : ٢١١ – ٢١٣ .

(٢) الحماسة : ١٠٤ لعمر الدسوقى وآخرين .

(٣) راجع « الأدب فى عصر صلاح الدين: ٣٦٥ .

راى الدكتور محمد كامل حسين :

يرى الدكتور محمد كامل حسين : « أن فن القاضى الفاضل قد أثر تأثيراً قويا على فن ابن سناء الملك ، وكلاهما أولع بالزينة اللفظية ، وكلاهما أفرط فى التلاعب اللفظى ، وكلاهما بلغت به المبالغة إلى حد الاستحالة ، فلذلك قال القدماء إن ابن سناء الملك من مدرسة القاضى الفاضل ، فكل خصائص تلك المدرسة تظهر بجلاء فى فن ابن سناء الملك مع ما حدث من إفراط فى استخدام تلك الخصائص ، ويظهر أن ابن سناء الملك كان مثل القاضى الفاضل تماما كانت له ثروة لفظية استطاع بها أن يتلاعب ، وأن يكثر من التوريات ، فالتورية أصل من أصول فن ابن سناء الملك كما هى أصل من أصول الفن عند القاضى الفاضل فى النثر والشعر »(١) ؟

قال ابن سناء فى قصيدته التى مدح بها صلاح الدين بعد فتحه نابلس البيت رقم ٨ ص٢٦٩ .

بشوك القنا يحمـــون شهد رضابها ولابد دون الشهد من إبر النحل

ذكر الصفدى فى شرحه على لامية العجم أن شرف الدين بن جبارة أورد ماأورد على بعض الأبيات من هذه القصيدة من فساد المعنى ونقضه ثم قال فى هذا البيت : أراد أن يمدحهم فهجاهم بهذا المثل الذى جعله كـكفن الميت . لأنه جعل طعن رماحهم كإبر النحل ، وإبرة النحل لا أثر لها ولاألم يحصل منها ولو أن كل عاشق إنما يمنعه من معشوقه ويحجزه عنه لسع الزنابير ولدغها لسهل عليه صعبها ، وذل له منعها ، ولله در المجنون إذ يقول :

وحقكم لازرتـكم فى دجنـة من الليل تخفينى كأنى سارق
ولازرت إلا والسيوف هواتف إلىّ وأطراف الرماح عواشق

ولأبى عبد الله عثمان المعروف بابن الحداد الأندلسى :

إنى أراع لهم وبين جـــوانحى شوق يهون خطبهم فيهـــون
أو هـل يهاب ضرابهم وطعانهم صب بألحاظ العيـون طعين
وكأنمـا بيض الصفاح جـداول وكأنما سمر الرماح غصـون

ثم ذكر أشياء غير ذلك وقال : لولا وقوع هذا الشاعر فى شعره وقلة معرفته ، وقصور فكره لماقال : « بشوك القنا يحمون شهد رضابها » وكيف يحمى الشهد بالشوك . ولو اتفق له أن يقول : جنى رضابها لكان أسوغ وأبلغ ثم قال فى أول البيت : وفى آخره « شهد » وإنما الأحسن أن يأتى بالمثل بالمعنى لا باللفظ لأنه إذا كرر بلفظه فكأنه هو ، وإنما القصد أن يكشف المعنى بلفظ موجز وقول مجموع معجز ، وإذا تؤمل أكثر الشعر المضمن للأمثال وجد على هذا المثال وهذه العلوم تدق عن فهمه ، ويخفى غرضها عن مرمى سهمه . انتهى ، ثم قال الصفدى : أما كونه يدعى : أنه لا ألم فى إبر النحل ولاضرر فى الزنابير فهذا مما لا يسمع وهو تحامل أليس فى إبر النحل والزنابير سما يمنع القرب منه والدنو إليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولايقدم عليه . ومن مسائل النحاة : « كنت أظن العقرب أشد لسعا من الزنبور فإذا هو هى ، أو فإذا هو إياها .

---

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين : ١٢٦

ولعل بعض الناس لسعه زنبور فتورم منه ومات ، وبالجملة فني إبر النحل سم تعاف النفوس الإقدام عليه ، وهو ماأراد أن طعن قومها مثل لسع إبر النحل كما قال المصرى :

وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم ... بالسمهرية دون الوخز بالإبر

لأنه ما أتى بمثل ولابكاف التشبيه بل نبه بالمثل الذى ذكره على أن حلاوة ريقها لا تنال إلا بعد مشقة وعناء وأهوال ، كما أن الشهد من دونه إبر النحل ، وكل لذيذ محفوف بالألم فالجنة حفت بالمكاره وهذا غير وارد عليه . وأما إنكاره شوك القنا فهواستعارة حسنة والتشبيه مطابق لأن الأسنة أشكال مستدقة ملسنة حادة كما هو الشوك ، وأتى بها ليطابق الكلام المثل فى قوله : « ولابد دون الشهد من إبر النحل » فقوله شوك يناسب إبر النحل وقد شبه الشعراء القنا بالشوك ، قال الأرجانى :

ورد الخدود ودونه شوك القنـــا ... فمن المحدث نفســه أن يجتنى

وقال ابن خفاجه :

والخيـل تعثّر فى شبا شوك القنـا ... وتظل تسبح فى الدم المـــوار

وما أعجبنى شىء مما أورده عليه غير إنكاره تكرار الشهد وكان الأحسن لوقال : « بشوك القنا يحمون رشف رضابها » انتهى كلام الصفدى(١) وأما المصراع الأخير من كلام المتنبى حين خاطب العاذلة فى قصيدته :

تريدين لقيان المعالى رخيصة ... ولابد دون الشهد من إبر النحل

فيقول لا يمكن حصول المعالى رخيصة ، ومن أراد جنى الشهد فعليه أن يقاسى لسع النحل ، فلا تحصل حلاوة الشهد إلا بعد مقاساة اللسع(٢) .

مشادة ثانية :

وقال ابن سناء فى قصيدته التى يمدح بها صلاح الدين بعد فتحه نابلس

لهـا ناظر يا حيرة الظبى إذ رنـا ... به كحل ناداه يا خجلة الكحل

وقد عاب هذا البيت ابن جبارة من ناحيتين الأولى : أنه قال : «يا حيرة الظبى ولم يخار مع وجود المقاربة وعدم المباينة؟. كما أنه جعل العلة فى حيرته وجود الكحل إن هذه قريحة وفكرة غير صحيحة .وهذا إن سلم له . فهناك مأخذ آخر وهو أنه استعمل « إذ » شرطية تدل على الجزاء وليست هى من حروف الشرط والجزاء وهل ينبغى أن يقول قائل : «إذيقوم زيد قام عمرو ، ويريد بذلك التعليق .. ولكنه أراد أن يقلد المتنبى فى قوله : « وليس التكحل فى العينين كالكحل » فأخفق وقال ابن سناء بعد هذا البيت : وأثقلها الحسن الذى قد تكاثرت : ملاحته حتى تثنت من الثقل . فقال ابن جبارة : «هذا قلب للمعنى وذلك أن الحسن فيما يظهر هو رونق يكون على محيا شخص فيستحسن به . والملاحة وهى وإن كانت البياض فى الأصل فهى فى الاستعمال صفة صورة الذات من الحاجب والعين والأنف والفم ، ولهذا يقال فى العرف : مليح حسن ، يعنى أن الذات مكملة بالملاحة فى صورة

---

(١) الغيث الجزء الأول ص ٢٢٤
(٢) الديوان المطبوع : ٥٦٢

مستحسنة عند تأملها لبلوغ الأمل ثم قال ولاينبغى أن يقال هو حسن مليح لأنه يجعل الوصف الذاتى تبعالغيره، وكان الصواب أن يقول : أثقلتها الملاحة التى تكاثر حسنهاولكنه قال : « حتى تثنت من الثقل» ورفع الثقل أليق بالبيت وبصنعه فلا يقال له أهويت ولا أوهيت ، وهل يتثنى الإنسانمن الثقل ؟ إنما يمشى قطعةواحدة فى حال الثقل ، ثم قال : وقد وكلت شرح هذا البيت لعجزى عن معناه إلى عريف الحمالين فعساه يعرف معناه ! ! ولقد أحسن الأعشى حيث يقول :

كأن مشيتها من بيت جارتهـا ... مر السحابة لا ريث ولا عجـل

وقال بشار :

إذا قامت لحاجتهـــا تثنث ... كأن عظامها من خيزران

ثم قال الصفدى : « هذا لعمرى نقد حسن ، وسبيل ألقى إليه العنان والرسن ، ولو كان لى فى البيت الأول حكم لقلت : « لها ناظر ياحيرة الظبى عنده » وخلصت من« إذا » وعدم وضعها للمجازاة ، وأما قوله : « وأثقلها الحسن » فابن جبارة معذور فيه لأن حسنا يثقل صاحبه سمج بارد غث لأن الحسن إنما يفيد الخفة .

والحركة والنشاط ، وما مدح شىء بالثقل غير الأرداف ، وما يتركها الشعراء بل يقرنونها بخفة الخصر، ورشاقة القد»(١) .

معركة ثانية :

لما قال ابن سناء قصيدته التى مدح فيها القاضى الفاضل والتى مطلعها :

باتت معانقتى ولكن فى الكرى ... أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

جاء فيها قوله :

يقرى الضيوف شـعاع تبر أحمر ... فشعاع ذاك التبر نيران القرى

ولقد سمعت وما سمعت بواهب ... جلت مواهب كفه أن تشكرا

قال ابن جبارة عن قوله « يقرى الضيوف » : ألم ابن سناء أولا بقول ابن عمار :

قدح زناد المجـد لا ينفـك من ... نار الوغى إلا إلى نار القرى

وزاحم فيه أبا الطيب فى قوله :

تركت دخان الرمث فى أوطانها ... طلبا لقوم يوقدون العنـبرا!

وقوله : « الضيوف شعاع تبر أحمر » والتبر لا يكون إلا كذلك،وانما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التى توقد على البقاع ليهتدى بها الحيران ، وتهتدى إلى موضعها الضيفان وقد جعله يدفع إلىالضيوف صلة الأنعام ، ويمنعهم من الطعام ، وكم من ضيف يمتنع من أخذ ذلك ويعده عيبا شنيعا . هذا ما قاله ابن جبارة .

---

(١) الغيث – الجزء الأول : ٢٤٣ .

أما الصفدى فيرى أن ذلك النقد تعنت زائد من ابن جبارة فليس للبيت علاقة بما قاله ابن عمار ،ولابقول أبى الطيب ، نعم لوقال: نظر إلى قول أبىالطيب :

وملت نحو عشارها فأضافنى من ينحر البدر النضار لمن قرى

لكان فيه بعض سرقة .

وأما قوله : « التبر لا يكون إلا أحمر » فلا نسلم له بهذه الدعوىلأن التبر ما كان من الذهب غير مضروب ، والشاعر هنا ماأراد إلا الذهب المضروب ، ولكنه قال « تبرا » مجازا والذهب منه ما يكون أحمر ومنه مايكون أخضر ، ومنه مايكون أصفر ، وهذا أمر يشاهده الحس ، ولولا أن ذلك لازم لما قيل فى بعض المواطن : الذهب الأحمر ، كما يقال « الثلج الأبيض » . وما بقى له من النقد عليه إلا قوله : « إن الأضياف فيهم من لا يقبل الأنعام » وهذا نقد حسن فالضيف قد يكون أكبر قدرا ممن أضافه ، وأجل نعمة وأشرف همة ، ولا كذلك العفاة فإنهم ، لا يكونون إلا دون من يسألون ويستعطفون فلوقال : « يقرى العفاة » لزال الإيراد مع أن فيه نظراً من إثبات القرى ، ويمكن أن يجاب بأنه خصص هذا القرى بالأضياف الذين يسألونه ويستعطونه »(١) (وماأورده الصفدى ردا على ابن جبارة فى هذا المقام هو ما نميل إليه غير أن الاعتذار عن الشاعر بأنه يمكن تخصيص القرى بالأضياف الذين يسألونه ويستعطفونه فيه تمحل ظاهر إذ أن الأضياف ليس من صفاتهم السؤال والاستعطاف) .

معركة اخرى

لما قال ابن سناء قصيدته الفائية التى مدح بها صلاح الدين جاء فى مقدمتها الغزلية :

لا أرتضى بالشمس تشبيها لهـا والبدر بل لا أكتفى بالمكتفى

وهو يشير إلى قول ابن المعتز :

والله لا كلمتها ولو انهـــا كالبـدر أو كالشمس أو كالمكتفى

فتعنت عليه ابن جبارة وقال : هذا نوع من الجنون والاختلاط ، ذلك أن الشاعر كثيراً ما يسمع الشعر ويختلط فى ذهنه فيفهمه على غير معناه ، فابن المعتز كان يقصد أنها فى حسنها كالشمس التى هى آية النهار ، أو كالبدر الذى هو آية الليل ، أو كالمكتفى الذىهو خليفة الأرض فى عظم الشأن وكبر السلطان فنقله هذا الشاعر إلى الحسن ،ولم يكن المكتفى إلا أسمر أعين قصيراً ، وليست هذه من صفات الحسن ،وقد أخطأ ابن سناء الفهم ، ونقل هذا المعنى على الحسن ويصدق فىهذا المقام قول ابن السجناء :

الشعر كالروض ذا ظام وذا خضل أو كالصوارم ذا ناب وذا خصم
مثل العرانين هذا حظه خنس يزرى عليـه وهذا حظه شمم

هذا ما قاله ابن جبارة :

ثم انبرى للرد عليه الصفدى قائلا : ليس ابن سناء مما يخفى عليه هذا الذى ذكره وإنما ذكر ابن المعتز المكتفى

---

(١) الغيث : ج ١ : ٢٦٤ لعز الدين بن عبد السلام .

خروجا إلى المديح بعلاقة الحسن ، ومازال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح ، وذلك مشهور لايحتاج إلى شاهد يؤيده ؛ وإنما قول ابن المعتز قد شاع وذاع وملأ الأسماع ، وسار وطار فى الأقطار بالاشتهار ، فلما ذكر ابن سناء الملك حسن محبوبته وذكر الشمس والقمر والقافية فائية كان المكتفى جالسا فى طريقها ، وكان فى ذكره إشارة إلى قول ابن المعتز مع زيادة الجناس فقال :

بل لا أكتفى بالمكتفى الذى جعله ابن المعتز غاية فى الحسن عنده لأنه انتقل من أدنى إلى أعلى. ألا ترى أن قول ابن سناء الملك فيه « بل » التى هى للإضراب ، وهذا غاية فى حسن النظم والتلاعب بالكلام ، وما ينكر هذا إلا من ليس له ذوق بالأدب ، فانه قد جاء هذا النوع كثيراً فى كلام المتأخرين ، أنشدنى صفى الدين الحلى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة :

يقبل الأرض عبد من عبيد كمو   عليكمو بعد فضل الله يعتمد
ما دار مية من أسنى مطالبه   يوما وأنتم له العلياء فالسند (١)

وابن جبارة قد جاوز الحد فى تعنته على ابن سناء الملك ، وأنكر دلالة التاريخ متعمداً ليؤكد زلات الشاعر. فقد ذكر أصحاب التاريخ أن المكتفى كان وسيما مليحاً بديع الحسن خمرى اللون معتدل الطول ، أسود الشعر (٢).

وأما البيت المنسوب إلى ابن المعتز فلا يوجد فى ديوانه الذى بين أيدينا ، وذكر ياقوت (٣) أن الثعالبى نسب هذا البيت إلى ابن المعتز ، وهو فى الحقيقة لأبى بكر محمد بن السراج النحوى ثم ذكر هذه القصة فى ترجمة ابن السراج (٤) : « حكى أن أبا بكر بن السراج كان يهوى جارية فجفته فاتفق وصول الإمام المكتفى فى تلك الأيام من الرقة فاجتمع الناس لرؤيته فلما شاهد أبو بكر جمال المكتفى تذكر معشوقته وجفاءها له فأنشد بحضرة أصحابه :

ميزت بين جمالها وفعالها   فإذا الملاحة بالخيانة لا تفى
سلفت لنا ألا تخون عهودنا   فكأنما حلفت لنا ألا تفى
والله لا كلمتها ولو انها   كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفى

ثم إن أبا عبد الله محمد بن اسماعيل بن زنجى الكاتب أنشدها لأبى العباس بن الفرات وقال هى لابن المعتز ، وأنشدها أبو القاسم بن عبيد الله الوزير فاجتمع الوزير بالمكتفى وأنشده إياه ، وقال للمكتفى هى لعبيد الله بن عبدالله بن طاهر فأمر له بألف دينار فوصلت اليه فقال ابن زنجى ماأعجب هذه القصة يعمل أبوبكر بن السراج أبياتاً تكون سببا لوصول الرزق إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فيظهر من هذه الواقعة أن ابن السراج عمل هذه الأبيات بعدما شاهد جمال المكتفى وأراد فى قوله إظهار صفة حسنه وجماله فيثبت أن زعم ابن جبارة فى خروج الشاعر إلى المكتفى كونه خليفة الأرض فى نظم الشأن ، وكبر السلطان ظن من الظنون لاتؤيده الحقائق ، ونسج على هذا المنوال الكاتب الشهير الصاحب بن عباد فى قوله :

---

(١) شرح لامية العجم للصفدى : ج ١ : ١٢٨ .
(٢) دول الإسلام للذهبى : ج ١ : ١٤١ راجع أيضاً : فوات الوفيات ترجمة المكتفى .
(٣) ارشاد الأريب : ٢ : ٣٣٢ لياقوت .
(٤) ارشاد : ج ٧ ص ١٠ . وقد نقله عنه محقق الديوان المطبوع ص ٤٧٩ .

والله لا راجعتـــه ولو انـه كالبدر أو كالشمس أو كبويه

فعندى اقتباس ابن سناء الملك أحسن من اقتباس الصاحب بن عباد . ولاشك أن رأى الصفدى له وجاهته وحسنه ، فلا ضير أن يكون المكتفى غاية فى الحسن والبهاء كما يمكن أن يكون غاية فى المنزلة وعظم السلطان ... سواء أنسبت هذه الأبيات إلى ابن المعتز أم إلى غيره .

هذه بعض الآراء التى قيلت فى دراسة شعر ابن سناء الملك وموشحاته ، وقد اكتفينا بذلك عن غيره من الآراء التى لا تعدو هذه الآراء ولاتزيد عليها .

(٣) ابن سناء الملك فى موكب الأدب العربى :

ظهر ابن سناء الملك فى عصر عرف كثيراً من الأدباء ، كتاب وشعراء فى مصر وفى الشام وفى العراق ، فقد عاصر فى مصر ابن قلاقس المتوفى سنة ٥٦٧ هـ وكان شاعراً مجيداً ، وكمال الدين ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ هـ ، والمهذب بن الزبير المتوفى سنة ٥٦١ هـ وعمارة اليمنى المتوفى ٥٦٩ هـ . وأسامة بن منقذ المتوفى ٥٨٤ هـ ، وابن الدروى وابن المنجم ، والاربلى ، وابن شمس الخلافة المتوفى ٦٣٢هـ ، وعمر بن الفارض المتوفى ٦٣٢ ، وجمال الدين الجزار شاعر الفسطاط ، وابن مطروح المتوفى ٦٤٩ هـ وابن أبى الأصبع العدوانى المتوفى ٦٥٤ ، وسيف الدين الياروقى المتوفى ٦٥٦ هـ ، وبهاء الدين زهير المتوفى ٦٥٦ هـ .

كما ظهر فى الشام فى هذا العصر كثير من الشعراء منهم ابن الساعاتى المتوفى ٦٠٤ هـ. وبهرام شاه بن فروخ شاه المتوفى ٦٢٨ هـ ، والشواء الحلبى المتوفى ٦٣٥هـ وأمين الدين الحلبى المتوفى٦٤٣ ، ونورالدين الأسعردى المتوفى ٦٥٦ هـ (١) وصدر الدين البصرى المتوفى ٦٥٩هـ .

وقد تعددت ألوان الشعراء ومذاهبهم فى هذا العصر فمن شعراء فنيين ،اتخذوا الشعر حرفة لهم ، يعيشون على مايدره عليهم من رزق كالقيسرانى ، وابن منير والعرقلة ، وابن النبيه . ومن شعراء جعلوا الشعر أداة يعبرون بها عما يجيش فى أنفسهم لايريدون على شعرهم مالا ولاجزاء كالشعراء من الملوك والأمراء والوزراء .

ومن هؤلاء الشعراء من ينحدر من العرب الخلص ، ومن ينحدر من الأتراك أو الأكراد أو القبط ، فالشاعر حسام الدين خشترين كان جنديا كرديا .

فى وسط هذا السيل الجارف من الشعراء والأدباء لمع ابن سناء الملك ، وقد ظهر نبوغه وهو لما يتجاوز العشرين من عمره حتى كتب عنه العماد الكاتب فى خريدته حين اطلع على قصيدته التى مطلعها :

فراق قضى للهم والقلب بالجمع وهجر تولى صالح عينى مع الدمع

وكان ابن سناء قد كتبها وهو فى مصر ثم سافر إلى الشام ليلتحق بالخدمة الفاضلية ، فكتب عنه العماد : « لقد وجدته فى الذكاء آية ، قد أحدث فى صناعة النظم والنثر غاية ، تلقى عرابة العربية له باليمين راية ، قد ألحقه الإقبال الفاضل فى الفضل قبولا ، وجعل طين خاطره على الفطنة مجبولا ، وأنا أرجو أن ترقى فى الصناعة رتبته ، وتروى بماء الدربة رويته وتستكثر فوائده ، وتؤثر قلائده » (٢).

وقد كتب عنه القاضى الفاضل كثيراً مما يدل على إعجابه به ، وأنه قد بلغ الغاية فى البلاغة ، وأن قلمه قد

---

(١) راجع : تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان : ١٤ .

(٢) راجع : الخريدة : للعماد الكاتب.

أعطى به الراية « بل إنه قد جعل بعض قصائده كالمعلقات ، فيرى أن العرب قد علقت ماهو أدون منها ، فالمعلقات بعدها قد زادت على عدتها ، وفضلتها هذه بجودتها (١) ».. وهو يعنى قصيدته التى مطلعها :

أمجلس لهوى ليس لى منك مجلس لأوحشت لما غاب لى عنك مؤنس

وقد عده ابن خلكان ، أحد الفضلاء الأدباء الرؤساء النبلاء ، وقال عنه ، إنه كان كثير التنعم والتخصص وافر السعادة محظوظا من الدنيا ، يجتمع فى مجلسه الشعراء المجيدون ، واستحسن من شعره قوله فى مدح القاضى الفاضل :

ولو أبصر النظام جوهر ثغرها لما شك فيه أنه الجوهر الفرد
ومن قال إن الخيزرانة قدها فقولوا له إياك أن يسمع القد

كما استحسن قوله :

لا الغصن يحكيك ولا الجوذر حسنك مما كثروا أكثر
يا باسما أبدى لنا ثغره عقدا ، ولكن كله جوهر
قال لى اللاحى ألم تستمع فقلت : يالاحى أما تبصر (٢)

وقد بلغ القاضى السعيد أن أبا المكارم هبة الله بن وزير ابن مقلد الكاتب قد هجاه فأحضره إليه وأدبه وشتمه ، وقد تعصب الشعراء لابن سناء فكتب إليه نشو الملك أبو الحسن على بن مفرج المعروف بابن المنجم .

قل للسعيد أدام الله نعمته صديقنا ابن وزير كيف تظلمه
صفعته إذ غدا يهجوك منتقما فكيف من بعد هذا ظلت تشتمه
فإن تقل ما هجو عنده ألم فالصفع والله أيضاً ليس يؤلمه

فجرأة ابن سناء على أن يصفع ابن مقلد ثم يهجوه بعد ذلك ، وتعصب الشعراء لابن سناء ، وتحسينهم صنعه ، يدل على مكانة ابن سناء الاجتماعية ، ومنزلته الأدبية فى نفوسهم ، وحرصهم على رضائه .

وإذا نظرنا إلى ابن سناء وجدناه واحداً من ألمع شعراء العصر يرجع فى أصوله الفنية والمعنوية إلى مارجع إليه الشعراء وإن كانت له شخصيته وطابعه المستقل وقد ظهرت اتجاهاته الفنية فى ديوانه كما ظهرت فى موشحاته فالقد كان حريصا على الجناس اللفظى ، وعلى المقابلة بين المعانى ، والاعتماد على العقل فى توليد الأفكار وتمثل التراث الشعرى القديم من ناحية التشبيهات والاستعارات ، ومحاولة الزيادة فيه والإضافة فى الجزئيات إليه ، ومواصلة ما اصطلح عليه الشعراء من الشكوى والعتاب ومن جعل المحبوب مثلا أعلى فى الجمال من كل وجه وناحية ، ومن الحديث عن الصد وعذل العاذلين ، وعذاب المحب وألمه ، وسهاده وبكائه ، ودلال الحبيب وسطوته ، ومن الحديث عن الخمر والتغزل فيها ، ووصف لونها وحببها وأثرها فى شاربيها وماتنطوى عليه من لذة ، ومن الإشارة إلى الرياض ، وإقامة التشبيهات بين مظاهرها ، وبين أعضاء المحبوبة ، ولقد تغزل فى أشعاره وفى موشحاته بالغلمان وبالأتراك منهم خاصة ، كما ظهر فيهما سمات الحضارة وسمات البداوة فى الحديث عن المعشوق.

---

(١) المصدر السابق :
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان .

وقد شغف ابن سناء بحسن التعليل ، وبالمفارقات ، وبإيراد ما يشبه القضايا المنطقية ، والحجج العقلية ،وقد ظل هذا قائماً فى الموشحة ، ولكنه لم يتوسع فيه توسعه فى الشعر لأنه شغل نفسه بتلمس القوافى الكثيرة ، ولذلك كان تجديده فى المعانى ، وابتكاره فيها أوضح فى شعره منه فى موشحاته(١) » .

(٤) مدرسة ابن سناء الملك :

لقد اجتهد بعض النقاد ودارسو الأدب الفاطمى والأيوبى أن يلحقوا كل أديب من هذا العصر بمدرسة من المدارس الأدبية ، فهذا يلحق بمدرسة العقائد لأن أدبه قد تأثر بالعقائد الفاطمية ، وذاك من مدرسة الرقة والسهولة لأنه أكثر من الغزل وذاك من مدرسة الكتاب لأنه تأثر باتجاهات الكتاب وطابع الكتابة ونحا منحى القاضى الفاضل (٢) .

ودارس آخر ينزع فى تقسيم المدارس ناحية أخرى وهى أن هذا الأديب من مدرسة المجددين وذاك من مدرسة التقليديين ؛ فهو من المدرسة الأولى إذا نزع بأدبه نزعة تجديدية فى الصور والأخيلة والمعانى ، وهو من مدرسة المقلدين إذا سار على نهج الشعراء الأقدمين فى خياله وتصويره وتفكيره (٣) .

ما مدرسة ابن سناء إذن ؟

هل نستطيع أن نلحقه بمدرسة العقائديين؟ : لقد تأثر شعره تأثراً واضحاً بالعقائد الفاطمية وإن لم يكن شيعى المذهب ؛ فقد ظهرت فيه بعض المصطلحات والعقائد الفاطمية ،واستخدم فيه من غريب الألفاظ ما أدى أحياناً إلى شىء من التعقيد فهو حين يمدح صلاح الدين يقول :

أعدت إلى مصر سياسة يوسف وجددت فيها من سميك موسما
وأحييت فيها الدين بعد مماته فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما
بقيت إلى أن تملك الأرض كلها ودمت إلى أن يرجع الكفر مسلما

فالمشابهة بين صلاح الدين وبين يوسف عليه السلام فى الاسم حقيقة ولكن الشاعر قد جعله ابن يعقوب وجعله ابن مريم الذى أحيا الدين بعد مماته ، وهذا لا يقبل إلا على أساس واحد وهو الجرى على حسب العقيدة الفاطمية التى تؤول الآيات القرآنية التى وردت فى المسيح بأن إحياء الموتى معناه نشر الدين ، وإحياء النفوس بالعبادة . ويقول ابن سناء فى مدح السلطان على بن صلاح الدين :

مولى الأنام على هكذا نقلت لنا الرواة حديثاً غير مختلق

فقد نقل الشاعر الحديث النبوى : « من كنت مولاه فعلى مولاه » الذى قيل فى على بن أبى طالب إلى السلطان على متبعا سنة الشعراء الفاطميين .وكما تأثر ابن سناء بهذا المذهب تأثر غيره ، وشاركوه هذا الاتجاه كابن النبيه وابن لساعاتى وابن مطروح . وبعد . فهل ابن سناء من مدرسة العقائديين ؟ الواقع أن هذه مدرسة قد بدأت فى الانقراض نتهاء الدولة الفاطمية حتى لم يعد لها مقومات المدرسة ، وإن ألمّ ببعض خصائصها الشعراء . وظهر أثرها فى شعرهم

(١) ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار .
(٢) راجع دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين : ١٨٥ .
(٣) راجع ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار للدكتور الأهوانى .

لأنهم لم يقصدوا إلى ذلك قصداً ،ولم يكن يعنيهم أن يلموا بتلك الخصائص ،وإنما تنساب إليهم خصائصها وطابعها عبر الزمن كميراث متخلف عن الفاطميين الراحلين والذى ينبغى أن نسميه مدرسة هوما يتجه إليه الشعراء عن عمد ومعرفة بمناهجها وطابعها وخصائصها ، فليس ابن سناء من هذه المدرسة إذن وإن ألمّ ببعض خصائصها.(١)

هل هو من مدرسة الرقة والسهولة ؟

يرى الدكتور محمد كامل حسين أن هذه المدرسة تعد فى العصر الأيوبى امتداداً وتطوراً للفن الذى يلائم الحياة المصرية والبيئة المصرية ، وأنها كانت تضم أكثر الشعراء فى ذلك العصر فالألفاظ لينة ، وبحور الشعر مجزوءة أو قصيرة ، ولا يظهر فى فنهم أى لون من ألوان التكلف ، وقل أن نجد ألوان الزينة اللفظية إلا ما جاء للتظرف ، وأكثر شعراء هذه المدرسة من الغزليين حتى إن مذهبهم عرف فى العصر الأيوبى بالطريقة الغرامية ؛ فقد اهتم هؤلاء الشعراء اهتماماً خاصاً بالمقدمات الغزلية فى قصائدهم المختلفة ، ومن شعراء هذه المدرسة البرهان بن إبراهيم بن الفقيه (٦٤٠ هـ) القائل :

ولهف جـــدى وواحـــــزنى ممن ألاطفه جهـدى ويتعبنى
بذلت روحى فى أدنى تواصله ذلا وصبراً وعطفا وهو يهجرنى
وكلما رمت منـه ما أهز بــه عطف السرور انزوى عنى وأحزننى

فالألفاظ سهلة حتى كأن الشاعر يتحدث حديثاً عادياً ، وقد ظن بعض النقاد أن الشعراء يستعملون الألفاظ العامية ،وقد دفعهم إلى ذلك ماالمسوه من سهولة الألفاظ ورقتها.ومن شعراء هذه المدرسة أيضاً أمين الدين بن أبى الوفاء المعروف بابن العصار ، وهو من شعراء الملك الكامل بن العادل وهو القائل :

أعنـدكم أن قلـبى متـــيم مسـتهام
الصـبر إلا عليـــكم فى كل حال حـــرام
لاأوحش الله منـــكم فقـــربـكم ما يرام

ومن شعرائها هبة الله بن عرام ، والشاعر النفيس أبو العباس أحمد بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٠٣هـ والبهاء زهير ، وغير هؤلاء ممن ظهروا فى هذه الفترة .

وبعد : فهل يمكن أن نعد ابن سناء من أنصار هذه المدرسة .. لقد خص كثيراً من شعره فى الغزل بل إن لغزل هو الغرض الثانى فى ديوانه .. وأكثر من ذلك فقد أطال فى مقدماته فى المدائح وجعل الغزل يحتل نصف قصيدة المدح . فحين يمدح القاضى الفاضل يقول :

قتــلى لحبــكم شـهاده وشقاوتى فيكم سـعاده
وكذاك كفرى بالعذو ل على محبتـكم عبـاده
ويح العـذول إذا مضى من عذله فن أعــــاده
والنفس تفرق فى معـا داة الأحاديث المعـــاده
تم الغـــرام بكم فلا نقص عليه ولا زيـادة

---

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين : ١٨٥ .

بأبي وأمي أغيـــد وإذا اعتبرت وجدت غاده
خفر الشمائل لين الأعطا ف مستعصى المقـــاده

وهكذا نجد كثيراً من شعره فى المدح قد صدر بهذا الغزل الرقيق ، ومن أجل ذلك جعله الدكتور محمد زغلول سلام الشاعر المفتن الرقيق فعده من شعراء هذه المدرسة وإن لم يفصح عن ذلك صراحة (١) أما الدكتور محمد كامل حسين فقد جعله من مدرسة الشعراء الكتاب . فما معالم هذه المدرسة ولماذا عده من أنصارها ؟

معالم مدرسة الكتاب :

لقد كان شعراء هذه المدرسة يخضعون للاتجاهات الفنية التى يخضع لها الكتاب ، وكان فنهم يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شىء ، واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع الضخم والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع مع حلاوة الإيقاع ، وكانوا يتلاعبون بهذه الألفاظ تلاعباً تظهر فيه أثر الصناعة وأثر التكلف ، وكانوا يحلون فنهم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية ، ومراعاة نظير إلى غير ذلك من ألوان البديع والبيان .ومن أنصار هذه المدرسة القاضى الموفق وابن الخلال وابن أبى الشخباء ، والقاضى الجليس وابنى الزبير ، وعمارة اليمنى فى العصر الفاطمى ، وفى الأيوبى : الأسعد بن مماتى ، وابن المرصص ، وابن عرام ، وابن ظافر على أنهم التقوا مع مدرسة الرقة والسهولة ومعهم ابن سناء الملك .

والواقع أن ابن سناء كان تلميذاً للقاضى الفاضل كما أسلفنا يسترشد بآرائه ويعنى بنقده ، وكان يعنيه أن يستجيد شعره ... والقاضى الفاضل كان – كما نعلم – زعيم مدرسة الكتاب فى العصر الأيوبى إن لم يكن هو منشؤها ولذا نرى أن ابن سناء الملك قد تأثر به تأثراً كبيراً وإن كانت له شخصيته ، والشعراء الآخرون الذين تأثر بهم وعدهم أساتذة له كابن المعتز وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك .

بقى أن نشير إلى أن ابن سناء كان يحاول الابتكار والتجديد وإن دفعه ذلك إلى نزعة عقلية ابتعدت به أحياناً عن رياض الشعر المونقة(١) فابن سناء إذن ينزع منزع مدرسة الكتاب وإن تعلق بآثار الأقدمين فاقتدى بهم فى كثير من صورهم وتفكيرهم .

---

(١) الأدب فى عصر صلاح الدين الأيوبى : ٣٦٥ .

المراجع

١ – إبراهيم سلامة : –
البلاغة لأرسطو بين العرب واليونان – طبع مطبعة أحمد مخيمر بالقاهرة سنة ١٩٥٠

٢ – ابن عزارى المراكشى : –
البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ طبع مطبعة المناهل ببيروت سنة ١٩٥٠ .

٣ – ابن سعيد المغربى : – أبو الحسن بن سعيد على بن موسى بن عبد الملك (المتوفى سنة ٦٥٣ أو سنة ٦٨٥ ﻫ :
١ – الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط ج ٢ (خط)
٢ – المغرب فى حلى المغرب – طبع ليدن سنة ١٨٩٩ .

٤ – ابن مطروح : (الصاحب جمال الدين أبو الحسن يحيى بن عيسى) المتوفى سنة ٦٤٩ ﻫ : –
ديوان ابن مطروح – طبع القسطنطينية ١٢٩٨ ﻫ

٥ – أحمد أحمد بدوى : –
١ – الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام – طبع ونشر مطبعة نهضة مصر بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م
٢ – الحياة الفكرية والعقلية فى عصر الحروب الصليبية – مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٢ .

٦ – أحمد أمين : –
ظهر الإسلام الطبعة الثانية طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦١ .

٧ – أحمد بن الحسين – أبو الطيب المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ ﻫ : –
ديوان المتنبى – مطبعة هندية بالموسكى سنة ١٣٤٢ ﻫ سنة ١٩٢٣ م

٨ – أحمد شلبى :
تاريخ التربية الإسلامية – دار الكشاف للنشر والطباعة بالقاهرة سنة ١٩٥٤ .

٩ – أحمد بن على بن حجر الكنانى المتوفى سنة ٨٥٢ ﻫ : –
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة – طبع الهند سنة ١٣٥٠ ﻫ

١٠ – أحمد بن على المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ ﻫ : –
(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا – تحقيق : د . جمال الدين الشيال دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٤٨ .
(٢) إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات فى مصر – طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠ – تحقيق محمد مصطفى زيادة .

(٣) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار – مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ .

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك : تحقيق محمد مصطفى زيادة ج ١ طبع القاهرة سنة ١٩٣١ م

١١ – أحمد القلقشندى (أبو العباس) المتوفى سنة ٨٢١ هـ : –

صبح الأعشى – المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ سنة ١٩١٣ م .

١٢ – أحمد بن محمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ : –

وفيات الأعيان : تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ

١٣ – أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ : –

ديوان أسامة بن منقذ – مخطوط بدار الكتب رقم ١٣١٣ أدب .

١٤ – اسماعيل بن القاسم (أبو العتاهية) المتوفى سنة ٢١٠ هـ : –

ديوان أبى العتاهية – طبعة بيروت سنة ١٨٨٦ م

١٥ – اسماعيل بن كثير (عماد الدين أبو الفدا) المتوفى ٧٧٤ هـ : –

البداية والنهاية ج ١٣ – طبع مطبعة السعادة بالقاهرة .

١٦ – اسماعيل (أبو الفدا عماد الدين) صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ : –

(١) المجالس المؤيدة ج ١

(٢) المختصر فى أخبار البشر – المطبعة الحسينية المصرية – الطبعة الأولى سنة ١٩٠٧ م

١٧ – بارتولد Bartoild : –

تاريخ الحضارة الإسلامية – ترجمة حمزة طاهر ، طبع دار المعارف سنة ١٩٥٨ م .

١٨ – بروكلمان : Brouklmann : –

تاريخ الشعوب الإسلامية – ترجمة الدكتور نبيه فارس، ومنير البعلبكى – مطبعة الكشاف ١٩٤٩م ببيروت .

١٩ – جورجى زيدان :

تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ – طبع مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٩١٣م .

٢٠ – حافظ أحمد حمدى : –

الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى – مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩٥٠م.

٢١ – حامد عبد القادر :

دراسات فى علم النفس الأدبى – طبع المطبعة النموذجية بمصر سنة ١٩٤٩م .

٢٢ – حسن ابراهيم حسن :

(١) تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب طبع مكتبة النهضة المصريه سنة ١٩٥٨ م .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى–مطبعة الاعتماد بالقاهرة سنة ١٩٤٥م، سنة ١٩٤٦ م.

٢٣ – حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : –
المعز لدين الله الفاطمى – مكتبة النهضة المصرية سنة١٩٦٣ م .

٢٤ – الحسن بن عبد الله بن سهل (أبو هلال العسكرى) المتوفى سنة ٣٩٥ هـ : –
الصناعتين : تحقيق الأستاذين محمد أبو الفضل إبراهيم – وعلى البجاوى مطبعة الحلبى سنة ١٩٥٢ م.

٢٥ – حمزة بن القلانسى – المتوفى سنة ٥٥٥ هـ : –
ذيل تاريخ دمشق – طبع بيروت سنة ١٩٠٨ م .

٢٦ – حنا الفاخورى وخليل الجر :
تاريخ الفلسفة العربية – بيروت – دار المعارف سنة ١٩٥٧ م :

٢٧ – خير الدين الزركلى : –
الأعلام ج ٢ : طبع المطبعة العربية بمصر ١٣٤٥ هـ سنة ١٩٢٧ م.

٢٨ – راشد البراوى : –
حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين – القاهرة – مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٨ م.

٢٩ – سبط بن التعاويذى : –
ديوان سبط بن التعاويذى – طبع مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٠٣ م. تحقيق مرجليوث .

٣٠ – السيد الباز العرينى : –
مصر فى عصر الأيوبيين – القاهرة – مطبعة الكيلانى الصغير سنة ١٩٦٠م العدد ٢٦٩ من الألف كتاب

٣١ – سيديو Sidiau : –
تاريخ العرب العام – ترجمة عادل زعيتر – طبع عيسى البابى الحلبى ١٩٤٩م .

٣٢ – شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد (ابن مماتى) : –
قوانين الدواوين – مطبعة إدارة الوطن بمصر سنة ١٢٩٩ هـ .

٣٣ – الشهرستانى : – (أبو الفتح محمد بن أبى القاسم) المتوفى سنة ٥٤٨ هـ
الملل والنحل – طبع القاهرة سنة ١٢٨٨ هـ .

٣٤ – شوقى ضيف : –
الفن ومذاهبه فى النثر العربى – القاهرة – دار المعارف سنة ١٩٦٠ م .

٣٥ – صلاح الدين الصفدى : – المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .
الغيث المنسجم فى شرح لامية العجم مطبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ .

٣٦ – طه حسين وآخرون : –
التوجيه الأدبي – طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٢ م.

٣٧ – عباس محمود العقاد :
ابن الرومي : حياته من شعره – مطبعة حجازى بالقاهرة – الطبعة الثانية سنة ١٩٣٨ م.

٣٨ – عبد الحي بن العماد الحنبلي : المتوفى سنة ١٠٧٩ ه .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب – طبع القاهرة سنة ١٣٥٠ ه .

٣٩ – عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ه : –
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة – طبع مصر سنة ١٣٢٧ ه.

٤٠ – عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المتوفى ٦٦٥ ه (أبوشامة) : –
(١) الروضتين فى أخبار الدولتين ج ٢ مطبعة وادى النيل بمصر سنة ١٢٨٧ ه .
(٢) ذيل الروضتين – الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ م .

٤١ – عبد الرحمن بن محمد المعروف (بابن خلدون) المتوفى سنة ٨٠٨ ه : –
كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر – المعروف بتاريخ ابن خلدون تصحيح علال الفاسى وعبد العزيز إدريس – مطبعة النهضة سنة ١٩٣٦م .

٤٢ – عبد الرحمن بن نصر (الشيرازى) : – نبغ فى حلب سنة ٥٦٥ ه.
نهاية الرتبة فى طلب الحسبة – أشرف على طبعه : السيد الباز العريني ومحمد مصطفى زيادة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٦ م .

٤٣ – عبد الرزاق حميدة : –
فى الأدب المقارن – طبع القاهرة ١٩٤٩ م .

٤٤ – عبد العزيز الأهوانى : –
ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار – طبع الأنجلو بالقاهرة ١٩٦٢ م .

٤٥ – عبد العزيز القوصى :
علم النفس : أسسه وتطبيقه – مكتبة النهضة سنة ١٩٥٧ م .

٤٦ – عبد العظيم بن عبد الواحد (ابن أبى الإصبع المصرى) المتوفى سنة ٦٥٤ ه : –
بديع القرآن : تحقيق حفنى محمد شرف – الطبعة الأولى ١٣٧٧ ه – ١٩٥٧ م مكتبة نهضة مصر بالفجالة .

٤٧ – عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى – المتوفى سنة ٤٢٩ ه : –
الفرق بين الفرق – حقق أصوله ، وضبط شكله ، وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد – القاهرة – مكتبة محمد على صبيح وأولاده سنة ١٩٦٤م .

٤٨ – عبد الكريم العثمانى : –
الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص – نشر مكتبة وهبة سنة ١٩٦٣ م .

٤٩ – عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادى الشافعى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ : –
الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة ، والحوادث المعاينة بأرض مصر – طبع مطبعة وادى النيل بالقاهرة ١٢٨٦ هـ .

٥٠ – عبد اللطيف حمزة : –
(١) أدب الحروب الصليبية – مطبعة السعادة ١٩٤٩ م .
(٢) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية – مكتبة النهضة المصرية العدد ٢٤٢ من سلسلة الألف كتاب (لم يؤرخ) .

٥١ – عبد الملك الثعالبى المتوفى سنة ٤٠٩ هـ :
يتيمة الدهر – طبع مطبعة الصاوى ١٣٥٢ هـ ، ١٩٤٣ هـ – الطبعة الأولى .

٥٢ – على إبراهيم حسن : –
مصر فى العصور الوسطى (من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى) مطبعة السعادة ١٩٤٩ م .

٥٣ – على أبو بكر المعروف بابن حجة الحموى : – المتوفى سنة ٨٣٧ هـ
(١) ثمرات الأوراق – طبع مصر سنة ١٣٠٠ هـ
(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب – طبع المطبعة الأميرية ببولاق .سنة ١٢٩١ هـ .

٥٤ – على بن أنجب بن الساعى : المتوفى ٦٧٤ هـ :–
الجامع المختصر ج ٩ – نشره مصطفى جواد – المطبعة السريانية الكاثوليكية – بغداد سنة ١٩٣٤ م .

٥٥ – على بن بسام الشنترينى : المتوفى سنة ٥٤٢ هـ :–
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – إصدار كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول ج ١ بمصر سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .

٥٦ – على بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ :–
الكامل فى التاريخ حـ ٤ ، ٩ الطبعة الأولى سنة ١٣٠١ هـ .

٥٧ – على بن محمد (ابن النبيه) : المتوفى سنة ٦١٩ هـ :–
ديوان ابن النبيه – مطبعة عبد الغنى فكرى سنة ١٢٨٠ هـ – تحقيق عبد الله فكرى .

٥٨ – عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ :–
النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية – طبع مدينة شالون ١٨٩٧ م .

٥٩ – عمر الدسوقى :–
(١) إخوان الصفا – العدد ١٥ من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية – طبع مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٤٧ م.
(٢) الحماسة – نشره مع آخرين ، بتكليف من وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٦٠م .

(٣) فى الأدب الحديث ــ القاهرة دار الفكر العربى ١٩٦١ م.

٦٠ ــ عمر بن مظفر المعروف (بابن الوردى) المتوفى سنة ٧٤٩ هـ :ــ
ديوان ابن الوردى ــ طبع الجوائب ــ بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ .

٦١ ــ قدامة بن جعفر ــ (أبو الفرج) :
نقد الشعر ــ تحقيق محمد عيسى منون المطبعة المليجية سنة ١٩٣٤م بالقاهرة .

٦٢ ــ مجموعة الوثائق الفاطمية ــ طبع ونشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٨م .

٦٣ ــ محمد بن أبى الرجاء (عماد الدين الأصبهانى) المتوفى ٥٩٧ هـ .
خريدة القصر، وجريدة أهل العصر جـ ١ مصور بدار الكتب رقم ٤٢٥٥ أدب . وقسم شعراء مصر . تحقيق الأساتذة : أحمد أمين وآخرين مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٢ م .

٦٤ ــ محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى المعروف بابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ :ــ
رحلة ابن جبير ــ الطبعة الأولى بمصر ١٩٠٨ م.

٦٥ ــ محمد بن أحمد الكتبى (ابن شاكر) المتوفى ٧٦٤ هـ :ــ
فوات الوفيات ــ مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .

٦٦ ــ محمد بن أحمد بن عثمان المعروف (بالذهبى) المتوفى ٧٤٦ هـ .
دول الإسلام ــ مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٣٧ هـ .

٦٧ ــ محمد جمال الدين سرور :ــ
(١) مصر فى عصر الدولة الفاطمية ــ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٠م العدد ٢٧٤ من الألف كتاب .
(٢) النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة ــ دار الفكر العربى ١٩٥٩م .

٦٨ ــ محمد خلف الله :ــ
الثقافة الإسلامية ، والحياة المعاصرة ــ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٥ م .

٦٩ ــ محمد زغلول سلام :
الأدب فى عصر صلاح الدين ــ طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ١٩٥٩م .

٧٠ ــ محمد بن سالم بن المازنى التميمى (جمال الدين بن واصل) المتوفى سنة ٦٩٧ هـ :ــ
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ١ ، ٢ ــ إدارة إحياء التراث القديم بإدارة الثقافة العامة بوزارة المعارف العمومية سنة ١٩٥٣ م .

٧١ ــ محمد سيد كيلانى :ــ
الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام : طبع دار الكتاب العربى بالقاهرة سنة ١٩٤٩م .

٧٢ – محمد بن على بن يوسف بن جلب المعروف (بابن ميسر) المتوفى ٦٧٧ هـ :–
أخبار مصر : تعليق ونشر جوستاف فت – مطبعة المعهد الفرنسى سنة ١٩١٩ بالقاهرة .

٧٣ – محمد كامل حسين :–
(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية– العمرية سنة ١٩٥٩م. – العدد ٢٤٤ من مجموعة الألف كتاب .
(٢) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين – القاهرة : دار الفكر العربى طبع سنة ١٩٥٧ م .

٧٤ – محمد كرد على :–
خطط الشام ودمشق – مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٥٤ هـ ، ١٩٢٦ م .

٧٥ – محمد منصور أحمد :–
الشرق الأوسط فى موكب الحضارة جـ ٣ – مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٠م .

٧٦ – محمد بن نصر المشهور (بابن عنين) الأنصارى الدمشقى :–
ديوان ابن عنين – نشره : خليل مردم – طبع مطبعة دمشق سنة ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .

٧٧ – محيى الدين بن عربى :–
فصوص الحكم : تحقيق : أبو العلا عفيفى – طبع مصر ١٩٤٦ م .

٧٨ – نصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ :–
الوشى المرقوم فى حل المنظوم – مطبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ هـ .

٧٩ – النعمان بن محمد بن حيون المغربى المتوفى ٣٦٣ هـ :–
ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة – طبع دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٩ م بالقاهرة .

٨٠ – نعيم الحمصى وخليل الهنداوى :–
الأدب العربى ونصوصه – طبع مطبعة ربيع بحلب .

٨١ – هبة الله بن سناء الملك المتوفى ٦٠٨ هـ :
(١) دار الطراز فى عمل الموشحات – تحقيق جودة الركابى – بيروت المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٤٩م .
(٢) ديوان ابن سناء الملك .
(٣) فصوص الفصول وعقود العقول (خط) بدار الكتب.

٨٢ – ياقوت الرومى البغدادى الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ:–
(١) إرشاد الأريب (معجم الأدباء) جـ ٢ ، ٧ نشره الدكتور فريد رفاعى سنة ١٩٣٦ م .
(٢) إرشاد الأريب (معجم الأدباء) جـ ١٩ نشره الدكتور فريد رفاعى سنة ١٩٣٨.

٨٣ – يوسف تغرى بردى الأتابكى المتوفى سنة ٨٧٤هـ :–
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٣ م .

٨٤ — يوسف بن شداد المتوفى ٦٣٢ هـ :

النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية — مطبعة الآداب بمصر سنة ١٣١٧هـ .

٨٥ — يوسف بن قزأوغلي المعروف بسبط بن الجوزي المتوفى ٦٥٤ هـ :—

مرآة الزمان جـ ٨ طبع حجر بشيكاغو سنة ١٩٠٧م .



الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

المكتبة العربية

- ٦٩ -

التأليف (٤٨)

الأدب [٣٩]

القاهرة
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

"المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر"

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الثمن ١٥٠ قرشا